الإمامة والولاية في القرآن الكريم

المؤلفون
نخبة من العلماء

بسم الله الرحمن الرحيم


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الإمامة والولاية
في
القرآن الكريم

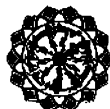
تأليف

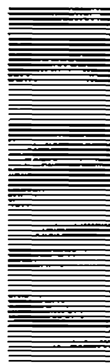
نخبة من العلماء



تحقيق

المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام





اسم الكتاب: الإمامة والولاية في القرآن الكريم

المؤلف: نخبة من العلماء

الموضوع: كلام

الناشر: مركز الطباعة والنشر للمجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام

الطبعة: الاولى

المطبعة: ليلى

الكمية: ٥٠٠٠

تاريخ النشر: ١٤٢٧ هـ

ISBN: 964-529-109-7

www.ahl-ul-bayt.org

أهل البيت عليهم السلام

في القرآن الكريم

إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا

سورة الأحزاب / آية : ٣٣

أهل البيت عليهم السلام

في السنة النبوية

إني تارك فيكم الثقلين

كتاب الله وعترتي أهل بيتي

ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبدا

« الصحاح والمسانيد »

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾

(المائدة: ٥٥)



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

كلمة المجمع

الحمدلله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه أجمعين، محمّد وآله الطيّبين الطاهرين.

تحظى الإمامة بموقع متقدّم في التصوّر الإسلامي، وهو موقع يفرضه الواقع وتستلزمه طبيعة الحياة الاجتماعية للإنسان، فإنّ الإمامة ـ بما هي رئاسة عامّة في شؤون الدين والدنيا ـ تعدّ أمراً أساسياً في مسيرة النبوّات والشرائع السماوية، وفي الحياة اليومية للإنسان على حدٍّ سواء. ولعلّ أبرز مؤشر واقعي تاريخي يؤيّد المكانة المتقدّمة للإمامة؛ هو أنّها كانت الأساس والسبب الرئيس لاختلاف المسلمين طيلة التاريخ الإسلامي، بمعنى أنّ اختلافات المسلمين كانت ولا زالت تتمحور بصورة مباشرة أو غير مباشرة حول محور الإمامة، وحتّى الإختلافات القائمة بشأن العدل الإلهي والقضاء والقدر وغير ذلك من المسائل التوحيدية الإلهية ليس بالإمكان حلّها والتغلّب عليها، ما لم تُحلّ أوّلاً مسألة الإمامة والدور الممنوح لها في بيان حقائق الرسالة وشؤون النبوّة.

وقد واجهت الإمامة في التاريخ الإسلامي أربعة مواقف متفاوتة، هي:

١ ـ موقف النفي.

٢ ـ موقف الإيمان السطحي.

٣ ـ موقف الإيمان العميق.

٤ ـ موقف الغلو.

التزم بالموقف الأوّل النجدات، وهم فرقة من الخوارج آمنوا بعدم لزوم الإمامة في حياة المسلمين، وعبّر عن الموقف الرابع غلاة جهلة من الّذين اعتقدوا بأنّ الدين يتلخّص كلّه بمعرفة الإمام فإذا عُرف الإمام سقطت كلّ الواجبات، وفيهم من اعتقد بأُلوهية الإمام. أمّا الموقف الثاني والثالث فيمثلهما عامّة المسلمين من جميع الفرق حيث قام الإجماع بينهم على لزوم الإمامة في البيئة الإسلامية، لكنّ المدرسة السنية أخذت بالموقف الثاني والمدرسة الإمامية اتّبعت الموقف الثالث.

آمنت المدرسة السنية بأنّ الإمامة وظيفة سياسية وإدارة دنيوية تنفيذية لبعض شؤون المجتمع الإسلامي، وأنّ وليّ الأمر يتمّ التوصل إليه من خلال الشورى والبيعة والغلبة، وقد وصفنا هذا الموقف «بالإيمان السطحي» وذلك بالقياس الى الموقف الثالث المتبنّى من قبل مدرسة أهل البيت والذي يعتبر الإمامة جزءاً من شؤون الرسالة السماوية بحيث لا تتم إلّا به، ولذا فهي من أُصول الدين التي لا يكمل الاعتقاد الديني إلّا بها، ولا يقبل عمل من أعمال العباد بدونها **«من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية»**،وهي لا تنبثق من خلال دور بشري كالشورى والبيعة، وإنّما تتعيّن بالنصّ السماوي ويشترط فيها العصمة والأفضلية على سائر الخلق بالعلم والعمل، وللإمام دور في بيان حقائق الرسالة وغوامض النبوّة، وله الولاية التكوينية، والشهادة على أعمال الخلق،

وأنّ حبّه إيمان وبغضه نفاق، وأن الله قد مدّ في عمر الإمام الثاني عشر عليه السلام لكي يبقى هذا الموقع الرسالي محفوظاً للسماء ولا يطمع فيه أحد من الناس، ولكي يستوعب خطّ الإمامة البشرية بأسرها.

وهذه الخصائص الرفيعة تعكس اهتماماً اضافياً وعناية خاصة توليها مدرسة أهل البيت عليهم السلام لمسألة الإمامة، وقد ورد في نصوص الأئمة عليهم السلام أنّه: «لم يناد بشيء ما نودي بالولاية»[1].

وقد يعدّ البعض ذلك نوعاً من المبالغة والإفراط، ولكنّنا حينما نتمعّن في الأمر ونتوغّل في أعماقه ندرك استحقاقه لكلّ ذلك، ذلك أنّ الدين الخاتم والرسالة العظمىٰ والنبوّة الأخيرة لابدّ وأن يتمّ التحفّظ عليها، والاحتياط الشديد بشأنها، حتّى تبقى الى آخر الزمان حقيقة ناصعة وحجّة بالغة على البشرية وحتّى آخر إنسان فيها، وعلى صعيد التطبيق وقيادة التجربة الإسلامية الأُولىٰ لابدّ وأن تُعهد هذه المهمة الى قيادة ممتازة ومن نوع خاص وذات مؤهّلات استثنائية، حتى يتمّ إنجاز الدورة الحضارية الأُولى للإسلام في ظلّ رعاية سماوية وتخطيط سماوي مباشر، لتأخذ الأُمة المران الكافي والتدريب اللازم على قيادة التجربة، في الدورات اللاحقة غير السماوية، وحتى يتم التأكد من أنّ التجربة قد قامت على أُسس معصومة، وأنّ رواسب الجاهلية وآثارها قد تمّ تصفيتها من شعور الأُمة ولا شعورها، فلابدّ وأن تكون المرحلة التأسيسية للحضارة الإسلامية مرحلة خاضعة لإشراف سماوي، ومن دقائق التعبير ماورد في الحديث

---

(١) الحر العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة: ج ١ / ص ١٠ ط، بيروت ـ دار إحياء التراث العربي.

القدسي: «ولاية علي بن أبي طالب حصني فمن دخل حصني أمن من عذابي»[1] فالولاية والإمامة حصن الرسالة، بل حصن التوحيد والسياج المنيع له.

وحيث إنّنا نتحدّث عن حضارة ومراحل حضارية فمن الطبيعي أن لا تكون الإمامة محصورة بالعمر الطبيعي لإمام واحد أو إمامين، ولابدّ وأن تمتدّ لفترة زمنية كافية، ومن هنا جاء التحديد باثني عشر إماماً تناوبوا على الإمامة فترة دامت قرابة القرتين ونصف من الزمان، وأنّ الإمام الثاني عشر قد مدّ الله في عمره الى آخر الزمان مُغيّباً عن الأنظار حتى يبقىٰ موقع الإمامة محتفظاً بقدسيّته السماوية، وحتى تستشعر البشرية في الدورات اللاحقة رعاية السماء لها في شؤون التجربة وقضايا التطبيق بما يمدّها بزخم روحي يعينها على الاستقامة أكثر فأكثر.

وفي ظلّ هذه الرؤية المعمّقة للإمامة ندرك مدىٰ التهاون الذي وقعت فيه المدرسة السنية حينما أوكلت أمر الخلافة والإمامة الى مجتمع كان بالأمس القريب مشبعاً بالشرك والعصبية القبلية، وتمادت في هذا التهاون أكثر حينما آمنت بنظرية ولاية العهد وصحة الإمامة لمن تغلب بالسيف وانعقاد البيعة ولو بثلاثة أفراد بل وحتى بفردٍ واحد، وكأنّ الشريعة ما نادت بشيء أضعف وأهون من الإمامة والخلافة، وربّما كان هذا هو السبب الذي جعل بعض المفكّرين ينكرون وجود نظام سياسي في الإسلام، أمثال علي عبدالرازق في كتابه: «الإسلام وأُصول الحكم».

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ٣٩ /٢٤٦، ط. بيروت ـ مؤسسة الوفاء.

وسنترك القارئ مع كتاب «الإمامة والولاية في القرآن الكريم» ليطالع بنفسه الأدلّة والبراهين القرآنية على نظرية الإمامة طبقاً لمدرسة أهل البيت، ولكنّنا نتمسّك بالشاهد التاريخي المؤيّد لها، فالقضية التي كانت أساس الاختلاف في الأُمة والسبب الأخير لكلّ ما حصل فيها من فتن وحروب ونزاعات داخلية ومعارك فكرية وانشطارات مذهبية لا يعقل أن تكون هيّنة بالصورة التي تعكسها المدرسة السنية، وكيف يعقل حلّها بولاية العهد وبيعة أفراد قلائل فينفتح بذلك طريق الخلافة بأيسر ما يكون لشخص كيزيد بن معاوية؟ أليس من الصحيح أن يقال إنّ هذه هي المشكلة وليست الحلّ؟

كتاب الإمامة والولاية في القرآن الكريم

ويمثّل الكتاب ـ الذي بين أيدينا ـ محاولة موفّقة قام بها عدد من الأعلام والباحثين وهم: السيد عليّ أكبر الموسوي اليزدي، محمد المحمّدي الجيلاني، محمد اليزدي، حسين المظاهري، ومحمد تقي مصباح اليزدي ـ حفظهم الله تعالى ـ بقلم وتحرير الشيخ محمّدعلي التسخيري ـ دام ظلّه ـ لإثبات أُسس وخصوصيات نظرية الإمامة في مدرسة أهل البيت طبقاً لآيات من القرآن الكريم، وأهميته تنبع أساساً من أهمّية المنهج القرآني في إثبات العقيدة والبرهنة على خصوصياتها.

فإنّ هذا المنهج يأتي تكريساً لقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[1] واستنطاقاً لما فيه من الشواهد الدالّة على حقّانية مدرسة

---

(١) النحل: ٨٩.

أهل البيت عليهم السلام، فالكتاب الذي جاء تبياناً لكلّ شيء، لابدّ وأن يكون قد انطوىٰ على بيانات كافية وشافية في مسألة مصيرية كمسألة الإمامة، وإذا تذكّرنا تأكيد هذه المدرسة على مسألة الإمامة، حتي جعلتها من أُصول الدين وآمنت بما مرّ من الخصوصيات الرفيعة لها إتّضح لنا أكثر مدى أهمية الدليل القرآني فيها، وحجم المسؤولية الفكرية في بيان هذا الدليل وتقريره وإيضاحه واشتقاق التفاصيل والجزئيات منه ـ وهذه وإن كانت مسؤولية كلّ المسلمين ـ باعتبار أنّ القرآن هو المصدر الأوّل للعقيدة والشريعة الإسلامية، وأنّ خفاء بعض الحقائق القرآنية قد يؤدي الى إنكار بديهيات الشريعة كما أنكر علي عبدالرازق من قبل وجود نظام سياسي في الإسلام زاعماً بأنّه قرأ القرآن الكريم من الجلد الى الجلد ووجده تبياناً لكلّ شيء ولم يجد فيه ما يدلّ على وجود نظام سياسي في الإسلام[١]. إلّا أنها مسؤولية أكبر بالنسبة الى مدرسة أهل البيت عليهم السلام التي آمنت بتلك الخصائص الرفيعة لمسألة الإمامة.

وللمنهج القرآني أهمية أُخرى، هي الأهمية التقريبية بين المسلمين حيث يستطيع هذا المنهج إذا ما تواصل وتأكّد بين المفكّرين والكتّاب المسلمين أن

(١) عبدالرازق، علي، الإسلام وأُصول الحكم: ٤٢، وليته سأل نفسه عن هذا التناقض الذي يدّعيه، فالكتاب الذي بيّن نجاسة المشرك وحرمة الغيبة ووصف نفسه بأنّه تبياناً لكلّ شيء كيف لا يكون تبياناً لقضية مصيرية كقضية الإمامة والخلافة؟ أليس هذا تهافتاً وتناقضاً؟ والكتاب الذي لم يفرط بشيء كيف فرّط بالإمامة؟ وما معنى الآيات التي طالبت بإقامة حكم الله وأسندت الحكم للأنبياء تارة وللكتب السماوية تارة أُخرى؟ أنظر الآيات التالية: سورة البقرة: ٤٤ ـ ٤٥ ـ ٤٧ ـ ٢١٣ ـ ٢٥١، سورة يوسف: ١٠١، سورة النساء: ٥٤ ـ ١٠٥، سورة الجاثية: ١٦، سورة ص: ٢٠ ـ ٣٥، سورة المائدة: ٢٠، سورة آل عمران: ٧٩، سورة الأنعام: ٨٩، سورة مريم: ١٢.

يلعب دوراً تقريبياً مهمّاً بينهم.

ونظراً لأهمية هذا الكتاب وحاجة المثقّف المسلم سنياً كان أم شيعياً الى مطالعته فقد كلّفنا سماحة الشيخ عبدالكريم آل نجف ـ حفظه الله تعالى ـ بأن يقوم بتيسير عبارته ونقلها قدر الإمكان من الصياغة التخصصية الكلاسيكية القديمة، الى الصياغة الحديثة واللغة العامّة التي يأنس بها المستوى العام من المثقّفين، وأن يقوم بتحقيق الكتاب وتوثيق أحداثه التاريخية واستخراج نصوصه وبيان مواضع الاستدلال من المصادر التي ذكرها مؤلفوا الكتاب دون أن يحدّدوها من حيث الجزء والصفحة.

ونتقدّم بالشكر الجزيل لصاحب الفضيلة والتحقيق الشيخ غلام رضا الفيّاضي ـ حفظه الله تعالى ـ لمراجعة وقراءة هذه البحوث وابداء ملاحظاته القيّمه.

وأخيراً لابدّ من كلمة شكر وتقدير لكلّ العاملين الذين ساهموا وبذلوا جهودهم في اخراج هذا الكتاب القيّم وآخر دعوانا أن الحمدلله رب العالمين.

المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام

المعاونية الثقافية


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مقدمة المؤلّفين

الحمدلله الذي تحيّرت العقول في كنه معرفته، وانحسرت الأبصار عن التطلّع الى غيب ملكوته، وكلّت عن بيان نعوته تعابير اللغات، وظلّت هنالك تصاريف الصفات، فسبحان الله عمّا يصفون إلّا عباد الله المخلصين، الذين استخلفهم وعلّمهم الأسماء كلّها، فصيّرهم شهداء على الناس أجمعين، صلّى الله عليهم، ولا سيّما على شهيد الشهداء وشفيع الشفعاء محمّد خاتم النبيّين، وأهل بيته الذين طهّرهم من الدنس، وأذهب عنهم الرجس، وجعل مودّتهم السبيل إليه تعالى، واللعن على أعدائهم ومنكري فضائلهم الى يوم الدين.

أمّا بعد:

فهذه الرسالة مشكاة فيها مصباح الخلافة الإلهية والمصباح في زجاجة من الحجج القرآنية، فكأنّها كوكب دريّ يوقد من شجرة مباركة لا شرقية ولا غربية، وقد تحرّينا فيها البحث عن الإمامة التي تمثّل غاية الكمال الإنساني المنشود، والجوهر الحقيقي لخلافة الإنسان عن الله تعالى في أرضه، وهي الولاية الخاصة التي يمنحها الله سبحانه للمقرّبين من أوليائه، وتعدّ من المقامات السامية الرفيعة التي يصعب فهمها، إلّا على من حباه الله بنور نافذ

وبصيرة كافية، ولعلّها من أجلى مصاديق «الحديث الصعب المستصعب» الذي أشارت إليه الروايات المباركة[(١)] .

ويدور كتابنا هذا حول إثبات أصل الإمامة ـ دون تفاصيلها ـ من خلال آيات القرآن الكريم والسنّة الشريفة، والغرض الذي نرمي إليه هو تبيين الحق ودفع شبهات البعض من حملة الفكر، الذين أنكروا وجود أدلة قرآنية تثبت الإمامة والولاية، مردّدين في ذلك أقوالاً وآراءً واهية لفئات ضالّة، وتابعوها في ذلك رغم الدلائل الساطعة، ولم يكتفوا بترديد ذلك، بل راحوا يطعنون على فقهاء الأُمة ومحدّثيها الذين دوّنوا المدوّنات وألّفوا الموسوعات في إثبات إمامة أهل البيت عليهم السلام، ولكن يبقى الحقّ واضحاً بيّناً رغم ما يحاوله هؤلاء من إحداث البلبلة والتشويش الفكري، فإنّه ليس بإمكان أحد إخفاء الحقّ، قال تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَاوَاتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ...﴾[(٢)] .

ولأجل أن ندخل هذا الموضوع من أوثق جهاته وأنقى مصادره ومن الموضع الذي جرى على أساسه التشكيك والانكار ـ كما يدّعي هؤلاء ـ لذا فقد اعتمدنا في طرحنا لأبعاد وخصائص نظرية الإمامة والولاية في الإسلام على

---

(١) أفرد ثقة الإسلام الكليني في كتابه الكافي باباً خاصاً بعنوان «فيما جاء أنّ حديثهم صعب مستصعب» اشتمل على عدة روايات منها الرواية الواردة عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ حديث آل محمّد صعب مستصعب لا يؤمن به إلّا ملك مقرّب أو نبي مرسل أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان» ج ١: ص ٤٠١ باب ١٠٢ ح ١، وورد أيضاً في البحار للعلامة المجلسي ج ٢: ص ١٨٩ باب ٢٦. وتكرر معناه ومضمونه في البحار كثيراً ج ٣٧: ص ٢٣٤، ج ٢٥: ص ٣٦٦ ـ ص ٣٨٣، ج ٤٢: ص ١٨٩، ج ٦٧: ص ١٠٣، ج ٩٦: ص ١٩١.

(٢) المؤمنون: ٧١.

تفسير دقيق ومركز لأربع عشرة آية من آيات القرآن الكريم التي تناولت وعالجت بشكل أو بآخر هذا الموضوع، مؤكدين ذلك بالأحاديث الشريفة.

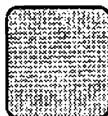
وحيث تؤكد مدرسة أهل البيت عليهم السلام على خاصيتي العلم والعصمة في الإمامة، لذا فقد رأينا ضرورة أن نختم الكتاب ببحث موجز عن علم وعصمة الأنبياء والأئمة عليهم السلام .

﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾[1].

---

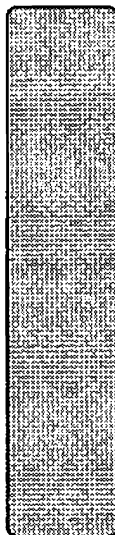
(١) آل عمران: ١٩٣.





الفصل الأوّل

الخلافة أساس الكمال الإنساني وغايته



آية الخلافة

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ ٱلأَسْماءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّماواتِ وَٱلأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾

(البقرة: ٣٠ ـ ٣٣)



تتحدّث هذه الآيات القرآنية عن سرّ من أسرار الخليقة، وهدف النشأة الإنسانية بنحو نستطيع أن نستخلص من مجموع ما فيها من الإشارات والمعاني بعض جوانب المفهوم القرآني عن الخلافة، فمن هو الخليفة؟ وماهي الخلافة؟ وما هو ملاكها والأساس الذي تقوم عليه؟

فرغم أنّ هذه الآيات تتحدث عن الخلافة بمفهومها العام الذي يعني نيابة الإنسان عن الله في التصرّف في الأرض، إلّا أنّ التدقيق في إشاراتها ومداليلها يوصلنا الى الخلافة بمفهومها الخاص بما ينطوي عليه من معنى الحكم والسلطة السياسية، ذلك أنّ الخليفة هو من يقوم مقام الغير، وقد وردت هذه اللفظة في القرآن الكريم بصيغتين:

١ ـ صيغة المفرد، كما في المورد الذي نحن فيه: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1] .

ووردت مرة أُخرى في قوله تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾[2] ولم تتكرّر مرة ثالثة.

٢ ـ صيغة الجمع، وهي خلائف أو خلفاء، وقد تكرّرت في القرآن الكريم سبع مرات، هي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾[3] وقوله

---

(١) البقرة: ٣٠.

(٢) ص: ٢٦.

(٣) الأنعام: ١٦٥.

تعالى: ﴿هُوَ الّذي جَعَلَكُم خَلائِف في الأرض﴾[١] وقوله تعالى: ﴿ثمّ جَعَلناكُم خَلائِف في الأرض مِن بعدهم﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلناهُم خلائف﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿وَاذكُروا إذ جَعَلَكُم خُلَفاء مِن بَعد قَوم نوح﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿وَاذكُرُوا إذ جَعَلَكُم خُلفاء من بَعد عاد﴾[٥] وقوله تعالى: ﴿أمّن يُجيب المضطرّ إذا دعاه وَيَكْشفُ السّوء وَيَجعَلُكُم خُلفاء الأرض﴾[٦].

ويلاحظ أنّ الاستعمال القرآني فرّق بين الصيغتين، حيث استعمل الصيغة الأُولى في موارد الإشارة الى خلافة الإنسان عن الله سبحانه، واستعمل الصيغة الثانية في موارد الإشارة الى خلافة المؤمنين واتّباع النبوّات لمن سواهم من المعاندين والمشركين بنحو خاص، أو خلافة قوم لقوم آخرين بمعنى عام توارث الأرض والسلطة بينهم، فهناك خلافتان خلافة الإنسان عن الله سبحانه ونستطيع أن نطلق عليها تسمية الخلافة الإلهية، وخلافة الإنسان عن الإنسان ونستطيع أنّ نطلق عليها تسمية الخلافة البشرية. والخلافة الإلهية هي التي تعنينا في بحثنا هذا، وهي المقصودة في آية الخلافة، وذلك:

١ ـ إنّ الآية أطلقت لفظ «خليفة» من غير إضافة أو إشارة الى المخلوف، عنه، وهذا أُسلوب في التعبير يفهم منه أنّ الخلافة المقصودة خلافة عن الله سبحانه، ذلك أن منشأ الخلافة إذا كشف عن المخلوف عنه بأن قال: «جعلت

---

(١) فاطر: ٣٩.

(٢) يونس: ١٤.

(٣) يونس: ٧٣.

(٤) الأعراف: ٦٩.

(٥) الأعراف: ٧٤.

(٦) النمل: ٦٢.

فلاناً خليفةً لفلان» أو «خليفةً عني» فهو ذاك، وإذا لم يكشف عنه في متن «الجعل» كما لو قال رئيس الدولة «إنّي جاعل في الدولة خليفة» فهم من قوله هذا أنّ المخلوف عنه هو رئيس الدولة نفسه وأنّ الخليفة المجعول هو خليفة عن الرئيس «الجاعل» وإن لم يصرّح بذلك في كلامه، وآية الخلافة هي من هذا النوع ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ فيفهم منها الخلافة الإلهية.

٢ ـ إنّ استفهام الملائكة وما جرى من الحوار بينهم وبين الله سبحانه يبيّن بوضوح أنّهم بصدد الاستفهام عن خلافة الإنسان عن الله سبحانه، وكذلك إجابة الله لهم وما جرى من سؤاله وامتحانه إياهم، تؤكّد أنّه سبحانه بصدد الخلافة الإلهية.

٣ ـ وممّا يؤكد كون الخلافة المقصود هنا إلهية، أنّ الله عرّف الإنسان للملائكة على أنه خليفة قبل أن يخلقه، والمفروض في آية الخلافة أنها تتحدّث عن الإنسان الأول، الذي سيدشّن الأرض قبل أي مخلوق آخر له شأنية الخلافة والسيادة على ما سواه، فلا تعقل الخلافة البشرية إذ لا بشر في الأرض قبل آدم، حتى يكون خليفة عنهم ولم يسكنها مخلوق قبله بينه وبين آدم نوع من السنخية، بحيث يكون أبو البشر خليفة عنه، فينحصر معنى الآية في الخلافة الإلهية.

كلّ ذلك في الخلافة، أمّا آية: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ فإنّ السبب الأول جارٍ فيها، إذ لم تبيّن الآية من هو المخلوف عنه، وقد تبيّن أنّ هذا الأسلوب من التعبير يفهم منه الخلافة الإلهية، كما أنّ عبارة: ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ تنسجم مع الخلافة الإلهية دون الخلافة البشرية والقيام مقام الآخرين.

الخلافة الإلهية، ملاكها ودائرتها

إنّ منطق الخلافة يقتضي من الخليفة أنّ يكون امتداداً طبيعياً لمن يستخلفه، وكذا النائب ينبغي أن يكون امتداداً تجسيدياً في الفكر والسلوك للمنوب عنه، ويلاحظ في آية الخلافة أنها لم تقيّد الخلافة بل جاءت مطلقة، فوظائف الخلافة وأعمالها غير محدودة، وكذلك دائرة الاستخلاف والمخلوقات المشمولة له، وهذا يعني أنّ الله سبحانه وتعالى فوّض لآدمﷺ خلافة مطلقة من هاتين الجهتين، وهذا الإطلاق يؤكّد ضرورة كون الخليفة ممثلاً للمستخلِف ـ وهو الله سبحانه ـ في الفكر والسلوك، وذائباً فيه بأعلى درجة ممكنة، لأنّ الخلافة المطلقة تعني الثقة المطلقة من قبل المستخلِف والالتزام المطلق من قبل الخليفة، ومن الطبيعي أن تتطلب هذه الدرجة العالية من الالتزام أن يكونَ الخليفة عالماً بخصائص المستخلِف وصفاته، ومحيطاً بالشؤون التي استُخلف فيها، أي أن يكون عالماً بالله سبحانه وأسمائه الحسنى وصفاته العليا من جهة، وبالأرض التي استخلفه عليها والمخلوقات الكائنة عليها من جهة أخرى كما يجب أن تكون له القدرة الضرورية للتصرف فيه، وبدون هذا العلم لا يستطيع أن يجسّد إرادة الله وصفاته، وبالتالي يعجز عن أن يكون امتداداً له وممثلاً عنه، كما لا يستطيع أن يدير المخلوقات ويدبّر الشؤون التي استُخلف فيها.

ومن هنا احتاج الخليفة المعيّن والمختار من قبل الخالق سبحانه الى العلم والتعلّم بقدرٍ كافٍ ومن نوع مناسبٍ، فصرّحت الآية: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ ٱلْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ ليتحقّق من خلال ذلك ملاك الخلافة وأساسها، وقد جاء ذلك التعليم بالقدر

الكافي ﴿ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ أي أنّ التعليم كان على قدر الخلافة، فكما أنّ الخلافة مطلقة فكذلك جاء التعليم عامّاً شاملاً للجهات التي يحتاج الى الاطّلاع عليها في الخالق والمخلوق، ولم يكن ذلك التعليم بالألفاظ ومداليلها الذهنية، وإنّما كان بالحقائق ومصاديقها الخارجية العينية، وكان لابدّ أن يكون ذلك العلم متناسباً في نوعيته مع مقام الخلافة الإلهية المطلقة، أي أن يكون في أرقى درجة ممكنة ومن أعلى نوع ممكن، وقد كان كذلك. فإنّ آدم تلقّى العلم من الله مباشرة، ولا علم فوق العلم الذي يفيضه الله سبحانه بصورة مباشرة لمن جعله خليفة له، وربّما يؤيد ذلك ما ورد في الآية من نسبة العلم الى آدمعليه السلام ونسبة الإنباء الى الملائكة: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ فما أُفيض على آدم هو العلم وما أُفيض على الملائكة هو الإنباء.

ومن كلّ ذلك يتحصّل أنّ الخلافة الإلهية تتقوّم بالعلم، ولكن ليس كلّ علم، وإنّما بالعلم الشهودي لا الكسبي الحصولي، علم يتلقّاه الخليفة من الله سبحانه مباشرة وبغير واسطة، وهذا النوع من العلم يمثل أساس الخلافة الإلهية وملاكها، وهذا هو الذي جعل الملائكة يعترفون بقصورهم عن احتلال مقام الخلافة، وقد كانوا قبل ذلك يتصوّرون استحقاقهم له من خلال ما يقدّمونه من تسبيح وتقديس، ولكن حينما علّم الله آدم الأسماء كلّها ثم عرضهم على الملائكة بادروا الى الاعتراف بالعجز قائلين: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾

وبعد هذا نتسائل عن حقيقة الأسماء التي تعلّمها آدم، فالمعروف أنّ الاسم هو ما يعرف به الشيء، ولكن ما المراد به في آية الخلافة؟

هنا توجد أربعة احتمالات هي:

١ ـ أن يكون المراد بها هو أسماء الله سبحانه أي الالفاظ.

٢ ـ أنّ يكون المراد بها هو المفاهيم الذهنية لتلك الأسماء، فما حصل هو إلقاء تلك المفاهيم في ذهن آدمعليه السلام .

٣ ـ إنّ المراد بها الأعيان الخارجية الحاكية عن الله سبحانه و تعالى.

٤ ـ إنّ المراد بها أسماء المخلوقات .

والاحتمال الأوّل لا يتم، ذلك أنّ اللغات والألفاظ لم تكن قد وضعت آنذاك.

والاحتمال الثاني لا يتم، لأنّ المفاهيم الذهنية غير قابلة للنقل والإنباء.

والاحتمال الرابع لا يتم، لأنّ ما ورد على الاحتمال الأول يرد عليه أيضاً.

فيتعيّن الاحتمال الثالث، فيكون المراد من تلك الأسماء هي الأسماء العينية الحسنىٰ كما يساعد عليه تعبير الإنباء في قوله تعالى: ﴿انبئوني بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ وقوله تعالى: ﴿أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ .

ومن المحتمل أن تكون هذه الأسماء أسماء الله تعالى من جهة وأسماء ما سواه من جهة اُخرى، فإنّ «هؤلاء» الذين اُضيفت الأسماء إليهم في الآية يتّصفون تارة بأنهم مظاهر لصفاته الحسنى ونعوته العليا، واُخرى بكونهم موجودات تختزن في داخلها كمالات المخلوقات على وجه أتمّ وأعلى. وعلى هذا الوجه فلا تعارض بين الروايات التي فسّرت الأسماء بكونها الجبال والأودية وأمثال ذلك، وبين الروايات الاُخرى التي فسّرتها بأنوار المعصومين وأرواحهمعليهم السلام، وقد ورد في بعض الروايات وصف المعصومين بأنهم الأسماء الحسنى[1].

(١) الكليني، محمد بن يعقوب الكافي: ج ١ / ص١٩٧ ح٤، عن معاوية بن عمار عن أبي‌عبداللهعليه السلام في قول الله ←

ولا ريب في أنّ الخلافة المجعولة في الآية ليست مختصّة بشخص آدمعليه السلام، بل هي خلافة نوعية؛ وذلك لأنّ الملائكة قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ وهو قول ينسجم مع وجود كثرة في الأفراد وواقع مستمر ومتواصل بنحو يفهم منه أنّ الخلافة لا تختصّ بآدم وإنّما تشمل غيره، ويلاحظ في جواب الله سبحانه على استفهام الملائكة أنّه لم ينفِ حصول القتل والفساد في ذرّية آدم، وإنّما أجاب بقوله سبحانه: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وهو قول يفهم منه أنّ الخلافة لا تشمل الأفراد الذين سيرتكبون القتل والفساد، وأنها لابدّ وأن تكون خاصة بمن يسبّح الله ويقدّسه، وعليه تكون الخلافة مجعولة لآدم كنوع لا كشخص، وآدم النوعي هو المعصوم الذي تلقّى العلم الشهودي ونال الخلافة بنصّ إلهي، وعليه فالخلفاء من بعده ـ أو بتعبير آخر ـ أنّ الأفراد الآخرين لخطّ الخلافة الإلهية لابدّ وأن يكونوا من هذا النوع يحملوا هذه الخصائص، وأنّ في النوع الإنساني من سيحمل صلاحية الوصول الى هذا المقام الرفيع.

وممّا سبق كلّه يتّضح لنا أنّ مقام الخلافة الإلهية يمثل ذروة الكمال الإنساني ومنتهى الرفعة الإنسانية المنشودة.

وهناك روايات عديدة تؤيّد المعطيات التي استفدناها من آية الخلافة:

منها: ما رواه الصدوق بسندين عن الإمام الصادقعليه السلام: «إنّ الله تبارك وتعالى علّم آدمعليه السلام أسماء حجج الله كلّها ثم عرضهم ـ وهم أرواح ـ على الملائكة فقال: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ بأنّكم أحقّ بالخلافة في الأرض لتسبيحكم وتقديسكم من آدمعليه السلام ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ قال الله تبارك

← عزّ وجل: ﴿ولله الأسماء الحُسنى فادعوه بها﴾ قالعليه السلام: «نحن والله الأسماء الحسنى التي لا يقبل الله من العباد عملاً إلّا بمعرفتنا».

وتعالى: ﴿أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ وقفوا على عظيم منزلتهم عند الله ـ تعالى ذكره ـ فعلموا أنّهم أحقّ بأن يكونوا خلفاء الله في أرضه وحججه على بريّته، ثم غيّبهم عن أبصارهم واستعبدهم بولايتهم ومحبّتهم وقال لهم: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾»[١] .

وفي تفسير العياشي عن أبي العباس عن أبي عبدالله عليه السلام سألته عن قول الله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، ماذا علّمه؟ قال: «الأرضين والجبال والشعاب والأودية» ثم نظر الى بساط تحته فقال: «وهذا البساط ممّا علّمه»[٢] .

وفي تفسير العياشي أيضاً عن داود بن سرحان العطار قال: كنت عند أبي عبدالله عليه السلام فدعا بالخوان فتغذّينا ثم جاءوا بالطست والدست سنانه، فقلت: جعلت فداك، قوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ الطست والدست سنانه منه؟ قال: «الفجاج والأودية» وأهوى بيده: كذا وكذا[٣] .

وفيه أيضاً روايات أُخرى تقرب ممّا ذكر، وكذا في تفسير القمّي[٤] .

---

(١) الصدوق، محمّد بن علي، كمال الدين: ج ١ / ص ١٤.

(٢) العياشي، محمّد بن مسعود، تفسير العياشي: ج ١ / ص ٥١، أُنظر كذلك: البحراني هاشم الحسيني تفسير البرهان: ج ١ / ص ٧٥ / ح ٩، وكذلك المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار: ج ١ / ص ١٤٦ ـ ١٤٧.

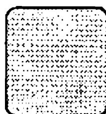
(٣) تفسير العياشي: ج ١ / ص ٥١، أُنظر كذلك البحراني / هاشم الحسيني / تفسير البرهان: ج ١ / ص ٧٥ / ح ١١ كذلك المجلسي محمّد باقر، بحار الأنوار: ج ١١ / ص ١٤٧..

وفي هامش البحار استظهر كون الصحيح في العبارة: «ثم جاءوا بالطشت والدست شويه» في الموضعين، وعلى كلٍّ فالكلمة فارسية ومعناها الاناء المعدّ لغسل اليد.

والفجاج جمع فج، وهو الطريق الواضح بين الجبلين، وفي بعض النسخ والمصادر وردت كلمة «العجاج»، وهو الغبار.

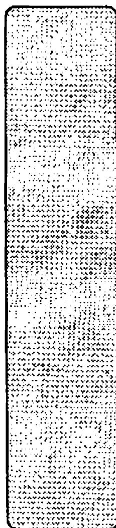
الدست من الثياب ما يلبسه الإنسان ويكفيه لتردّده في حوائجه.

(٤) القمي، علي بن إبراهيم، تفسير القمي: ج ١ / ص ٤٥.



الفصل الثاني

مقوّمات الإمامة وخصائصها



آية المباهلة

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّالِمِينَ﴾

(البقرة: ١٢٤)



انطوت هذه الآية الكريمة على بيان جوانب مهمة من نظرية الإمامة، وقبل التعرض لهذه الجوانب يحسن بنا بيان معاني بعض المفردات الأساسية التي وردت في الآية.

فقد ورد فيها الابتلاء: ﴿وإذا ابتلى إبراهيم... الخ﴾ وهو والبلاء بمعنىً واحد، يقال: بلوته وابتليته بكذا، أي أوقعته في أمرٍ ليظهر ما يخفى من صفاته، وغالباً ما تكون الغاية من الابتلاء هي اكتشاف الجهات الكامنة من حقيقة الشيء، ويقرب من معناه الاختيار والامتحان والفتنة، إلّا أنّ الغاية المذكورة لا تصدق على الله سبحانه، فما يقوم به من الابتلاءات لعباده ليس لغرض اكتشاف حقيقة العبد، لأنّ الله سبحانه لا يخفى عليه شيء، ولا تخفىٰ عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وإنّما لغرض إبراز حال العبد وإظهار ما كمن في نفسه وكشف الستار عنها. وهذه هي غاية أصل النشأة الإنسانية، حيث قال تعالى: ﴿الَّذي خَلَقَ المَوْتَ وَالحَياةَ لِيبلوكُمْ أيّكُم أحسنُ عَمَلاً﴾[1] ، وقال تعالى: ﴿إنّا جَعَلنا مَا عَلى الأرضِ زينَةً لَها لنبلوهُمْ أيُّهم أحسن عملاً﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ونبلوكم بالشرّ والخير فتنة وإلينا ترجعون﴾[3] .

والكلمات جمع كلمة، وهي ما يُتكلّم به، وتطلق على اللفظ المفرد، وعلى

---

(١) الملك: ٢.

(٢) الكهف: ٧.

(٣) الأنبياء: ٣٥.

الجملة، وعلى ماهو أكثر منها أيضاً، فيقال: «كلمة رئيس الجمهورية» ويراد بها الخطاب الذي يلقيه. وكما تطلق على اللفظ الحاكي للمعنى كذلك تطلق على المعنى المحكي باللفظ أيضاً، وقد استعملت في القرآن الكريم في كليهما، فمن الاستعمال في الحاكي قوله تعالى: ﴿كبُرت كَلِمَةً تَخرجُ مِن أفواهِهِم﴾[١]، ومن الاستعمال في المحكي قوله تعالى: ﴿ألم تَرَ كَيف ضربَ الله مثلاً كلمة طيّبة كشجرة طيّبة﴾[٢]، وأطلقها القرآن الكريم على بعض الموجودات الخارجية بغض النظر عن كونها مدلولة لألفاظ معينة كما في قوله تعالى: ﴿إنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَىٰ ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وكلمته ألقاها الى مريم﴾[٣]. ويوجد في توجيه ذلك الإطلاق والاستعمال احتمالان:

أوّلهما: إنّ كلّ موجود ممكن بما أنّه مخلوق له تعالى ليس إلّا نفس كلمة كن الإيجادية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[٤] .

ثانيهما: إنّ الممكنات والمخلوقات مظاهر وجود الله سبحانه، فهي مُعربة وحاكية عنه كما يحكي ويعرب اللفظ عن المعنى، وبالتالي فهي بمثابة الكلمة من هذه الجهة.

وورد في الآية أيضاً لفظ الإمام وهو من يؤتمّ به، يقال: أمّ القوم إذا تقدّمهم،

---

(١) الكهف: ٥.

(٢) إبراهيم: ٢٤.

(٣) النساء: ١٧١.

(٤) آل عمران: ٥٩.

وكأنه مأخوذ من الإمام ـ بالفتح ـ بمعنى القُدّام، فالأصل في معناه ما يكون أمام الشيء وقُدّامه، ومن هنا استعمله القرآن الكريم في معنى الطريق كما في قوله تعالى: ﴿وإنّهما لبإمامٍ مبين﴾[١]. كما أطلقه على الكتاب التكويني كما في قوله تعالى: ﴿وكلّ شيء أحصيناه في إمام مبين﴾[٢]، والكتاب التشريعي السماوي كما في قوله تعالى: ﴿وَمن قبله كتاب موسىٰ إماماً ورحمة﴾[٣].

وأيضاً أطلقه على قائد القوم في الهدىٰ أو الضلال، ومثال الهدىٰ قوله تعالى: ﴿وَجعلناهم أئمة يَهدون بأمرنا﴾[٤]، ومثال الضلال قوله تعالى: ﴿وَجعلناهم أئمة يدعون إلى النّار﴾[٥].

الإمامة الإبراهيمية

وبعد بيان معنى المفردات الأساسية التي وردت في الآية، نأتي لاستطلاع حقيقة الإمامة الإبراهيمية من جهات ثلاث:

١ ـ دور الإبتلاء في الإمامة:

لقد بيّنت الآية أن للإمامة دوراً في الإمامة: ﴿وإذْ ابتلى إبراهيمَ ربّه بكلمات فأتمّهُنّ قالَ إنّي جاعلكَ للنّاس إماماً﴾ والمراد بالكلمات وإن احتمل أن يكون إمّا هو

---

(١) الحجر: ٧٩.

(٢) يٓس: ١٢.

(٣) الأحقاف: ١٢.

(٤) الأنبياء: ٧٣.

(٥) القصص: ٤١.

هو الأوامر الإلهية الموجّهة لإبراهيمعليه السلام والحاوية لتكاليف هامّة، أو متعلقات تلك التكاليف، وقد أطلق عليها القرآن تسمية «الكلمات» باعتبار كونها محكية لكلامه تعالى أو أنها أُمور وجدت بكلمة «كن» الإيجادية، إلّا أنّ الأظهر هو أنّ المراد بها هو البلايا والمحن التي تعرض لها إبراهيمعليه السلام في حياته كالإلقاء في النار والاضطرار للهجرة والأمر بذبح ابنه وما أُخذ عليه من العهود في الصبر على ذلك، يقول تعالى في قصّة ذبح إسماعيل: ﴿إنّ هذا لَهُوَ البلاءُ المبين﴾[1].

فالمراد بإتمام الكلمات في قوله: ﴿فأتمّهُنّ﴾ هو الإتيان على الوجه التام. حيث إنّ الكلمات بمثابة حوادث ناقصة قام إبراهيمعليه السلام بإتمامها عندما طبّقها وعمل بمقتضاها، فيكون ضمير «أتمّهنّ» راجعاً الى إبراهيمعليه السلام، وإذا جعلنا الضمير راجعاً الى «ربّه» فيكون معنى الإتمام هو إكمال الاختبار والامتحان، أو منح التوفيق لإبراهيم للعمل بمقتضى الإرادة الإلهية.

ولكن على ما استظهرناه من تفسير الكلمات بالبلايا والمحن التي عاشها إبراهيم يكون معنى الإتمام هو الصبر على ذلك والعمل بمقتضى الإرادة الإلهية، قال تعالى: ﴿وَجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لمّا صبروا﴾[2] .

ويتحصّل ممّا مضى أن الابتلاء هو عملية تأهيل لمقام الإمامة السامي، وأنّ العمل بما يلزم في البلية كان شرطاً ضرورياً للفوز بهذه الكرامة العظمى.

---

(١) الصافات: ١٠٦.

(٢) السجدة: ٢٤.

٢ ـ مكانة الإمامة بالقياس الى النبوّة:

وبعد أن إتّضح لنا دور الابتلاء في الإمامة وفوز إبراهيم عليه السلام بهذا المقام الرفيع وأنّه إنّما نال إبراهيم عليه السلام تلك الخطورة الكبرى بعد أن نجح في امتحانه الرائع، الذي أثبت أهليّته عليه السلام لها وانّه كان الصبر على كلفة الامتحان مقدّمة للصبر على تحمّل أعباء الإمامة. نحاول أن نستوحي من الآية ما يبيّن لنا حقيقة الإمامة ومكانتها بالقياس الى النبوّة، وإذا أردنا التحقيق في المسألة وجدنا الاحتمالات المتصوّرة في المسألة هي خمسة احتمالات:

١ ـ أن تكون الإمامة هي نفس النبوّة.

٢ ـ أن تكون مقاماً تشريعياً دون مقام النبوّة.

٣ ـ أن تكون مقاماً تشريعياً فوق مقام النبوّة.

٤ ـ أن تكون مقاماً تكوينياً من مراتب القرب الى الله تعالى كالصلاح والإخلاص وما أشبههما.

٥ ـ أن تكون مقاماً تكوينياً فوق مقام النبوة، هو القدرة على تكميل النفوس وإيصالها الى غاياتها، وهو في الحقيقة نوع من الوساطة في الفيض والعطاء الإلهي.

ونأتي الآن لدراسة وتمحيص هذه الاحتمالات، واختيار الاحتمال الذي تؤيّده الأدلة أكثر من غيره، أو تعيّنه من بينها دون غيره.

أمّا الاحتمال الأوّل: فلا يساعد عليه الاعتبار، ذلك أنّنا عرفنا أنّ إبراهيم عليه السلام مُنح الإمامة بعدما حصل له من الاختبار والامتحان والابتلاء، الذي تُبيّن عبارة «فأتمّهنّ» مدى شدّته وصعوبته، ويؤيّد ذلك من أنّه المقرّر في علم النحو أنّ

اسم الفاعل لا يعمل في المفعول إلّا إذاكان بمعنى الحال أو الاستقبال، واسم الفاعل في الآية هو «جاعل» ومفعوله «إماماً» والزمن الذي تتحدّث عنه الآية هو ما بعد إتمام الكلمات والابتلاءات، فلابدّ وأن يكون زمن الجعل بعد ذلك، وليس من المعقول أن يكون جعل الإمامة قبل الابتلاء، إذ يصبح الابتلاء لاغياً لا معنى له حينئذٍ، هذاكلّه من جهة.

ومن جهة أُخرى نجد أن الامتحان والاختبار جاء في زمن نبوّة إبراهيم، أي أنه كان نبيّاً ثم جرت عليه تلك الامتحانات، فلمّا اتمهنّ منح الإمامة. والدليل على ذلك هو الفرق الزمني بين الآيات التي تحدّثت عن نبوّة إبراهيم والآيات التي تحدّثت عن إمامته، ففي زمن نبوّته كان فتىً يافعاً قال تعالى: ﴿قالُوا سمعنا فتىً يذكرهم يُقال لَهُ إبراهيم﴾[1] وكان له أب، قال تعالى: ﴿واذكر في الكتاب إبراهيم إنّه كان صدّيقاً نبيّا... يا أبتِ إنّي قد جاءني من العلم ما لم يأتك...﴾[2] بينما أشارت آيات إمامته الى كبر سنه وماكان لديه من الأبناء، فحينما منح الإمامة تساءل عن استمرارها في ذريّته بقوله: ﴿ومن ذرّيتي﴾ ممّا يدل على وجود أبناء له آنذاك، وإذا جمعنا بين هذا القول والقول الآخر: ﴿الحمدُلله الّذي وهبني على الكبر إسماعيل وإسحق﴾[3] تبيّن أنه منح الإمامة في أواخر عمره، بل إنّ آية أُخرى أشارت الى أن البشارة بالأبناء جاءت في زمن متأخّر من حياته، فحينما دخلت عليه الملائكة وهي في طريقها الى قوم لوط ـ حينما جاءت لإهلاكهم ـ وبشّرته

---

(١) الأنبياء: ٦٠.

(٢) مريم: ٤١ ـ ٤٣.

(٣) إبراهيم: ٣٩.

بحصول الأبناء له تعجّب من هذه البشارة قائلاً: ﴿أبشّرتموني على أن مسّني الكبر فَبِمَ تُبشّرون﴾[١]، وكانت هذه البشارة بعد رسالته وإيمان لوط به، إذ قال تعالى: ﴿فآمن لَهُ لوط وقال إنّي مهاجر الى ربّي﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿وقال إنّي ذاهب الى ربّي سيهدين* ربّ هب لي من الصالحين* فبشّرناه بغلام حليم﴾[٣]. وتؤكّد هذا المعنى روايات كثيرة تدلّ على ذلك بصراحة ووضوح.

من كلّ ذلك يتحصّل أن الإمامة حصلت لإبراهيمعليه السلام بعد إتمام الامتحان من جهة، وأن الإمتحان حصل في زمن النبوّة من جهة أُخرى، ونتيجة الجمع بين الجهتين أنّ الإمامة منحت له بعد النبوّة، وهذا يعنى أنّ النبوّة غير الإمامة وليست نفسها.

والاحتمال الثاني: لا يتمّ أيضاً، لأنّ منح الإمامة بعد النبوّة يكشف عن كون الإمامة مقاماً أرفع من النبوّة، خاصة مع وضوح أنها أُعطيت له بعد تعرضه لأنواع الاختبارات والامتحانات والابتلاءات، فلو لم تكن مقاماً أرفع من النبوّة لما كان لهذه الاختبارات حكمة ومعنى.

والاحتمال الثالث: لا يصحّ، لأنّ الآية صرّحت بوجود غرض اجتماعي من الإمامة، وذلك قوله تعالى: ﴿قال إنّي جاعلك للناس إماماً﴾ فيفهم من أنّ الإمامة ليست شأناً روحياً عبادياً فردياً خاصاً، وإنّما هو شأن اجتماعي ومقام مدني «جاعلك للنّاس» فينحصر الأمر في الاحتمالين.

الرابع: وهو أن تكون الإمامة مقاماً تشريعياً فوق النبوّة.

---

(١) الحجر: ٥٤.

(٢) العنكبوت: ٢٦.

(٣) الصافات: ٩٩ ـ ١٠١.

والخامس: وهو أن تكون الإمامة مقاماً تكوينياً فوق النبوّة، ومعنى المقام التشريعي المذكور وجوب اتّباع النبيّ في جميع أقواله وأفعاله، ذلك أنّ النبوّة والرسالة لا تتطلبان في ذاتهما الاقتداء بالنبيّ والرسول في جميع الحركات والأعمال، وغاية ما تفرضانه هي الطاعة والاستماع لما يبلّغ للناس من دعوة ورسالة، اللهمّ إلّا أن يأتي دليل آخر غير الدليل الدالّ على النبوّة أو الرسالة فيدل على وجوب الاتّباع العملي، مثل قوله تعالى: **﴿وما أُرسلنا من رسول إلّا ليطاع بإذن الله﴾**[1]. وقوله تعالى: **﴿لقد كان لكم في رسول الله أُسوة حسنة﴾**[2] فدليل النبوّة يثبت وجوب إمتثال بلاغات النبوّة وأوامرها، ولا يتعدّى الى وجوب متابعة النبيّ في كل أفعاله وأقواله، وهذا الوجوب الثاني يحتاج الى أدلة خاصّة ومقام خاص وهو مقام الإمامة، وحينئذٍ فالآيات الدالّة على لزوم طاعة النبيﷺ تكون دالّة في الوقت نفسه على حيازته على مقام الإمامة.

والإمامة التكوينية تعني أن الإمام واسطة لإيصال الهداية لمن هو أهل لها، فهناك هداية تشريعية موجّهة للمؤمن والكافر معاً، وهناك هداية تكوينية يختصّ بها المؤمن ويكون الإمام واسطة في إيصالها إليه.

وقد تبيّن أخيراً أنّ أمر الإمامة يدور بين أن تكون مقاماً تشريعياً فقط، أو مقاماً تكوينياً بعد الفراغ من كونها مقاماً فوق النبوّة[3].

---

(١) النساء: ٦٤.

(٢) الأحزاب: ٢١.

(٣) إنّ كون الإمامة مقاماً فوق النبوّة لا يلزم منه أفضلية الأئمةعليهم السلام على الرسول محمدﷺ، لثبوت أنّ الرسولﷺ سيّد الخلق وأشرف الأنبياء والرسل، وما حاز نبيّ مقاماً إلّا وحاز الرسولﷺ ما هو أعلى منه، ←

وممّا يؤيّد الاحتمال الأخير أن في سورة الأنبياء جعل الهداية التكوينية من آثار الإمامة، حيث قال عزّ من قائل: ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا﴾(١) فإنّ الهداية في هذه الآية ليست من قبيل إراءة الطريق وإيضاح الهدف لإتمام الحجّة كما هو شأن النبيّ المنذر، وذلك لأنّ الأمر هو قوله تعالى كن الذي لا يتخلّف عنه وجود المأمور، فالهداية بالأمر هداية موصلة الى المطلوب لا تتخلّف عنه، فهي أمر فوق النبوّة ومقتضياتها التشريعية، ومن هنا نفهم أنّ من خصائص الإمامة الهداية التكوينية، التي تعني إيصال النفوس المستعدّة الى الهداية التي تنشدها، وأنّ الأئمة وسائط تؤثر أثرها في النفوس بأمر الله سبحانه، كما هو عمل الملائكة الذي يكون بأمره تعالى، يقول سبحانه: ﴿وَهُم بأمره يعملون﴾(٢).

وبتعبير آخر: أنّ مقام الإمامة مقام ظاهره التشريع وباطنه التكوين، بمعنى أنّ ظاهر الآية الشريفة: ﴿أئمة يهدون بأمرنا﴾ هو إثبات مقام تشريعي للإمام يستلزم أن يكون قوله وفعله وتقريره حجة مطلقاً على الخلق، وباطنها إثبات مقام تكويني للإمام، ومن خواص هذا المقام التكويني جريان الهداية الإلهية على يديه، ولا يوجد أيّ تنافٍ بين المعنيين التشريعي والتكويني، لأنّهما مترتّبان طوليان، أي أحدهما يقصد ويراد بعد الآخر، كما هو الشأن في استفادة المعاني من الآيات وبطونها المتعدّدة ذات الوجوه المتنوّعة التي لا يؤدّي الأخذ

← فإذا كان إبراهيم عليه السلام قد أُعطي الإمامة فإنّ نبيّنا صلى الله عليه وآله قد أُعطي مثلها وزيادة، فلا يمكن أن يكون الأئمة برتبة أفضل من النبيّ صلى الله عليه وآله. «معد الكتاب».

(١) الأنبياء: ٧٣.

(٢) الأنبياء: ٢٧.

بأحدها الى بطلان الوجوه الأُخرى.

وهكذا يقودنا البحث الى اختيار الاحتمال الخامس، وخلاصته: أنّ الإمامة مقام فوق النبوّة وأنّه مقام تشريعي وتكويني معاً، ويكفي لإثبات صفته التشريعية إطلاق عنوان ووصف الإمامة على شخص، فإنّ معنى هذا العنوان هو حجية أقوال وأفعال وتقريرات ذلك الشخص في جميع الأُمور التشريعيّة ممّا يتعلّق بالإنسان ومسيرته الكماليّة، وإلّا أصبح عنوان الإمام بالنسبة له فاقداً لمعناه، بخلاف عنوان النبوّة الذي لا يستلزم في ذاته هذا المعنى، وإنّما قد يضاف إليه بأدلة أُخرى كما مرّ، أمّا الصفة التكوينية فقد مرّ معناها وإثباتها بآية: ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا﴾ .

٣ـ شرط العصمة في الإمامة

وهو المستفاد من ذيل الآية: ﴿قالَ ومن ذرّيتي قال لا ينال عهدي الظّالمين﴾ وهذا المقطع من الآية يعدّ من الموارد القرآنية التي بيّنت مدى إهتمام إبراهيم عليه السلام بأبنائه وعنايته الشديدة بهم، فتارةً نجده يستوهب الله سبحانه ذرّية صالحة: ﴿ربّ هب لي من الصّالحين﴾[١] وأُخرى يدعو أن تكون ذرّيته أُمّة مسلمة لله، وذلك في دعاء مشترك له مع ولده إسماعيل عند بناء البيت العتيق: ﴿ربّنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذرّيتنا أُمّة مسلمة لك﴾[٢] وثالثة يطلب منه سبحانه أن يجنّبه

(١) الصافات: ١٠٠.

(٢) البقرة: ١٢٨.

وبنيه عبادة الأصنام: ﴿واجنبي وبنيّ أن نعبدالأصنام﴾[١] . .

وفي آية الإمامة التي نحن بصددها نجده يؤكد هذه السيرة، فما أن تلقى البشارة بجعله إماماً حتى بادر إلى التساءل عن إمكانية إعطائها لذريته، أو بتعبير آخر تساءل عن مدى استحقاقهم له، وهل أنهم سيبلغون هذه الرتبة أم لا؟ فجاءه الجواب: ﴿لا ينال عهدي الظّالمين﴾ بصيغة قانون سماوي صارم يدل على أنّ الإمامة عهد إلهي، الغرض منه إقرار الحقّ والعدالة في الأرض، ولذا فإنّه لا ينال الظالمين وليس بإمكانهم الوصول إليه، إذ كيف يُطلب من الظالم إقرار الحقّ والعدالة؟ ومن الطبيعي أن يبلغ الاحتياط والتحفّظ لحرمة الإمامة ووظيفتها الإلهية الأخلاقية درجة عالية بحيث يمتدّ مفهوم الظالم المذكور في الآية الى كلّ من ارتكب ظلماً ولو بحقّ نفسه فقط ولم يتعدّ على حدود الآخرين وحقوقهم.

والملاحظ في جواب الله سبحانه على سؤال إبراهيم﷣ أنه جاء إمّا ردّاً على بعض ما سأل، أو تعييناً لما أهمل، أو تنبيهاً له على ما أغفل، ولعلّ الاحتمال الثاني هو الأقرب للاعتبار وهو أنّ إبراهيم﷣ أهمل تخصيص السؤال بالصالحين من ذريته، فجاء الجواب بتعيّن الإمامة فيهم دون غيرهم، ويمكن إرجاع هذه الاحتمالات بعضها الى بعض، وحينئذٍ لا تبقى ثمرة لهذا التشقيق.

وتبعاً للأئمة﵈ تمسك الإمامية منذ العهد الأوّل بهذه الآية لإثبات عصمة الإمام كشرط لازم لإمامته، لصراحتها في عدم أهلية الظالم لهذا المقام السامي، ولا ريب في أنّ من أظهر مصاديق الظلم الشرك بالله وعبادة غيره، حيث قال

---

(١) إبراهيم: ٣٥.

تعالى: ﴿إنّ الشرك لظلم عظيم﴾[١] وأنّ إطلاق ﴿الظالمين﴾ شامل لكلّ ظلم سواء كان على الغير أو على النفس، وكلّ معصية صغيرة أو كبيرة ظلم لا يصلح مرتكبه لهذا المقام الشامخ، وقد ذكر أعلام الإمامية وجوهاً وتقريبات عديدة لتوضيح دلالة الآية على لزوم أن يكون الإمام معصوماً قبل أن يناله عهد الإمامة، وفيما يلي بعض هذه الوجوه:

١ ـ إنّ سؤال إبراهيم‌ﷺ الإمامة لبعض ذرّيته لابدّ وأن يقبل واحداً من أربعة إحتمالات: فالمقصود بالإمامة أمّا أن يكون ظالماً طيلة حياته، أو في الفصل الأخير منها، أو أنّه تلبّس بالظلم فترة من حياته ثم تاب، أو أنّه رجل منزّه عن الظلم طيلة حياته. والاحتمال الأوّل لا يتوقّع صدوره من شيخ الأنبياء إبراهيم‌ﷺ بحيث يطلب الإمامة لفرد ظالم طيلة حياته، وكذا الاحتمال الثاني، لما فيه من انحراف الأمم والأجيال وضلالهم ونقض الفرض، فيبقى الأمر مردّداً بين الاحتمالين الثالث والرابع، فجاءت آية الإمامة لتنفي الاحتمال الثالث، فيبقى الأمر محصوراً في الاحتمال الرابع، وهو خلوّ الإمام من الظلم طيلة حياته، وهو معنى العصمة.

٢ ـ إنّ قانون: ﴿لا ينال عهدي الظّالمين﴾ جاء جواباً على سؤال إبراهيم الإمامة لبعض ذرّيته ليؤكد أنّ دعاء إبراهيم لن يستجاب في الظالمين منهم، ومن الواضح أنّ القانون المذكور يتحدّث عن المستقبل، وأن إطلاق وصف الظالم إنّما هو بملاحظة حال تلبّسه وقيامه بالظلم لا خصوص حال صدور هذا

(١) لقمان: ١٣.

الخطاب لإبراهيم عليه السلام، وأنّ الإمامة عهد ينزل من الله تعالى فيجري فيمن كان قابلاً له، ويلحق من كان لائقاً به، من ارتكب الظلم في بعض حالات حياته، فقد إنطبق عليه عنوان الظالم، ومن إنطبق عليه عنوان الظالم فقد فقد بذلك صلاحيّة نيل عهده تعالى له، وهو مقام الإمامة.

٣ـ إنّ بالإمكان تقسيم الأوصاف الى قسمين: قسم لا يكفي حصولها في وقت ما لبقاء صدقها على صاحبها بل يجب استمرارها وتواصلها كوصف العالم والعادل، وقسم آخر يكفي في صدقها على صاحبها حصولها فيه وصدورها منه ولو في آنٍ من الحياة كوصف الوالد والقاتل.

وعندما نلاحظ خصوصيات مقام الإمامة وجوّ الآية نجد أنّ وصف الظالم يلحق بالقسم الثاني دون الأوّل، وذلك لاستقرار سيرة العقلاء على التحفّظ الشديد في مجال منح المناصب السياسية والاجتماعية الهامّة، وعدم الاكتفاء بملاحظة الحالة الحاضرة للأشخاص المرشّحين لها، بل التأكيد أيضاً على ملاحظة السوابق السلوكية والفكرية لهم، فمن ثبتت له سابقة سلوكية أو فكرية سيئة منع من الوصول الى المناصب الحسّاسة، حتى لو كانت سيرته الحاضرة مقبولة، وربّما لوحظت الحالة السابقة في أغراض أقل، من ذلك كالزواج، كلّ ذلك بسبب الاعتقاد بأنّ الماضي يؤثر في الحاضر بطريق ما، شعوري، أو لا شعوري، كما هي الفكرة السائدة الآن في علم النفس الحديث.

وحينئذٍ فمن الطبيعي أن يبلغ الاحتياط والتحفّظ الدرجة القصوى في موضوع كالإمامة، الذي هو من أخطر المناصب على الإطلاق، وهو الذي يحدّد سعادة الأُمة أو شقاءها، استقامتها أو انحرافها، والدرجة القصوى هي العصمة.

٤ ـ إنّ الآية كشفت عن سنّة إلهية في مجال إعطاء العهود والمناصب الإلهية، وهي تؤكد أنّ هذه العهود لن تُعطى إلّا لمن له رادع داخلي عن الظلم والطغيان، وليست الإمامة سلعة تُعطى ثم تُستردّ عند ظهور عدم صلاحية حاملها وصدور الظلم والطغيان عنه، وإنّما تُعطى لمن هو مأمون عن ذلك بنحو حتمي، مثلها في ذلك مثل النبوّة، ولا يحصل الأمن والاطمئنان الأكيد إلّا إذا وجدت ملكة نفسية عاصمة وقوّة قلبية فائقة، وهي ما تحتاج الى بنية خاصة وشرائط تكوينية مساعدة وملكات تصونه عن الخطأ والانحراف، وليس ذلك إلّا العصمة.

وبعد بيان هذه الوجوه الأربعة، نلاحظ أنّ نسبة العهد إلى الله سبحانه تؤكد على أنّه أمر لا دخل للناس فيه، و أنه تعيين إلهي لا انتخاب ولا اختيار للأُمّة فيه.

وهذه الوجوه الأربعة إنّما تقام لإثبات شرط العصمة في الإمامة عن طريق القرآن لمن لا يعتقد بإمامة أهل البيت عليهم السلام وحجّية كلامهم، أمّا المذعن لإمامتهم والمعتقد بحجية كلامهم فهو في غنىً عن هذه الوجوه، لورود روايات كثيرة عنهم عليهم السلام، تفسّر الآية بما قلناه وتبطل إمامة كلّ من عبد صنماً، وأنّه لا يمكن أن يكون السفيه الذي رغب عن ملّة إبراهيم إماماً للمتقين، فقد ورد في مصادر الإمامية مسنداً عن الإمام الصادق عليه السلام: **«إنّ الله تبارك وتعالى اتّخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتّخذه نبياً، وأن الله اتّخذ نبيّاً قبل أن يتّخذه رسولاً، وأن الله اتّخذه رسولاً قبل أن يتّخذه خليلاً، وأن الله اتّخذه خليلاً، وأنّ الله اتّخذه خليلاً قبل أن يجعله إماماً، فلمّا جمع له الأشياء قال: إنّي جاعلك للناس إماماً، قال فمن عظمها في عين إبراهيم، قال: ﴿ومن ذرّيتي قال لا ينال عهدي**

الظالمين﴾ قال: لا يكون السفيه إمام التقي»[١] .

وورد مثله عن الإمام الباقر عليه السلام أيضاً[٢].

بل ورد عن طرق السنّة أيضاً ما يؤكد المعنى الذي ذكرناه، فعن أبي الحسن الفقيه ابن المغازلي الشافعي مسنداً عن عبدالله بن مسعود، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«أنا دعوة إبراهيم»** قلنا: يا رسول الله! وكيف صرت دعوة أبيك إبراهيم؟ قال: **«أوحى الله عزّ وجل إلى إبراهيم، إنّي جاعلك للناس إماماً، فاستخفّ إبراهيم الفرح، قال: ومن ذرّيتي أئمة مثلي؟ فأوحى الله عزّ وجلّ إليه، أن يا إبراهيم إنّي لا أُعطيك عهداً لا أفي لك به قال: يا ربّ ما العهد الذي لا تفي لي به؟ قال: لا أُعطيك لظالم من ذرّيتك عهداً، قال إبراهيم عندها: ﴿واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام ربّ إنّهن اضللن كثيراً من الناس﴾. قال النبي صلى الله عليه وآله: «فانتهت الدعوة إليّ وإلى عليّ لم يسجد أحد منّا لصنم قطّ فاتّخذني الله نبيّاً واتّخذ عليّاً وصيّاً»**[٣] .

* * *

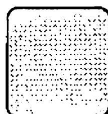
---

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ج١ / ص٢٣٠ ـ ٢٣١ / ح٢ ـ ٤، أنظر كذلك المجلسي، محمّد باقر، مرآة العقول: ج٢ / ص٢٨٥ ـ ٢٨٦، وكذلك البحراني، السيد هاشم الحسيني، غاية المرام: ج١١ / ص٢٧٢، نقلاً عن الشيخ الحويزي عبدعلي بن جمعة في نور الثقلين: ج١ / ص١٠٢ / ح٣٤٢، وعن الشيخ المفيد في أماليه ولكنّي لم أعثر عليه في النسخة المطبوعة من أمالي الشيخ المفيد.

(٢) الحويزي، عبدعلي بن جمعة، نور الثقلين: ج١ / ص١٠٢ / ح٣٤٣.

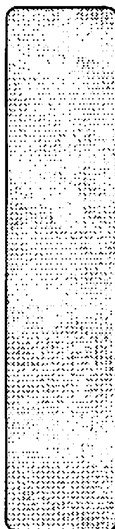
(٣) ابن المغازلي الشافعي، علي بن محمد، مناقب علي بن أبي‌طالب: ص٢٧٦ ـ ٢٧٧.





الفصل الثالث

أعلام الولاية وكواكب الإمامة



آية أولي الأمر

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُولِي ٱلأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾

(النساء: ٥٩)



ولاية الأمر أو الدولة الإسلامية

تساهم هذه الآية الكريمة في تشييد جانب من نظرية الإمامة ومدرسة الولاية في القرآن الكريم، وأوّل ما يتبادر منها في هذا المجال ما تنطوي عليه من الإشارة الى وجود منصبين يتمتّع بهما الرسولﷺ ، وينبغي التمييز بينهما وهما:

١ ـ متصب النبوّة وإبلاغ الشريعة والرسالة الى البشرية، قال تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للنّاس ما نُزّل إليهم﴾(١).

٢ ـ متصب الإمامة والقيادة وولاية الأمر، قال تعالى: ﴿إنّا أنزلنا إليك الكتاب بالحقّ لتحكم بين النّاس بما أراك الله﴾(٢) .

ويركّز القرآن الكريم على ضرورة إطاعة الرسولﷺ في كلا المجالين، ويؤكد على كونها طاعة لله سبحانه، وقد استعمل القرآن أربعة أساليب في التعبير عن ذلك هي:

١ ـ أُسلوب الجمع بين طاعة الله والرسول، وهو الشائع في القرآن الكريم مثل: ﴿وأطيعوا الله والرّسول لعلّكم ترحمون﴾(٣)، ﴿قل أطيعوا الله والرّسول فإن تولّوا فإنّ

---

(١) النحل: ٤٤.

(٢) النساء: ١٠٥.

(٣) آل عمران: ١٣٢.

الله لا يحبّ الكافرين﴾[١]، ﴿وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾[٢]، ﴿وأطيعوا الله ورسوله والله خبير بما تعملون﴾[٣].

٢ ـ أُسلوب عطف طاعة الرسول على طاعة الله، مثل ﴿قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾[٤]، ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم﴾[٥]، ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾.

٣ ـ أُسلوب الاقتصار على طاعة الرسول، مثل: ﴿أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلّكم ترحمون﴾[٦].

٤ ـ أُسلوب إرجاع طاعة الرسول الى طاعة الله، مثل: ﴿من يطع الرّسول فقد أطاع الله﴾[٧].

وقد بيّنا في الفصل السابق أنّ آيات النبوّة والرسالة لا تدل بنفسها على لزوم طاعة الرسول، وأقصى ما تدل عليه هو لزوم طاعة النبوّة والرسالة الإلهية، ومن هنا جاءت آيات طاعة الرسول لتسدّ هذا الفراغ وتعالج هذا الجانب، ومن أجل ترسيخ ذلك وتأكيده تنوّعت أسالب القرآن في بيانه، فتارةً تأمر بطاعة الرسول فقط كما في الأُسلوب الثالث، وأُخرى تُرجع طاعة الرسول الى طاعة

---

(١) آل عمران: ٣٢.

(٢) الأنفال: ١.

(٣) المجادلة: ١٣.

(٤) النور: ٥٤.

(٥) محمد: ٣٣.

(٦) النور: ٥٦.

(٧) النساء: ٨٠

الله سبحانه كما في الأُسلوب الرابع، وثالثةٌ تجمع بين الطاعتين في بيان واحد كما في الأُسلوب الأوّل، ورابعةٌ تعطف طاعة الرسول على طاعة الله كما في الأُسلوب الثاني.

ولدى التأمّل في هذه الآيات نجد أنها تدل على ما قلناه أوّلاً من وجود منصبين للرسولﷺ: أحدهما: النبوّة وإبلاغ الرسالة والأحكام، وثانيهما: الإمامة وقيادة المجتمع والدولة، ذلك أنّ الأمر بطاعة الرسول يدل على أنّه مكلّف بوظائف اجتماعية وسياسية، بحيث يتطلب أداؤها وإنجازها طاعة المسلمين له وخضوعهم لرأيه، وليس ذلك إلّا منصب الإمامة والقيادة والولاية، ولو لم يكن له ذلك لكان الأمر بطاعته خالياً من المعنى، لأنّ أدلة النبوة والرسالة تكفّلت بلزوم طاعة الرسول فيما يبلّغه من أحكام وشرائع، فما معنى ورود أدلّة جديدة تطالب بطاعة الرسول وتجعلها صنواً لطاعة الله؟

لقد اعتقد بعض المفسّرين أنها تأكيد للأدلة السابقة، ولكنّ الصحيح أنها جاءت لتفصل بين المنصبين المذكورين للنبيّ، وتؤكد على ضرورة طاعة النبيﷺ في منصب الولاية والإمامة، وأن طاعته في هذا المنصب كطاعته في منصبه الآخر ـ النبوّة والرسالة ـ تعود الى طاعة الله سبحانه وتعالى، وهذا المعنى يتجلّى أكثر في أُسلوب عطف الأمر بطاعة الرسول على الأمر بطاعة الله بتكرار كلمة ﴿أطيعوا﴾ وهو الأُسلوب الذي تكرّر في القرآن خمس مرات[1]، خاصّة في آية أُولي الأمر التي نحن بصددها حيث خصّت الله سبحانه بطاعة، وجمعت بين النبيّﷺ وأُولي الأمر بطاعة أُخرى، ممّا يدل على أنّ الآيات التي تأمر

---

(١) وهي: النساء: ٥٩، المائدة: ٩٢، النور: ٥٤، التغابن: ١٢، محمّد: ٣٣.

بطاعة الرسول ناظرة الى منصب إمامته وولايته.

وبالنتيجة تكون الآيات الآمرة بطاعة الله ناظرة الى منصب النبوّة والرسالة، باعتبار أنّ طاعة الله إنّما تتجسّد في اتّباع شريعته، التي جاء بها الرسولﷺ، ويتأكد هذا المعنى أكثر إذا لاحظنا أنّ اتّباع الشريعة واطاعة الأحكام الإلهية إنّما هي في الحقيقة طاعة لله سبحانه، ولا يمكن اعتبارها طاعة للنبي، إلّا بنحو من المجاز والمسامحة، وذلك لأنّ الشريعة المتّبعة والأحكام المطبّقة إنّما هي أوامر الله ونواهيه.

وبالتالي فإنّ طاعتها إنّما هي طاعة الله سبحانه، ولا تصحّ نسبة الطاعة الى النبيﷺ إلّا عندما تكون هناك أوامر ونواهٍ صدرت عن النبيﷺ، بلسان الحكومة والولاية لا بلسان تبليغ الأحكام والشرائع الإلهية، وهذا هو مغزى تكرار كلمة ﴿أطيعوا﴾ في الآيه، وليس معنى عطف «أُولي الأمر» على الرسول إلّا الإشارة الى منصب مشترك بين الرسول وأُولي الأمر، وهو منصب الحكومة والولاية.

وبعد هذا كلّه نعود الى الآية مرة أُخرى لنستفيد منها شيئاً جديداً، حيث نلاحظ أن الآية تدرّجت من طاعة الله سبحانه الى طاعة الرسولﷺ ومن طاعة الرسول الى طاعة أُولي الأمر، هذا من جهة.

ومن جهة أُخرى نحن نعلم أنّ طاعة العبد لله إنّما هي طاعة مطلقة لأوامر ونواهٍ معصومة، واتّباع لشريعة لا يتطرّق إليها الباطل بنحو من الأنحاء، وإذا لاحظنا الآيات الآمرة بطاعة الرسول خاصة الآيات من الأُسلوب الأوّل:

﴿وأطيعوا الله ورسوله﴾ والآيات من الأُسلوب التي تُرجع طاعة الرسول الى طاعة الله سبحانه: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ أمكننا التوصّل الى عصمة الرسول ﷺ. وهذا مقتضى العينية الموجودة بين الطاعتين، وبتعبير آخر أن ترشّح طاعة الرسول عن طاعة الله سبحانه، يكشف عن وصول فيض العصمة الإلهيّة الى السدّة النبويّة.

ثم إذا لاحظنا آيات الأُسلوب الثاني التي تعطف طاعة النبي ﷺ على طاعة الله، خاصة آية أُولي الأمر التي نحن بصددها والتي جمعت بين أُولي الأمر وبين الرسول بطاعة واحدة وبنحو يُفهم منه أن الآية بصدد النظر الى عنصر مشترك ومنصب واحد بين الرسول وأُولي الأمر، وهو منصب الولاية والحكومة، إذا نظرنا الى هذه الآية أمكننا التوصّل الى عصمة أُولي الأمر أيضاً، ذلك أننا إذا كنّا قد توصلنا الى عصمة الرسول من خلال اتحاد طاعته مع طاعة الله سبحانه، فلاشك أن اتّحاد طاعة الرسول مع طاعة أُولي الأمر يكشف عن عصمة أُولي الأمر أيضاً، وهكذا يترشّح فيض العصمة من الله الى النبيّ، ومن النبيّ الى أُولي الأمر، ممّا يستتبع ترشّح لزوم الطاعة عبر هذه السلسلة أيضاً، فتجب طاعة أُولي الأمر لوجوب طاعة الرسول، وتجب طاعة الرسول لوجوب طاعة الله سبحانه.

وممّا يؤيد استفادة عصمة أُولي الأمر من الآية أُمور ثلاثة هي:

١ ـ إنّ الله سبحانه أمر بطاعة أُولي الأمر من جهةٍ ونهى عن اتّباع خطوات الشيطان من جهةٍ أُخرى، فلو لم يكن ولي الأمر معصوماً كان اتّباعه في موارد خطأه اتّباعاً للشيطان، ولا يمكن الأمر بشيء قد نهي عنه لأنه يلزم منه الضدّان: الوجوب والحرمة.

٢ ـ إنّ الأمر بطاعة أُولي الأمر في الآية جاء مطلقاً كالأمر بطاعة الله والرسول، وهذا الاطلاق لا ينسجم إلّا مع القول بعصمة أُولي الأمر، لأنّ غير المعصوم قد يأمر بمعصية فتحرم طاعته فيها، وهذا يتنافى مع إطلاق الأمر بالطاعة.

وقد يقال: بأنّ الآية مقيّدة بقيد منفصل مستفاد من دليل آخر، مثل قوله تعالى: **﴿قل إنّ الله لا يأمر بالفحشاء﴾**[1] وقول الرسولﷺ : **«لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»**[2] وبذلك يرتفع إشكال التضاد.

ولكن هذا القول لا يتمّ، لأنّ القرآن جعل طاعة الرسولﷺ بمنزلة طاعة الله، وحينئذٍ فكما أنّ طاعة الله لا تقبل التقييد والتخصيص، كذلك طاعة الرسول لا تقبل التقييد والتخصيص، ولذا لا نستطيع القول بأنّ قوله تعالى: **﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾** مقيد بقولهﷺ: **«لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»** وذلك للتنافي بين القولين، وبالتالي عدم صلاحية الكلام الثاني لتقييد الكلام الأوّل، فإنّ الكلام الأوّل يدل على صحة أوامر الرسولﷺ ومطابقتها لأوامر الله سبحانه بينما يدل الكلام الثاني ـ إذا اعتبر قيداً للآية ـ على إمكان صدور المخالفة من الرسولﷺ .

وما قيل في الرسول يقال أيضاً في أُولي الأمر، فكما أنّ إطلاق الأمر بطاعة الرسول لا يقبل التقييد كذلك إطلاق الأمر بطاعة أُولي الأمر لا يقبل التقييد،

---

(١) الأعراف: ٢٨.

(٢) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج١٠ / ص٢٢٧ / باب ١٤.

لأنّ الآيـة: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسـول وأُولي الأمـر مـنكم﴾ جـعلت أُولي الأمـر والرسول بمنزلة واحدة، وحينئذٍ يبقى الأمر بطاعة أُولي على إطلاقه ومـمتنعاً عن التقييد، ممّا يدل على عصمة أُولي الأمر المقصودين بالطاعة.

٣ـ إنّ الآية في سياق تعظيم الرسول وأُولي الأمر وإعطاء درجة واحدة من اللزوم والنفوذ لأوامرهما، وهذا السياق بحدّ ذاته يـنفي إمكـانية تـخصيص أو تقييد طاعة أُولي الأمر في ما عدا المعاصي، لأنّ تعظيم المـعاصي قـبيح، ولأنّ التقييد والتخصيص، إذا كان ممكناً سرى الى أوامر النبيﷺ ، ولم يـقف عـند حدود أُولي الأمر لظهور الآية في وحدة درجة النفوذ واللـزوم فـي أوامـرهما، وحيث لا يمكن تقييد طاعة النبيﷺ فلا يمكن تقييد طاعة أُولي الأمر أيضاً، ولو كان التقييد ممكناً لظهر ذلك فـي الآيـة نـفسها، لأنّ القـرآن الكـريم التـزم بالتقييد في ماهو أدنىٰ من شأن الإمامة وأقل حاجة الى التـقييد، كـما فـي قـوله تعالى عند التعرض لبرّ الوالدين: ﴿وإن جاهداك لتشرك بـي مـا ليس لك بـه عـلم فـلا تطعمها﴾[1].

وقد اعترف الفخر الرازي في تفسيره بدلالة الآيـة عـلى عـصمة الرسـول وأُولي الأمر، فقال في المسألة الثالثة في ذيل الآية: إعلم أنّ قوله: ﴿وأُولي الأمـر منكم﴾ يدل عندنا على أن اجماع الأُمة حجة، والدليل على ذلك أنّ الله تعالى أمر بطاعة أُولي الأمر على سبيل الجزم في هذه الآية، ومن أمر الله بطاعته على سبيل الجزم والقطع لابدّ وأن يكون معصوماً عن الخطأ، إذ لو لم يكـن مـعصوماً عـن الخطأ كان بتقدير إقدامه على الخطأ يكون قد أمر الله بمتابعته، فيكون ذلك أمراً

(١) العنكبوت: ٨

بفعل ذلك الخطأ، والخطأ لكونه خطأ منهيّ عنه، فهذا يفضي الى اجتماع الأمر والنهي في الفعل الواحد بالاعتبار الواحد وإنّه محال، فثبت أنّ الله تعالى أمر بطاعة أُولي الأمر على سبيل الجزم، وثبت أنّ كلّ من أمر الله بطاعته على سبيل الجزم وجب أن يكون معصوماً عن الخطأ، فثبت قطعاً أنّ أُولي الأمر المذكور في الآية لابدّ وأن يكون معصوماً»[1] .

وقال في موضع آخر:

«.. فكان حمل الآية على الاجماع أولى، لأنّه أدخل الرسول وأُولي الأمر في لفظ واحد، وهو قوله: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرّسول وأُولي الأمر منكم...﴾. فكان حمل ﴿أُولي الأمر﴾ الذي هو مقرون بالرسول على المعصوم أولى من حمله على الفاجر الفاسق...»[2] .

وهذا الرأي اعتمده النيشابوري في تفسيره[3] وكذلك الشيخ محمّد عبده على ما حكاه مقرّر بحثه في المنار بقوله: «فأهل الحلّ والعقد من المؤمنين إذا أجمعا على أمر من مصالح الأُمة ـ إلى أن قال ـ: طاعتهم واجبة ويصحّ أن يقال: هم معصومون في هذا الاجماع»[4] وإن أضاف إليه المقرّر ما يوهم خلافه، فراجع.

ويتلخّص من كلّ ما مرّ أنّ الآيه تدل على عصمة أُولي الأمر المقصودين

---

(١) الرازي، فخر الدين محمد بن عمر، التفسير الكبير: ج٥ / ص١٤٩.

(٢) المصدر السابق: ص ١٥١.

(٣) النيشابوري، الحسن بن محمّد القمي، غرائب القرآن: ج٥ / ص٦٥.

(٤) رضا محمد رشيد، تفسير المنار: ج٥ / ص ١٨١.

بالطاعة، ولكن قد يرد اشكال على هذا الاستدلال وهو: أنّ تعبير ﴿منكم﴾ الوارد في الآية ربّما جاء للتنبيه على أنّ أُولي الأمر المقصودين بالطاعة هم أفراد من هذه الأُمة ليست لهم أيّة مزيّة على سائر الأفراد كالعصمة وغيرها.

ولكن هذا الاشكال غير تام، لأنّ تعبير ﴿منكم﴾ في الآية نظير تعبير ﴿منهم﴾ في قوله تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأُميين رسولاً منهم﴾[1] فكما أنّ كون الرسول فرداً من هذه الأُمة لا ينفي وجود صفة زائدة فيه، فكذلك كون أُولي الأمر أفراداً من هذه الأُمّة لا ينفي وجود مزيّة فيهم، ولعلّ المقصود من هذه الكلمة هو العكس تماماً، وهو إثبات المزيّة لهم، فكأنّ الآية تريد إشعار الأُمة بأنّ كون هؤلاء أفراداً منكم لا يعني مساواتكم لهم، بل هناك مزايا فيهم توجب طاعتكم لهم.

صلاحيات أُولي الأمر

ماهي صلاحيات أُولي الأمر؟ وماهي دائرة نفوذهم في المجتمع الإسلامي؟

يمكن استفادة الجواب من خلال ذيل الآية: ﴿فإنّ تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول﴾ والجواب الذي يمكن استفادته منها هو أحد الرأيين التاليين:

١ ـ إنّ وظائف وليّ الأمر تنحصر في تشخيص الموضوعات ومعالجتها.

٢ ـ إنّ وظائف وليّ الأمر تشمل الأحكام والموضوعات معاً.

ودليل الرأي الأوّل: أنّ كلمة «شيء» الواردة في الآية كموضوع للتنازع

---

(١) الجمعة: ٢.

تشير الى صلاحيات ووظائف الرسول وأولي الأمر، وهي وإن كانت بظاهرها تعمّ كلّ ما تنازعت فيه الأمّة وكان محلاً للاختلاف فيما بينها، سواء كان من الأحكام أو القضايا، والمنازعات الحقوقية التي تحتاج الى الترافع والتحاكم، أو الموضوعات الخارجية التطبيقية والمسائل الإجرامية والتنفيذية، إلاّ أنّ الآية لمّا ذكرت الردّ الى الله والرسول اقتصرت عليهما ولم تذكر معهما أولي الأمر، مما يُفهم منه أنّ الشيء المقصود هو الأحكام الشرعية، التي يمتلك الرسول فيها حيثية التبليغ، الأمر الذي يوضّح بالتالي أنّ الأحكام الشرعية وظيفة خاصة بالرسول، وأنّ ما عدا ذلك كالقضاء والولاية العامة على شؤون الدولة والمجتمع، هي وظائف مشتركة بين النبيﷺ وأولي الأمر.

ودليل الرأي الثاني: أنّ إطلاق: ﴿وأطيعوا الرسول وأولي الأمر﴾ يفهم منه وحدة دائرة النفوذ بين النبيّ وأولي الأمر، وبالتالي فكلّ ماكان وظيفة للرسول هو وظيفة لأولي الأمر إلاّ ما خرج بالدليل، وتخصيص ردّ الشيء المتنازع فيه بالرسول لا يدل على اختصاص الرسول بالأحكام الشرعية دون أولي الأمر، لأنّ السياق لا يفهم منه التخصيص، وإنّما هو من قبيل التمثيل لمن يرجع إليه في الأحكام والموضوعات، وليس من باب الحصر، ويؤيد ذلك قوله تعالى:﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردّوه الى الرسول والى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾[1] فإنّ الآية هنا اقتصرت على الرسول وأولي الأمر ولم تذكر لفظ الجلالة، وبالجمع بين الآيتين نفهم أنّهما بصدد بيان من له شأنية الحلّ والإجابة عند المراجعة، فتذكران لفظ الجلالة والرسول تارةً،

---

(١) النساء: ٨٣.

والرسول وأُولي الأمر تارة أُخرى، وهي في ذلك بصدد التمثيل لا الحصر، اللهمّ إلّا أن يقال كردّ على هذا الوجه: إنّ آية الأمن والخوف اقتصرت على ذكر الرسول وأُولى الأمر، لأن موضوعها وهو الأمن والخوف ممّا يرجع فيه الى ولاة الأُمور. وذكر الرسول هنا بما له من الولاية والحاكمية وليس بخصوصية النبوّة والرسالة، وقد أهملت ذكر لفظ الجلالة لأنّ الله لا يرجع إليه في مثل هذه الأُمور العادية الإجرائية. وهذا التأمل كما يضعف الرأي الثاني يؤكد الرأي الأوّل في المسألة أيضاً.

من هم أولو الأمر؟

وأخيراً نصل الى عُقدة أساسية من البحث، وهي من هم أُولو الأمر الذين تتحدّث عنهم الآية؟

في البدء لابدّ من التوضيح بأنّ الأمر كلمة قد يراد بها الشأن، وقد يراد بها المعنى المقابل للنهي، وأولو الأمر جماعة من الأُمة لهم موقع متقدّم فيها، بحيث يمتلكون أمرها ويسيّرون شؤونها، وهذا المعنى واضح، ولكن من هم هؤلاء الولاة للأُمور الذين تتحدّث عنهم الآية؟ وهل كانوا موجودين على عهد الرسول أم أنّ الآية تتحدّث على نحو القضية الحقيقية[1]، فلا يشترط في صدق الآية وجود أُولي الأمر في زمن صدورها، وإنّما هي أصدرت حكماً على المسلمين في موضوع موجود فعلاً وهو وجوب طاعة الرسولﷺ وأصدرت حكماً آخر في موضوع مقدّر الوجود وهو وجوب طاعة أُولي الأمر؟

(١) القضية الحقيقية اصطلاح منطقي يراد به اصدار حكم بشأن موضوع ما، سواء كانت مصاديقه موجودة فعلاً أو كانت معدومة لكنّها لوحظت مقدرة الوجود، مثل كلّ مسكر حرام، وتقابلها القضية الخارجية الناظرة الى مصاديق موجودة فعلاً، مثل كلّ طالب في المدرسة مجدّ «معد الكتاب».

والشيء الذي يمكن التوصل إليه هو أنّ استعمال اسم الجمع «أُولي الأمر» لا يلزم منه كون الآية ناظرة الى جماعة معينة موجودة في كلّ زمان ومكان، فربما كان المقصود به آحاداً من الأُمة يتولّون شؤونها واحداً بعد الآخر، كما هو الشأن في القضايا الحقيقية التي قد تصاغ بلسان الجمع ويراد بها الأفراد الموجودة فعلاً، والتي ستوجد ولو بكيفية يكون وجودها واحداً بعد الآخر، ولهذا الاستعمال نظائر في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿فلا تطع المكذّبين﴾[١] وقوله تعالى: ﴿ولا تطيعوا أمر المسرفين﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿إنّا أطعنا سادتنا وكبراءَنا﴾[٣] ففي مثل هذه الآيات لا يفهم أنها ناظرة حتماً الى جماعة كانوا مكذبين أو مسرفين أو كبراء، ولا مانع من أن تكون ناظرة الى آحاد يتقلّدون الأمر واحداً بعد واحد. نعم استعمال الجمع في فرد واحد شخصي ـ على نحو القضية الشخصية خلاف الظاهر ـ ولكن ليس الأمر هاهنا كذلك.

وعلى هذا الأساس ندرك المفارقة التي وقع فيها الفخر الرازي في تفسيره، عندما اعتقد أنّ المراد بأُولي الأمر لابدّ وأن يكون جماعة وهيئة مكوّنة من عدّة أفراد، وبنى على ذلك حجية الاجماع الصادر عن أهل الحلّ والعقد من الأُمة، معتبراً عنه بإجماع الأُمة تارة وإجماع أهل الحل والعقد أُخرى، كما آمن بعصمة أُولي الأمر وهذه نقطة مشتركة بيننا وبينه إلاّ أنه لا يقصد بأُولي الأمر ما نقصده نحن، وعنده أنّ أُولي الأمر هم أهل الحلّ والعقد من علماء الأُمة.

ويرد على هذا الرأي: أنّ القول بعصمة هؤلاء لابدّ وأنّ يُفسر بأحد

---

(١) القلم: ٨.

(٢) الشعراء: ١٥١.

(٣) الأحزاب: ٦٧.

الاحتمالات التالية:

١ ـ عصمة كلّ فرد منهم.

٢ ـ عصمة الجماعة بما هي جماعة.

٣ ـ إنّ المقصود بالعصمة ملازمة الصواب للجماعة عادة، نظير ملازمة صحة الخبر لبلوغ المخبرين عنه حدّ التواتر.

والاحتمال الأوّل واضح البطلان، إذ يلزم منه أن تكون العصمة قد تحققت للافراد إمّا قبل دخولهم في الجماعة أو بعد ذلك، فإذا كانت عصمتهم قبل الجماعة فما هو الدليل على ذلك؟ وإذا كانت بعد الجماعة فهذا يعني القول بالاحتمال الثاني، ولذا لا يوجد قائل بعصمة أفراد أهل الحلّ والعقد.

والاحتمال الثاني باطل أيضاً، لأن الجماعة بما هي جماعة ليس لها وجود خارجي زائد عن وجود الأفراد، فما معنى نسبة العصمة لأمر اعتباري ذهني لا وجود خارجي له.

والاحتمال الثالث لا يؤدّي الى العصمة، وإنّما يؤدّي الى ضآلة الخطأ في الآراء الصادرة عن أهل الحل والعقد، الى حدّ التسامح فيه وعدم الالتفات إليه، وهذا غير العصمة التي تعني عدم صدور الخطأ أصلاً، ولو أن آراء أهل الحلّ والعقد معصومة دائماً فهذا يعني عصمة كلّ النظم السياسية القائمة على الشورى وتداول الرأي، وقد يُدعى أن عصمة أهل الشورى تحصل بتأييد إلهي وعناية من الله سبحانه وتعالى، ولكن هذا الادعاء باطل أيضاً، فما أكثر الهيئات الاجتماعية والسياسية الإسلامية التي زلّت في قراراتها بما جرّ على المسلمين قديماً وحديثاً المحن والمآسي؟ ولو كان الإسلام قد أعطى مثل هذه المنزلة والكرامة لجماعة الحلّ والعقد لشاهدنا تأكيد القرآن عليها واهتمام النبي ﷺ بها ولدارت حولها أسئلة كثيرة من المسلمين محاولين استيضاحها من النبي ﷺ ـ كما تساءلوا عن كثير من الأُمور الأقل أهميّة والأدنى درجة ممّا نحن فيه ـ

ولمّا تركت هذه المسألة غامضة مبهمة.

فكلّ هذه الاحتمالات باطلة لا أساس لها، ويتعين بالتالي ما قالت به الإمامية من أنّ المراد هم أفراد معصومون من هذه الأُمة منزّهون في أفعالهم وأقوالهم عن الخطأ والزلل، أمّا معرفة هؤلاء فهي موكولة الى الله ورسوله، وقد عيّنتهم آيات مثل آية التطهير وآية الولاية: ﴿إنّما وليّكم الله ورسوله...﴾[١]، كما شخّصتهم أحاديث جمّة مثل حديث الثقلين، أو حديث الغدير، أو أحاديث أُخرى فسّرت آية أُولي الأمر بالأئمة الاثني عشر، وقد وردت من طرق الفريقين.

فمن طرق السنّة ما عن تفسير مجاهد: أنّ هذه الآية نزلت في أميرالمؤمنين عليه السلام ،حين خلّفه الرسول صلى الله عليه وآله بالمدينة فقال: «**يا رسول الله أتخلفني على النساء والصبيان؟ فقال: يا أميرالمؤمنين[٢] أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى حين قال: ﴿أخلفني في قومي وأصلح﴾ فقال الله: ﴿وأُولي الأمر منكم﴾ قال: علي ابن أبي‌طالب ولّاه الله أمر الأُمة بعد محمد صلى الله عليه وآله وحين خلّفه رسول الله صلى الله عليه وآله فأمر الله العباد بطاعته وترك خلافه**»[٣] .

عن إبراهيم بن محمّد الحمويني وهو من أعيان علماء العامة في حديث: «**قال ـ يعني أميرالمؤمنين عليه السلام ـ : أُنشدكم الله أتعلمون حيث نزلت ﴿يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأُولي الأمر منكم﴾ وحيث نزلت: ﴿إنّما وليّكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾ وحيث نزلت: ﴿... لم يتّخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة﴾ قال الناس: يا رسول الله أخاصّة في**

(١) المائدة: ٥٥.

(٢) في المصدر: يا علي.

(٣) البحراني، السيد هاشم، غاية المرام: ص٢٦٣ / باب ٥٨ / ح ١، نقلاً عن ابن شهرآشوب عن تفسير مجاهد.

بعض المؤمنين أم عامّة لجميعهم؟ فأمر الله عزّ وجلّ نبيّه ﷺ أن يعلمهم ولاة أمرهم وأن يفسّر لهم من الولاية ما فسّر لهم من صلاتهم وزكاتهم وحجّهم فينصبني للناس بغدير خم، ثم خطب وقال: أيّها الناس أتعلمون أنّ الله عزّ وجل مولاي وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسهم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: قم يا عليّ، فقمت فقال: من كنت مولاه فعليّ مولاه اللهمّ والِ من والاه وعاد من عاداه، فقام سلمان فقال: يا رسول الله، ولاء كماذا؟ فقال: ولاء كولايتي، من كنت أولى به من نفسه فعليّ أولى به من نفسه، فأنزل الله تعالى ذكره: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ فكبّر النبيّ ﷺ وقال: الله أكبر تمام نبوّتي وتمام دين الله ولاية عليّ بعدي، فقام أبوبكر وعمر فقالا: يا رسول الله، هؤلاء الآيات خاصّة في عليّ، قال: بلى، فيه وفي أوصيائي الى يوم القيامة. قالا: يا رسول الله بيّنهم لنا، قال: عليّ أخي ووزيري ووارثي ووصيّي وخليفتي في اُمتي ووليّ كلّ مؤمن بعدي، ثم ابني الحسن ثم الحسين ثم تسعة من ولد ابني الحسين واحداً بعد واحد، القرآن معهم وهم مع القرآن، لا يفارقونه ولا يفارقهم حتى يردوا عليّ الحوض، فقالوا كلّهم: اللهمّ نعم قد سمعنا ذلك وشهدنا كما قلت»[1] . هذا ما ورد بطرق السنّة.

أما ما ورد عن الشيعة فروايات كثيرة متواترة.

منها: صحيحة أبي بصير قال: سألت أبا عبدالله ؑ عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ فقال: نزلت في عليّ بن أبي طالب والحسن والحسين، فقلت له: إنّ الناس يقولون: فما له لم يسمّ عليّاً وأهل بيته في كتاب الله عزّ وجلّ؟ قال: فقال فقولوا لهم إنّ رسول الله ﷺ نزلت عليه الصلاة لم يسمّ الله لهم ثلاثاً ولا أربعاً حتى كان رسول الله ﷺ هو الذي فسّر لهم ذلك، ونزلت عليه الزكاة ولم يسمّ لهم من كل أربعين درهماً حتى كان رسول الله ﷺ هو الذي فسّر لهم ذلك، ونزل الحجّ فلم يقل لهم طوفوا

---

(١) البحراني، السيد هاشم، غاية المرام: ٢٦٤ ـ ٢٦٥، باب ٥٨ / ح ٤، نقلاً عن الحمويني في فرائد السمطين: ج ١ / ص ٣١٤ ـ ٣١٥.

أُسبوعاً حتى كان رسول الله ﷺ هو الذي فسّر ذلك لهم، ونزلت ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأُولي الأمر منكم﴾ في عليّ والحسن والحسين فقال رسول الله ﷺ: من كنت مولاه فعليّ مولاه، وقال: أُوصيكم بكتاب الله وأهل بيتي فإنّي سألت الله عزّ وجلّ أن لا يفرّق بينهما حتى يوردهما عليّ الحوض فأعطاني ذلك، وقال: لا تعلّموهم فإنّهم أعلم منكم، وقال: إنّهم لن يخرجوكم من باب هدىً ولن يدخلوكم في باب ضلالة، فلو سكت رسول الله ﷺ فلم يبيّن من أهل بيته لادّعاها آل فلان وآل فلان»(١) الحديث.

ومنها: عن جابر بن يزيد الجعفي قال: «سمعت جابر بن عبدالله الأنصاري أنّه سأل رسول الله ﷺ فمن أُولوا الأمر الذين قرن الله طاعتهم بطاعتك؟ فقال: هم خلفائي يا جابر، وأئمة المسلمين بعدي، أوّلهم عليّ بن أبي طالب ثمّ الحسن ثمّ الحسين ثمّ علي بن الحسين ثمّ محمّد بن عليّ المعروف في التوراة بالباقر ستدركه يا جابر فإذا لقيته فاقرأه مني السلام، ثمّ الصادق جعفر بن محمّد ثم موسى بن جعفر ثمّ عليّ بن موسى ثمّ محمّد بن عليّ ثم عليّ بن محمّد ثم الحسن بن علي ثم سميّي وكنيّي حجة الله في أرضه وبقيته في عباده ابن الحسن بن عليّ، ذاك الذي يفتح الله ـ تعالى ذكره ـ على يديه مشارق الأرض ومغاربها، ذاك الذي يغيب عن شيعته وأوليائه غيبة لا يثبت فيها على القول بإمامته إلّا من امتحن الله قلبه للإيمان، قال جابر: قلت له: يا رسول الله فهل يقع لشيعته الانتفاع به في غيبته؟ فقال: إي والذي بعثني بالنبوّة، إنّهم يستضيئون بنوره وينتفعون بولائه في غيبته كانتفاع الناس بالشمس وإن تجلّاها سحاب، يا جابر هذا من مكنون سرّ الله ومخزون علمه فاكتمه إلّا عن أهله»(٢). وقد روى هذا المضمون عن الفريقين متواتراً.

---

(١) غاية المرام: ص٢٦٥ ـ ٢٦٦ / ح٣.

(٢) المصدر السابق: ٢٦٧ / ح١٠.

الفصل الرابع

الـولايـة الـزاكيـة

آية الولاية

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱلَّـذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِـعُونَ ۞ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَالِبُونَ﴾

(المائدة: ٣)



ومن الآيات القرآنية ذات العلاقة بنظرية الإمامة هي آية الولاية، وسنحاول في الصفحات التالية استنطاقها واستنتاج بعض المعطيات منها.

الركوع

الركوع هو الانحناء وانخفاض الرأس، ويستعمل للتواضع والتخضّع، وبمعنى انخفاض الحال وانحطاطها، قال في القاموس: «ركع الشيخ: انحنى كبراً أو كبا على وجهه، وافتقر بعد غنى، وانحطّت حاله، وكلّ شيء يخفض رأسه فهو راكع»(١).

وفي المفردات: «الركوع: الانحناء، فتارةً يستعمل في الهيأة المخصوصة في الصلاة كما هي، وتارةً في التواضع والتذلّل إمّا في العباده وإمّا في غيرها»(٢).

فيظهر من ذلك أنّ لفظ الركوع أُريد به في بدء الأمر الانحناء الحسّي، ثمّ استعير في استعمالات معنوية كالتواضع والتذلّل والافتقار بعد الغنى.

الولاية ومفهومها في القرآن الكريم

الظاهر من تتبع موارد الاستعمال وكلمات اللغويّين أنّ الأصل في معنى الولاية هو القرب والدنوّ، ويلازمه الاتّصال والتأثير، وقد يقارنه التصرّف

---

(١) الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب، القاموس: ص٩٣٤.

(٢) الراغب الاصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات: ص٢٠٢.

والتدبير والمحبّة والنصرة.

قال في أساس البلاغة: «وليه ولياً: دنا منه، وأوليته إيّاه: أدنيته»[١].

وفي القاموس: «الولي: القرب والدنو... والولي اسم منه والحبّ والصديق والنصير»[٢].

وقال الراغب في المفردات: «الولاء والتوالي أن يحصل شيئان فصاعداً ليس بينهما ما ليس منهما، ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان ومن حيث النسبة ومن حيث الدين ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد»[٣].

وكما استظهرنا في مفردة «الركوع» نستظهر في مفردة «الولاية» أيضاً أنّ مادة الكلمة وضعت أوّل مرة للقرب الحسّي، ثمّ توسّع فيها فاستعملت في المعنويات والمعقولات، ذلك أنّ الغرض من وضع الألفاظ هو التفاهم والتعبير عن الإحساسات والمشاعر والأفكار التي في ذهن المتكلّم ونقلها الى السامع، ولا ريب أن معرفة الإنسان بالمحسوسات متقدّمة على معرفته بالمعقولات، فلابد أن تكون الألفاظ المستعملة في المعقولات قد أُستعملت في الوهلة الأُولى في المحسوسات، ثمّ حصل توسّع في الاستعمال فأصبحت تستعمل في المعقولات أيضاً.

وهكذا، فالولايه لفظ وضع للقرب الحسّي، ثم توسّع في الاستعمال فصار يشمل المعقولات والمعنويات، والقرب غير الحسّي قد يكون حقيقياً كقرب العلّة من المعلول، وقد يكون اعتبارياً تمّ اعتباره لغرض التوصّل الى الآثار

---

(١) الزمخشري، محمود بن عمر، أساس البلاغة: ج٢ / ص٥٢٨.

(٢) الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب، القاموس: ص١٧٣.

(٣) الراغب الاصفهاني، الحسين بن محمد: ص٥٣٣.

المترتّبة عليه، كما هو الشأن في المفاهيم الاعتبارية.

ويستعمل القرب في الزمان والمكان والوجود الحقيقي والمنزلة الاعتبارية، وله في جميع هذه الحالات معنىً واحد، لأنّ تعدّد الاستعمال لا يوجب تعدّد المعنى، وكذلك الولاية لها معنىً واحد يسري في حالات وموارد متعدّده ومصاديق مختلفة، ويمكن تمييز المصاديق بعضها عن البعض الآخر بالقرائن والمناسبات التي تحفّ بالكلام أو حال المتكلم، فمثلاً إذا لوحظ القرب بين فردين مشتركين في أُسرة واحدة كان الوليّ بمعنى ذي الرحم والوارث، وإذا لوحظ بين شخصين كلّ منهم أجنبي عن الآخر أفاد معنى الصديق والناصر والمعين، وإذا لوحظت ضمن ذلك مزيّة زائدة لأحدهما على الآخر أفاد القرب هنا معنى ولي الأمر والمتصرّف بالتدبير كالسيد بالنسبة للعبد ووليّ الطفل، وقد يلاحظ بين شخص ومجتمع فهنا يفيد معنى الحكومة وتدبير الأمر لا غير، وهو يستلزم الودّ والعون بين الحاكم والمحكوم، ولكن ذلك لا يعني أنّ المراد بالقرب هو العون والود، لأنّ العون والود أمرٌ يستلزمه القرب في كلّ موارد الاستعمال المذكورة.

وقد استعملت الولاية بمشتقاتها المختلفة في القرآن الكريم فقد استعمل «الوليّ» و «الوالي» و «المولى» في الله تعالى، وسمّى الملائكة «أولياء» المؤمنين، وسمّى الطاغوت والشياطين «أولياء» الكافرين، وذكر أنّ المؤمنين بعضهم أولياء بعض، وكذلك الظالمين، ونهى المؤمنين عن اتّخاذ الكافرين «أولياء»، وحجب «ولاية» المؤمنين عن الذين لم يهاجروا من المؤمنين مع الأمر بنصرهم عند الاستنصار، واستعمل «الوليّ» أيضاً في الوارث ووليّ الدم والصديق.

وإليك نماذج من الآيات الكريمة التي وردت فيها مادة

«الولاية» ومشتقاتها.

﴿الله وليّ الذين آمنوا﴾[١] ﴿والله وليّ المتّقين﴾[٢] ﴿وما لهم من دونه من وال﴾[٣] ﴿ومالكم من دون الله من وليّ ولا نصير﴾[٤] ﴿ومن يضلل فلن تجد له وليّاً مرشداً﴾[٥] ﴿ذلك بأنّ الله مولى الذين آمنوا وأنّ الكافرين لا مولى لهم﴾[٦] ﴿هنالك الولاية لله الحقّ هو خير ثواباً وخير عقباً﴾[٧] ﴿أم اتّخذوا من دونه أولياء فالله هو الولي﴾[٨] ﴿والذين اتّخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلّا ليقرّبونا الى الله زلفى﴾[٩] ﴿مثل الذين اتّخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتّخذت بيتاً﴾[١٠] ﴿ولا تتّبعوا من دونه أولياء﴾[١١]، وقال سبحانه حكاية عن الملائكة: ﴿نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾[١٢]، وقال عزّ وجلّ في الشياطين: ﴿إنّا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾[١٣] ﴿والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت﴾[١٤] ﴿فقاتلوا أولياء الشيطان إنّ كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾[١٥]

---

(١) البقرة: ٢٥٧.

(٢) الجاثية: ١٩.

(٣) الرعد: ١١.

(٤) العنكبوت: ٢٢.

(٥) الكهف: ١٧.

(٦) محمّد: ١١.

(٧) الكهف: ٤٤.

(٨) الشورى: ٩.

(٩) الزمر: ٣.

(١٠) العنكبوت: ٤١.

(١١) الأعراف: ٣.

(١٢) فصلت: ٣١.

(١٣) الأعراف: ٢٧.

(١٤) البقرة: ٢٥٧.

(١٥) النساء: ٧٦.

﴿يا أبت إنّي أخاف أن يمسّك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليّاً﴾(١) ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾(٢) ﴿إنّ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أُولئك بعضهم أولياء بعض، والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا، وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلّا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير* والذين كفروا بعضهم أولياء بعض﴾(٣) ﴿وانّ الظالمين بعضهم أولياء بعض﴾(٤) ﴿لا يتّخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾(٥) ﴿الذين يتّخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزّة فإنّ العزّة لله جميعاً﴾(٦) ﴿يا أيّها الذين آمنوا لا تتّخذوا اليهود والنصارى أولياء، بعضهم أولياء بعض، ومن يتولّهم منكم فإنّه منهم، إنّ الله لا يهدي القوم الظالمين* فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشىٰ أن تصيبنا دائرة، فعسىٰ الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين﴾(٧) ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتّخذوا الذين اتّخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء﴾(٨) ﴿لا تتّخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء تلقون إليهم بالمودّة﴾(٩) ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتّخذوا آباءكم واخوانكم أولياء إنّ استحبّوا الكفر على الإيمان ومن يتولّهم منكم فأُولئك هم

---

(١) مريم: ٤٥.

(٢) التوبة: ٧١.

(٣) الأنفال: ٧٢ ـ ٧٣.

(٤) الجاثية: ١٩.

(٥) آل عمران: ٢٨.

(٦) النساء: ١٣٩.

(٧) المائدة: ٥١ ـ ٥٢.

(٨) المائدة: ٥٧.

(٩) الممتحنة: ١.

الظـالمون﴾(١) ﴿والذيـن آمـنوا ولم يـهاجروا مـالكم مـن ولايـتهم مـن شـيء حـتى يهاجروا﴾(٢) ﴿فهب لي من لدنك وليّاً يرثني ويرث من آل يـعقوب﴾(٣) ﴿ومـن قـتل مظلوماً فقد جعلنا لوليّه سلطاناً﴾(٤) ﴿فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنّه ولي حميم﴾(٥) .

دلالات آية الولاية

وإذا استنطقنا آية الولاية وجدناها تشتمل على عدة دلالات منها:

١ ـ إنّها لا تتحدّث عن ولاية بين أفراد متساوين بالدرجة، فهي ليست من قبيل: ﴿المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ الذي يفهم مـنه تـبادل الولايـة بالنحو الذي يدفعنا الى تفسيرها بالنصرة المتبادلة، وإنّما تتحدّث عن ولاية فرد ممتاز على من سواه من الأفراد بدلالة اقتران ولاية ﴿الذين آمنوا﴾ بولاية الرسول وولاية الله من جهة، وتوصيفهم بدرجة ممتازة من العـبادة والتـقوىٰ ﴿يـقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾ من جهة ثانية، ولذا لا يفهم من سياق الآيـة النصرة المتبادلة، بل وكما يُفهم من ولاية الرسـول عـلى المـؤمنين الحكـومة والإدارة كـذلك يُـفهم مـن ولايـة المـؤمنين المـقارنة لهـا، الحكـومة والإدارة الاجتماعية والسياسية أيضاً.

---

(١) التوبة: ٢٣.

(٢) الأنفال: ٧٢.

(٣) مريم: ٥ ـ ٦.

(٤) الإسراء: ٣٣.

(٥) فصلت: ٣٤.

٢ ـ إنّ اقتران ولاية ﴿الذين آمنوا﴾ بولاية الله والرسول مشعر بكون الأُولى امتداداً واستمراراً للثانية ومتفرعة عليها، ومن الطبيعي أن الفرع يحمل كلّ خصائص الأصل إلّا ما خرج بالدليل، فتبقى ولاية الله هي الأصل والمنبع، وولاية الذين آمنوا فرع مستمدّ منها عبر واسطة هي ولاية الرسولﷺ، وولاية الله مستقلّة ذاتية، وولاية من عداه تابعة مكتسبة، ولا يوجد دليل يحدّد الولاية بمجال دون آخر، فيبقى الإطلاق سارياً في ولاية المؤمنين، فتكون ولاية تكوينية وتشريعية وسياسية كما هي ولاية الله والرسول.

٣ ـ إنّ الآية حصرت الولاية ﴿إنّما وليّكم﴾ بنوع خاص من الأفراد، وإذا لاحظنا نوع الولاية الذي أُعطي لهم وهو الولاية السياسية والتشريعية والتكوينية من جهة، وربطنا بين الآية وآية أُولي الأمر الذين افترض الله طاعتهم وقرن طاعتهم بطاعته وطاعة رسوله من جهة ثانية، أدركنا أنه ليس المقصود من الآية إصدار حكم على نحو القضية الحقيقية باعطاء الولاية لكلّ من أقام الصلاة وأعطى الزكاة وهو راكع، ولو كان الأمر كذلك لتيسّرت الولاية للملايين من الطامعين والانتهازيين، وإنّما هي بصدد الإشارة الى فرد معين بالخارج وآخرين بدرجته على نحو القضية الخارجية ممّن يستحقّون الدائرة الواسعة من الولاية بمجالاتها الثلاثة السياسية والتشريعية والتكوينية.

وبتعبير آخر: إنّ الآية إمّا أن تحمل على القضية الحقيقية أو على القضية الخارجية، وحملها على القضية الحقيقية متعذّر لأنه سيلزم منها حصول الولاية التشريعية والتكوينية إضافة الى السياسية لكلّ من اتّصف بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة راكعاً، وهذا المعنى لا يمكن الأخذ به حتى على فرض تحقّق هذه الصفة صدقاً وإيماناً لا نفاقاً ولا رياءاً، لأنّ الولاية التشريعية والتكوينية ليست من

الصفات المكتسبة، وإنّما هي من المراتب القريبة التي تحتاج الى جعل وتعيين شخصي قائم على أساس تشخيص مسبق باستحقاق الفرد المعيّن لأن يناله عهد الله وتمتدّ إليه قناة السماء، فيكون ناطقاً باسمها ومعبّراً عما تريد وما لا تريد، فيُعطى هذه الولاية.

وحيث دلّت الآية على إتساع دائرة الولاية الى الولاية التشريعية والتكوينية وعدم اقتصارها على الولاية السياسية من جهة، وأنّ الولاية من هذا النوع مرتبة قريبة غير مكتسبة تحتاج الى جعل وتعيين شخصي من جهة ثانية، لذا فإنّ حملها على القضية الخارجية هو المتعيّن، بأن يقال: إنّ الآية أشارت إلى فرد معين، وليس غرضها اعطاء ضابطة كلية بحيث يكون كلّ من التزم بها مستحقاً للولاية، بل غرضها الدلالة على ذلك الفرد وتوجيه المسلمين نحوه، فمن هو ذلك الفرد الذي قصدته الآية وعبرت عنه بـ : ﴿الذين آمنوا الذين يقيمون...﴾ ؟

الروايات المفسّرة

من الواضح أنّ الآية لم تكشف عن الشخص المقصود بالولاية، وفي مثل هذه الحالة لابدّ لنا من الرجوع الى السنّة الشريفة التي تكفّلت ببيان مجملات الكتاب وتفاصيل الأحكام، قال تعالى: ﴿**وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للنّاس ما نزّل إليهم**﴾[1].

وقد بيّن الرسول ﷺ بأحسن بيان وأبلغ دلالة وأفضل طريقة بأنّ المراد

---

(١) النحل: ٤٤.

بالآية هو أميرالمؤمنين عليه السلام وأنّها نزلت بشأنه، وروى الفريقان ذلك في كتبهم الحديثية والتفسيرية والتاريخية بما لا يبقىٰ معه شك أو ترديد، وشأن نزولها هو تصدّق الإمام علي عليه السلام بخاتمه الشريف وهو راكع يصلّي في المسجد، وقد مدحه حسّان شاعر الرسول لأجل هذه المنقبة في أبيات نقلها مثل: الخطيب الخوارزمي في المناقب[١] وشيخ الإسلام الحمويني في فرائد السمطين[٢] وصدر الحفّاظ الكنجي في الكفاية[٣] وسبط بن الجوزي في التذكرة[٤] وجمال الدين الزرندي في نظم درر السمطين[٥] على ما حكاه العلّامة الأميني في الغدير[٦] وقد ذكرها الآلوسي في تفسيره[٧] في ذيل الآية الشريفة، وأخرجها جمّ غفير من أئمة الحديث والتفسير والكلام، منهم: أبو إسحاق الثعلبي في تفسيره[٨] والطبري في تفسيره[٩] والرازي في تفسيره[١٠] والخازن في تفسيره[١١] عن عدّة من الصحابة والتابعين، ومنهم من صرح بصحتها.

---

(١) الخطيب الخوارزمي، الموفق بن أحمد، المناقب: ص١٨٦ ـ ١٨٧.

(٢) الحمويني، إبراهيم بن محمد، فرائد السمطين: ج ١ / ص ١٩٠.

(٣) الكنجي، محمد بن يوسف، كفاية الطالب: ص٢٢٨ ـ ٢٢٩.

(٤) سبط ابن الجوزي، تذكرة الخواص: ص١٨ ـ ١٩.

(٥) الزرندي، محمد بن يوسف، نظم درر السمطين: ص٨٧ ـ ٨٨

(٦) الأميني، عبدالحسين، الغدير: ج ٢ / ص٥٢ ـ ٥٨.

(٧) الآلوسي، محمود، روح المعاني: ج٦ / ص١٦٧.

(٨) حكى صاحب الغدير ذلك عنه في: ج ٢ / ص٥٢ من الغدير.

(٩) الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان: ج٦ / ص٢٨٨.

(١٠) الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير: ج٦/ ص٢٨.

(١١) الخازن، علي بن محمد، تفسير الخازن: ج ١ / ص٤٩٦.

والأبيات التي أنشأها حسّان في المناسبة المذكورة هي:

أبا حسن تفديك نفسي ومهجتي وكلّ بطيء في الهدى ومسارع

←

وقد أنهى صاحب الغدير أسماء الناقلين لهذه الروايات الى ستّة وستين رجلاً[١]. بينما قد تبلغ روايات الشيعة حدّ التواتر، ورغم كلّ ذلك تقرأ القلم الفاتر يقول: إنّ قصّة الخاتم ونزول الآية فيها موضوعة مختلقة باجماع العلماء[٢]! فهل أنّه لا يعدّ هؤلاء الأكابر من الفريقين علماء؟ أم أنه لم يقف على كلماتهم ولم يطّلع على كتبهم وموسوعاتهم؟ قاتل الله العصبية فإنّها تعمي وتصم: **﴿فإنّ يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين﴾**[٣].

إليك بعض ما ورد في الباب:

فعن السنّة روايات كثيرة:

منها: ما أخرجه الثعلبي في تفسيره باسناده عن أبي ذرّ الغفاري قال: أما إنّي صليت مع رسول الله ﷺ يوماً من الأيام الظهر، فسأل سائل في المسجد فلم يعطه أحد شيئاً، فرفع السائل يديه الى السماء وقال: اللهمّ اشهد إنّي سألت في مسجد نبيك محمد ﷺ فلم يعطني أحد شيئاً، وكان علي ﷺ في الصلاة راكعاً فأومأ إليه بخنصره اليمنى وفيه خاتم، فأقبل السائل فأخذ الخاتم من خنصره، وذلك بمرأىً من النبي ﷺ وهو في المسجد، فرفع رسول الله ﷺ طرفه الى السماء وقال: **اللهمّ إنّ أخي موسى سألك فقال: ﴿ربّ اشرح لي صدري، ويسّر لي أمري، واحلل عقدة من لساني،**

← أيذهب مدحي والمحبين ضايعاً ... وما المدح في ذات الإله بضايع

فأنت الذي أعطيت إذ أنت راكع ... فدتك نفوس القوم يا خير راكع

بخاتمك الميمون يا خير سيد ... ويا خير شار ثمّ يا خير بايع

فأنزل فيك الله خير ولاية ... وبيّنها في محكمات الشرائع

(١) الأميني، عبدالحسين، الغدير: ج٣ / ص١٥٦ _ ١٦٢.

(٢) ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم، منهاج السنّة: ج١ / ص١٥٥.

(٣) الأنعام: ٨٩.

يفقهوا قولي، واجعل لي وزيراً من أهلي، هارون أخي، اُشدد به أزري، وأشركه في أمري﴾ فأنزلت عليه قرآناً: ﴿سنشدّ عضدك بأخيك، ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما﴾ اللهم وأنّي محمّد نبيّك وصفيّك، اللهمّ واشرح لي صدري، ويسّر لي أمري، واجعل لي وزيراً من أهلي عليّاً أشدد به ظهري، قال أبوذر رضي الله عنه فما استتمّ دعاءه حتى نزل جبرئيل عليه السلام من عند الله عزّ وجل قال: يا محمد اقرأ ﴿إنّما وليّكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهو راكعون﴾[1] .

ومنها: ما ذكره الخوارزمي موفّق بن أحمد في جواب مكاتبة معاوية الى عمرو بن العاص أنّ عمرو بن العاص قال له:

«وقد علمت يا معاوية، ما أُنزل في كتابه في عليّ من الآيات المتلوّات في فضائله التي لا يشاركه فيها أحد، كقوله تعالى: ﴿يوفون بالنذر﴾ وقوله تعالى: ﴿إنّما وليّكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾ وقوله تعالى: ﴿أفمن كان على بيّنة من ربّه ويتلوه شاهد منه ومن قبله...﴾ وقوله تعالى: ﴿رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ وقوله تعالى: ﴿قل لا اسألكم عليه أجراً إلّا المودّة في القربى﴾[2] .

وقد روى ابن المغازلي في هذا المعنى أربع روايات[3] .

وأمّا عن الشيعة فروايات كثيرة جداً نشير الى بعضها:

منها: ما رواه محمد بن يعقوب الكليني عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن

---

(١) البحراني، هاشم، غاية المرام: ص١٠٢ ـ ١٠٣ ، باب ١٨ / ح ١، والغدير: ج٢ / ص٥٢، والعمدة لابن البطريق، الفصل ١٥ / ص٥٩.

(٢) البحراي، هاشم، غاية المرام: ص١٠٤ ـ ١٠٥ / ح ١٠، نقلاً عن المناقب للخوارزمي: ص١٣٠.

(٣) المصدر السابق: ص١٠٤، الأحاديث ٣ ـ ٦، نقلاً عن المناقب لابن المغازلي: ص٣١١ ـ ٣١٢ / ح ٣٥٤ الى ٣٥٧.

ابن أبي عمير، عن عمر بن أُذينة، عن زرارة والفضيل بن يسار وبكير بن أعين ومحمدبن مسلم وبريد بن معاوية وأبي الجارود جميعاً عن أبي جعفر عليه السلام قال: أمر الله عزّ وجل رسوله بولاية عليّ وأنزل عليه **﴿إنّما وليّكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة﴾** وفرض من ولاية أُولي الأمر، فلم يدروا ما هي، فأمر الله محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم أن يفسّر لهم الولاية كما فسّر الصلاة والزكاة والصوم والحجّ، فلمّا أتاه ذلك من الله ضاق بذلك صدر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتخوّف أن يرتدّوا عن دينهم وأن يكذّبوه، فضاق صدره وراجع ربّه عزّ وجل، فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: **﴿يا أيها الرسول بلّغ ما أُنزل إليك من ربّك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته والله يعصمك من الناس﴾** فصدع بأمر الله ـ تعالى ذكره ـ فقام بولاية عليّ يوم غدير خم فنادى الصلاة جامعة، وأمر الناس أن يبلّغ الشاهد منهم الغائب ـ قال عمر بن أُذينة: قالوا جميعاً غير أبي الجاورد ـ و قال أبو جعفر عليه السلام وكانت الفريضة الأُخرى، وكانت الولاية آخر الفرائض فأنزل الله عزّ وجل: **﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي﴾** قال أبوجعفر عليه السلام: **يقول الله عزّ وجل: «لا أُنزل عليكم بعد هذه فريضة قد أكملت لكم الفرائض»**[١].

ومنها: ما عن ابن بابويه، قال: حدّثنا عليّ بن حاتم رضي الله عنه قال: حدّثنا أحمد بن محمد بن سعيد الهمداني، قال: حدّثنا جعفر بن عبدالله المحمدي، قال: حدّثنا كثير بن عياش عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عزّ وجل: **﴿إنّما وليّكم الله ورسوله والذين آمنوا﴾** قال: **إنّ رهطاً من اليهود أسلموا منهم عبدالله بن سلام وأسد وثعلبة وابن يامين وابن صوريا، فأتوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: يا نبيّ الله، إنّ موسى عليه السلام أوصى**

---

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، أُصول الكافي: ج ١ / ص ٣٤٩ / ح ٤، كذلك غاية المرام: ص ١٠٧، باب ١٩ / ح ٥.

الى يوشع بن نون؛ فمن وصيّك يا رسول الله؟ ومن وليّنا بعدك؟ فنزلت هذه الآية ﴿إنّما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾ قال رسول الله ﷺ: قوموا، فقاموا وأتوا المسجد، فإذا سائل خارج فقال: يا سائل ما أعطاك أحد شيئاً؟ قال: نعم هذا الخاتم، قال: من أعطاكه؟ قال: أعطانيه ذلك الرجل الذي يصلّي؛ قال: على أيّ حال أعطاك؟ قال: كان راكعاً، فكبّر النبي ﷺ وكبّر أهل المسجد، فقال النبيّ ﷺ عليّ وليّكم بعدي، قالوا: رضينا بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمّد نبيّاً وبعليّ بن أبي طالب وليّاً، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ومن يتولّ الله ورسوله والذين آمنوا فإنّ حزب الله هم الغالبون﴾[1].

وروي عن عمر بن الخطاب أنّه قال: والله تصدقت بأربعين خاتماً وأنا راكع لينزل فيّ ما نزل في عليّ بن أبي طالب فما نزل[2].

وقريب من ذلك روايات كثيرة أُخرى تظافر على نقلها أصحابنا الإمامية، مثل ما عن المفيد في الاختصاص[3]، والطوسي في أماليه ومجالسه[4]، والعياشي في تفسيره[5] والطبرسي في الاحتجاج[6] وغيرهم.

---

(١) الصدوق، محمد بن علي، الأمالي: ص١٨٦.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المفيد، محمد بن محمد، الاختصاص: ص٢٧٧.

(٤) الطوسي، محمد بن الحسن، الأمالي: ج٢ / ص١٦٢.

(٥) العياشي، محمد بن مسعود، تفسير العياشي: ج١ / ص٣٥٦ ـ ٣٥٧.

(٦) الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج: ج١ / ص٢١٣.

شبهات وردود

وهناك شبهات قد ترد على هذا التفسير لابدّ من ذكرها والإجابة عنها وهي:

الشبهة الأُولى:

إنّ الآية جاءت في سياق يتنافى وهذا التفسير، والسياق هو نهي المؤمنين عن تولّي اليهود والنصارىٰ والمسارعة إليهم، ولمّا كانت الولاية المنفية في هذا السياق هي ولاية النصرة والمعونة، لابدّ أن تكون الولاية المأمور بها في الآية التي بعدها وهي آية: ﴿إنّما وليّكم الله ورسوله...﴾ هي ولاية النصرة والمعونة أيضاً، فالآية السابقة رفضت ولاية منحرفة خاطئة، والآية اللاحقة طالبت بولاية مستقيمة صحيحة، والسياق يقتضي وحدة نوع الولاية المرفوضة مع الولاية المطلوبة، وبما أن الولاية المرفوضة هي ولاية المعونة والنصرة فالولاية المطلوبة لابد أن تكون كذلك.

وهنا جوابان على هذه الشبهة.

الجواب الأوّل: إنّ وحدة السياق بين الآيتين غير محرزة وغير أكيدة، ذلك أن جلّ الروايات الواردة في شأن نزول الآية تدل على أنها نزلت بنحو مستقل عمّا قبلها، فلا يمكن التعويل على السياق في تفسير الآية، ولو قلنا بوحدة السياق بينهما لزم من ذلك أن تكون ولاية النبي ﷺ ، هي ولاية نصرة ومعونة، وحيث لا يساعد الأدب القرآني على عدّ الرسول مجرّد ناصرٍ للمؤمنين، لكونه أعلى شأناً من ذلك، وأنّ تولّي المؤمنين له هو تولّي انقياد وتبعية، فلزم من ذلك أن تكون ولاية ﴿الذين آمنوا...﴾ المقرونة بولاية الرسول هي كذلك أعلى من

ولاية النصرة، وأن يكون تولّي المؤمنين لهم هو تولّي انقياد وتبعية، وليس ذلك إلّا الإمارة والحكومة.

الجواب الثاني: إنّنا حتى لو آمنّا بوحدة السياق بين الآيتين فإنّ التفسير المختار لا يخلّ بها، بل يتناسب معها تماماً، وذلك لأنّ الولاية المرفوضة في الآية السابقة، هي ولاية المؤمنين للكفّار، والولاية المطلوبة في الآية اللاحقة، هي ولاية الله والرسول والذين آمنوا، والولاية في الحالتين تعني القرب والدنوّ، حيث ذكرنا في ما سبق أنّ للولاية معنى واحد مشترك بين مصاديقها المختلفة يلازمه الاتّصال والتأثير. ومخالفة السياق إنّما تلزم إذا افترضنا....

الشبهة الثانية:

إنّ التفسير المختار للآية مبنيّ على أساس أنّ المقصود بـ ﴿الذين آمنوا﴾ هو الإمام عليّ بن أبي طالب‌؏ وهذا الأسلوب من التعبير خلاف الظاهر، لأنّ الظاهر من لفظ الجمع ﴿الذين آمنوا﴾ إرادة جماعة لا فرد واحد[١] .

والجواب: إنّنانميّز بين حالتين: حالة اطلاق لفظ الجمع وإرادة الواحد، وحالة إعطاء حكم كلّي أو الإخبار بمعرّف جمعي في لفظ الجمع، لينطبق على من يصح أن ينطبق عليه، وإن لم ينطبق هذا العنوان في الخارج إلّا على فرد واحد، ولم يجد له إلّا مصداقاً واحداً، واللغة ترفض الحالة الأُولى من الاستعمال ولا ترفض الحالة الثانية، التي هي حالة شائعة استخدمها القرآن مرات عديدة، ولم يحصل أن توقّف أحد من المفسّرين في أي منها، فلماذا ظهر التوقّف والإشكال في هذا المورد دون باقي الموارد؟ ومن تلك الموارد قوله تعالى:

---

(١) ذكر هذه الشبهة عدد من علماء السنّة، منهم صاحب تفسير المنار في ج٦ / ص٤٤٢.

﴿**يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة**﴾[١] في الآية السابقة على آية الولاية من سورة المائدة، حيث استخدم القرآن لفظ الجمع مع أنّ القائل ـ على ما رواه القوم ـ كان فرداً واحداً هو عبدالله بن أُبي، وكذلك هو المراد بقوله تعالى: ﴿**يقولون لئن رجعنا الى المدينة ليخرجنّ الأعزُّ منها الأذلّ**﴾[٢] وروي في قوله تعالى: ﴿**تلقون إليهم بالمودّة**﴾[٣] أنّ المراد بذلك هو طالب بن أبي بلتعة، وقد عدّ العلّامة الأميني في الغدير عشرين مورداً قرآنياً من هذا القبيل[٤] .

ومن جهة أُخرى يلاحظ أيضاً أنّ الروايات التي فسّرت الرواية بالإمام علي ﷺ ، قد رواها عرب أقحاح، ممّن لم تختلط لغتهم بلغات ولهجات غير عربية، ولو كان هذا الإشكال وارداً من الناحية اللغوية لالتفت إليه هؤلاء الرواة قبل غيرهم ، ممّن اختلطت ألسنتهم بألسنة غير العرب ولم يدركوا أساليب اللغة العربية بالدقّة التي كان عليها أُولئك الرواة.

وشيوع هذا الأُسلوب في اللغة العربية يغنينا عن التماس المبرّر لاستعمال القرآن الكريم له في هذه الآية، ومع ذلك من الممكن القول: بأنّ القرآن الكريم قد استعمل هذا الأُسلوب لدفع الأضغان، وما تضمره بعض النفوس من العداء لأميرالمؤمنين ﷺ ، فجاء بعنوان جمعي من شأنه إثارة الرجاء لدى الآخرين في تحقق الولاية لهم ، بالإتيان بما قام به الإمام علي ﷺ وإن كان القرار السماوي قد حصر الأمر بالإمام علي ﷺ دون سواه من صحابة الرسول، والذي يدرس

---

(١) المائدة: ٥٢.

(٢) المنافقون: ٨.

(٣) الممتحنة: ١.

(٤) الأميني، عبدالحسين، الغدير: ج٣ / ص١٦٣ ـ ١٦٧.

الوضع الاجتماعي والسياسي الذي كان سائداً آنذاك ومقدار ما كانت تضمره نفوس الأعداء من الضغينة والحقد للإمام علي عليه السلام، يدرك مدى مقبولية هذا التحليل تاريخياً.

الشبهة الثالثة:

إنّ الظاهر من الآية والمتبادر منها عند إطلاق وصف ﴿**إنّما وليّكم الله**﴾ هو فعلية هذا الوصف، وحينئذٍ لو فسّرنا الآية بولاية علي بن أبي طالب عليه السلام، فستكون النتيجة هي تحقّق هذه الولاية من حين صدور الآية، ولم يقل بذلك أحد، ولا يستطيع أن يقوله لأنّ الوليّ آنذاك هو الرسول صلى الله عليه وآله، فيلزم من ذلك أنّ الولاية المقصودة في الآية هي النصرة والمعونة، لا ولاية التدبير والحكومة.

وجواب هذه الشبهة في ملاحظة استخدام الآية للفظ المفرد: ﴿**إنّما وليّكم**﴾ وإعلانها عن أنّ الولاية تكون لثلاثة هم: الله، الرسول، الذين آمنوا، وكأنّها بصدد بيان منبع الولاية والحلقات المتسلسلة عنها، والمنبع هو الله سبحانه، والحلقة الأُولى النابعة عنه هي الرسول، والحلقة الثانية النابعة عن الرسول هي ﴿**الذين آمنوا**﴾، وحينما يكون المشرّع الحكيم في سياق من هذا القبيل لا يفهم من كلامه فعلية الولاية لكلّ الحلقات في آن واحد، بل الذي يتبادر الى ذهن السامع هو مفهوم عام عن الولاية، فاذا نظر الى الواقع الخارجي وأراد تطبيق ذلك المفهوم عليه نظر الى تسلسل الحلقات وفهم حينئذٍ أولوية الحلقة السابقة بأن تكون فعلية دون الحلقة اللاحقة، فاذا فقدت الحلقة السابقة تحوّلت الفعلية الى الحلقة اللاحقة، والحلقة السابقة هي ولاية الرسول صلى الله عليه وآله التي كانت قائمة في زمن صدور الآية، ومع تحقّق ولاية الرسول فعلاً تبقى ولاية: ﴿**الذين آمنوا**﴾ موقفاً

قانونياً مستقبلياً، لا فعلية له في زمن حياة الرسول ﷺ .

وبتعبير آخر: إنّ الله سبحانه فوّض الولاية للرسول وأُولي الأمر مع حفظ التسلسل والأولوية، ففي حياة الرسول ﷺ لا ولاية لأُولي الأمر، وإنّما تصبح ولايتهم نافذة وفعلية بعد وفاته ﷺ .

والآية وإن كان غرضها الواقعي هو الإشارة الى ولاية الإمام علي عليه السلام بعد النبيّ على نحو القضية الخارجية ـ كما بيّنا من قبل ـ إلّا أنّها صاغت بيانها الظاهري على نحو القضية الحقيقية لتحقيق مقاصد، ولعلّ من هذه المقاصد دفع الضغائن والأحقاد المضمرة في بعض النفوس على الإمام عليه السلام كما أسلفنا، ولعلّ من هذه المقاصد أيضاً دفع توهّم فعلية ولاية الإمام في زمن صدور الآية، لأنّ القضية الحقيقية غرضها بيان الضابطة القانونية، ولا تشترط تحقق موضوع هذه الضابطة في الخارج، وحيث إنّ موضوع ولاية عليّ بن أبي طالب عليه السلام لا تحقّق له في زمن الرسول ﷺ فلا يستظهر من الآية فعليّتها إلّا بعد وفاة الرسول، وتحقّق الموضوع الذي تنطبق عليه الضابطة القانونية.

وعلى أية حال، فمهما يكن السامع لكلام المشرّع الحكيم قليل الدراية، فإنّه مع ذلك لا يُتصوّر بحقّه أن يفهم من الآية ظهور ولايتين قانونيتين في زمن واحد ومكان واحد لزعيمين وقائدين اثنين، ولابدّ له من أن يستظهر الفعلية لواحدة منهما فقط، ولابدّ أن تكون تلك هي ولاية الرسول ﷺ .

الشبهة الرابعة:

إنّ اطلاق لفظ الزكاة على الصدقة المندوبة خلاف الظاهر، والتفسير

المختار للآية مبنيّ على أنّ الإمام عليﷺ قد تصدّق بالخاتم، وهي صدقة مندوبة لا تنسجم مع وصف الزكاة ﴿ويؤتون الزكاة﴾ المذكور في الآية.

وهذا الإشكال من أضعف ما قيل، لأنّ الزكاة المصطلحة في عرف المتشرعة والمتدينين إنّما هي اصطلاح مستحدث لم يجر عليه القرآن الكريم الذي استعمل الزكاة في معناها العام الذي هو مطلق الإنفاق في سبيل الله، وقد استعمل القرآن الكريم هذا اللفظ في هذا المعنى العام قبل تشريع الزكاة، المصطلحة كفريضة من الفرائض، فقال تعالى: ﴿وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دُمتُ حيّاً﴾[١] وقال تعالى: ﴿وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة﴾[٢]، ولا شك أنّ المقصود بالزكاة في هاتين الآيتين مطلق الإنفاق لوجه الله تعالى.

الشبهة الخامسة:

وقيل أيضاً: لو أنّ الآية تدل على ولاية الإمام عليﷺ لكانت وثيقة قانونية يستطيع أن يشهرها للاحتجاج على خصومه في كونه الأحقّ من غيره بالإمارة والحكومة، وقد ذكر الرازي في تفسيره هذه الشبهة فقال: «ولو كانت هذه الآية دالّة على إقامته لاحتجّ بها، وليس للقوم أن يقولوا إنّه ترك للتقية، فإنّهم ينقلون عنه أنّه تمسك يوم الشورى بخبر الغدير والمباهلة وجميع فضائله ومناقبه، ولم يتمسّك البتة بهذه الآية»[٣] .

وجواب هذه الشبهة: إنّ الآيات والأحاديث الدالّة على إمامة الإمام عليﷺ كثيرة جدّاً، والاحتجاج على الخصوم لا يستلزم الإتيان بكلّ تلك الآيات

---

(١) مريم: ٣١.

(٢) الأنبياء: ٧٣.

(٣) الفخر الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير: ج٦ / ص ٣١.

والأحاديث، ومن الممكن لصاحب الحق أن يحتج ببعض الأدلة ويستغني عن الباقي، وأهل المنطق وذوو الحجى يكتفون بدليل واحد إذا كان محكماً، بينما يكابر الكابرون حتى لو وضع أمامهم ألف دليل ودليل. وهذا أولاً.

وثانياً: إنّه ﷺ قد احتج بهذه الآية مراراً، فقد روى أصحابنا ـ رضي الله عنهم ـ في حديث مناشدته لأبي بكر أنّه قال: **«فأنشدك بالله، ألي الولاية من الله مع رسول الله في آية زكاة الخاتم أم لك؟ قال: بل لك»**[1] وفي حديث مناشدته يوم الشورى **«فهل فيكم أحد أتى الزكاة وهو راكع فنزلت فيه ﴿إنّما وليّكم الله...﴾ غيري؟ قالوا: لا»**[2] .

---

(١) البحراني، هاشم، غاية المرام: ص١٠٨ / حديث ١٦ عن ابن بابويه بإسناده عن أبي سعيد الوراق.

(٢) المصدر السابق: ص١٠٨ / ح١٧ نقلاً عن أمالي الشيخ الطوسي: ج٢ / ص١٦٢.

الفصل الخامس

الإمامة إمتداد للرسالة

آية التبليغ

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَابِ آمَنُوا وَٱتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ ٱلنَّعِيمِ* وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا ٱلتَّوْرَاةَ وَٱلإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِم مِن رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ* يَا أَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ وَإِن لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَافِرِينَ* قُلْ يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا ٱلتَّوْرَاةَ وَٱلإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِن رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُم مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفراً فَلاَ تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَافِرِينَ﴾

(المائدة: ٦٥ ـ ٦٨)



وآية التبلغ هي إحدى الآيات التي تناولت قضية الإمامة والولاية وأشارت الى مكانتها في التصوّر الإسلامي، وإذا أردنا التوصّل الى ذلك، فلابدّ من تسليط أضواء كاشفة على الآية وما قبلها وما بعدها.

على فرض اتّحاد آية التبليغ بسياق واحد مع الآيات الثلاثة الحافة بها، فإنّ المستفاد من مجموعها هو تذكير النبيّ ﷺ بأنّ أهل الكتاب لو أنّهم آمنوا واتّقوا وعملوا بما أُنزل إليهم من الأحكام، لنالوا السعادة في الدنيا والآخرة، أمّا سعادة الدنيا فوفرة النعم ونزول البركات من السماء، وأمّا سعادة الآخرة فمغفرة الله ورضوانه وجنّاته، إلّا أنّ أكثرهم لم يتّقوا ولم يؤمنوا وعملوا السيئات.

وفي هذا السياق تأتي آية التبليغ لتطلب من النبيّ ﷺ أن يقوم بتبليغ ما أُنزل إليه وعدم الاعتناء بضلال أهل الكتاب، ولا بالعقبات التي توضع في طريق الرسالة، الذي لا يُتوقع مجيء يوم عليه يكون فيه خالياً من تلك العقبات، فإذا استمر النبيّ ﷺ في الانتظار فسوف لن يجد الفرصة التي يراها مناسبة للتبليغ وستبقى بعض الأحكام بدون تبليغ، ولذا فإنّ عليه عدم الاعتناء بتلك العقبات، والاعتصام بقدرة الله تعالى، الذي ضمن له رجوع كيد الأعداء الى نحورهم وإبطال مؤامراتهم.

ثم يترقّى الخطاب الى مستوى الهجوم والتحدّي لأهل الكتاب، فتطلب الآيات الكريمة من النبيّ ﷺ أن يعلن لهم أنّهم لا يملكون شيئاً يبرّر لهم هذا التبجّح والغرور الذي هم عليه، وأنهم لن يحظوا بشيء حتى يقيموا التوراة والإنجيل، ويعملوا بما أُنزل إليهم من الله، ويدخلوا في الإسلام، ويؤمنوا بالنبوّة الخاتمة التي بشرت بها كتبهم.

وضمن هذا السياق يكون المراد بقوله تعالى: ﴿ما أُنزل إليك من ربّك﴾ هو الدين الإلهي والرسالة الإسلامية بمجموعها بلا نظر الى تشريع خاص وحكم معيّن، وقد يكون المراد به أمراً خاصاً ولكنّه ليس كباقي الأوامر والأحكام، وإنّما هو أمر ينطوي على خصوصيات فريدة بحيث لا تضمن مصلحة الرسالة ولا مستقبلها بدونه، فكأنّ تبليغه تبليغ لكلّ الرسالة وعدم تبليغه عدم تبليغ لكلّ الرسالة، ومن هنا جاءت خطورته، وحذّر النبيﷺ من أحابيل الأعداء وانتظاره الفرصة المناسبة للإعلان عنه، فجاءت آية التبليغ لتنهي حالة الانتظار والتردّد، وتزيل المخاوف والمحاذير، وتدعو النبيﷺ الى أن يصدع بهذا الأمر الفيصل بين الإيمان والنفاق، والذي يكرّس مركزية الأُمّة الإسلامية في العالم، وهامشية أهل الكتاب فيهن بوصف أنّ الدور التاريخي قد انتقل منهم الى هذه الأُمّة التي أصبحت مرشحة لوراثة الأرض، بوصفها الأُمّة الصالحة ذات المبدأ الصالح، قال تعالى: ﴿أنّ الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾[1].

وإذا لاحظنا أنّ آية التبليغ وما يحفّها من الآيات لم تكن أوّل ما نزل على الرسولﷺ عرفنا أنّ عنوان: ﴿ما أُنزل إليك من ربّك﴾ الوارد فيها لا ينطبق إلّا على تشريع متأخر لم يكن النبيﷺ قد بلّغه بعد، بل إنّها تدل على حكم يراد إعلانه كحكم أخير، سيكون به ضمان استمرار الرسالة ومستقبلها، كما هو المفهوم صراحةً من قوله تعالى: ﴿وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته﴾ حيث يدل هذا القول على أنّ النبيّ قد بلّغ الرسالة ولم يبق منها إلّا شيء به ضمان مستقبل الرسالة واستمرارها، ولذا فإنّ عدم تبليغ هذا الحكم سيعني عدم تبليغ أصل الرسالة، إذن فما هو هذا الحكم العظيم الذي له هذه الخصوصيات: خشية الرسولﷺ فيه من الناس وهو الذي لم يخش المشركين ولا أهل الكتاب،

---

(١) الأنبياء: ١٠٥.

وعدم تبليغ هذا الحكم يعني عدم تبليغ أصل الرسالة، وهو حكم جاء في أواخر حياة النبيﷺ. إنّ هذه الخصوصيات لا تنطبق على أحكام المواريث والقصاص والديّات والحدود وأشباهها، وتنطبق على مسألة الإمامة والخلافة التي قد تثير النزاعات الداخلية والعصبيات القبلية، ويخشى الرسولﷺ فيها من أُناسٍ ليسوا مشركين ولا من أهل الكتاب، وإنّما هم من صحابته وأعيان أمته، ويصدق بحقّها أنّ عدم تبليغ الحكم الإلهيّ فيها بمثابة عدم تبليغ أصل الرسالة، وهو أمر به يكمل الدين وتتمّ النعمة، وبدونه تندرس الشريعة وتخفى حقائق الرسالة.

وهكذا نتوصل الى مراد ودلالة آية التبليغ بناءاً على افتراض وحدة السياق بينها وبين الآيات، التي تحفّها من قبل ومن بعد، وأمّا بناءاً على انفراد آية التبليغ عمّا قبلها وبعدها فالأمر أظهر وأجلى من أن يحتاج الى عناية فكرية زائدة، وقد وردت روايات كثيرة متواترة بطرق الفريقين تؤكد ما استظهرناه من هذه الآيات[١].

روايات مدرسة الخلفاء

فمن طرق السنّة وردت روايات متظافرة عن سبعة نفر من الصحابة، وها نحن نوردها مع ذكر المصادر التي نقلتها، وهي:

---

(١) يمكن تأييد فرضية وحدة السياق، بأن الآية السابقة على آية التبليغ والآية اللاحقة لها اشتملتا على التنديد بأهل الكتاب واستنكار تركهم الأحكام الالهية وعدم تطبيق الكتاب، وهذا المعنى يدخل في صميم آية التبليغ بوصف أنّ هذه الآية تصدّت لتعيين الإمامة بعد النبيﷺ وبيان مستقبل عملية التطبيق الإسلامي، وتحديد الفرد الذي سيتولّى إقامة الكتاب في المسلمين بعد النبيﷺ ، وكأن الآيتين الحافتين بآية التبليغ أرادتا تحذير النبيﷺ ممّا حصل عند أهل الكتاب من عدم إقامة الأحكام الإلهية، وأن آية التبليغ بما تنطوي عليه من تعيين الفرد الذي سيتولّى إقامة الكتاب بعد النبيّ بمثابة الحلّ لهذه المشكلة. وهذا المعنى يؤكد الروايات التي فسّرت آية التبليغ بحادثة الغدير ولا يتنافى معها. «معدّ الكتاب».

١ ـ رواية زيد بن أرقم:

عن الحافظ أبي جعفر بن جرير الطبري في كتاب «الولاية في طرق حديث الغدير» عن زيد بن أرقم قال: لمّا نزل النبيّ ﷺ بغدير خمّ في رجوعه من حجّة الوداع، وكان في وقت الضحىٰ وحرّ شديد، أمر بالدوحات فقمّت، ونادى الصلاة جامعة، فاجتمعنا فخطب خطبة بالغة ثم قال: إنّ الله تعالى أنزل إليّ ﴿بلّغ ما أُنزل إليك من ربّك، وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته، والله يعصمك من الناس﴾ وقد أمرني جبرئيل عن ربّي أن أقوم في هذا المشهد وأُعلم كلّ أبيض وأسود أنّ عليّ بن أبي طالب أخي ووصيّي وخليفتي والإمام بعدي، فسألت جبرئيل أن يستعفي لي ربّي، لعلمي بقلّة المتقين وكثرة المؤذين لي واللائمين، لكثرة ملازمتي لعلي وشدّة إقبالي عليه، حتى سمّوني «أُذناً» فقال تعالى: ﴿ومنهم الذين يؤذون النبيّ ويقولون هو أُذن قل أُذن خير لكم﴾ [(١)] ولو شئت أن أُسميهم وأدلّ عليهم لفعلت، ولكنّي بسترهم قد تكرّمت، فلم يرض الله إلّا بتبليغي فيه.

فاعلموا معاشر الناس ذلك، فإنّ الله قد نصبه لكم وليّاً وإماماً، وقد فرض طاعته على كلّ أحد، ماضٍ حكمه، جائز قوله، ملعون من خالفه، مرحوم من صدّقه، اسمعوا وأطيعوا، فإنّ الله مولاكم وعليّ إمامكم، ثم الإمامة في ولدي من صلبه الى يوم القيامة، لا حلال إلّا ما أحلّه الله ورسوله، ولا حرام إلّا ما حرّم الله ورسوله، وما من علم إلّا وقد أحصاه الله فيّ ونقلته إليه، فلا تضلّوا عنه ولا تستنكفوا منه، فهو الذي يهدي الى الحقّ ويعمل به، لن يتوب الله على أحد أنكره، ولن يغفر له، حتماً على الله إن يفعل ذلك أن يعذّبه عذاباً نكراً أبد الآبدين.

فهو أفضل الناس بعدي ما نزل الرزق وبقي الخلق، ملعون من خالفه، قولي عن جبرئيل عن الله، فلتنظر نفس ما قدّمت لغد.

افهموا محكم القرآن ولا تتّبعوا متشابهه، ولن يفسّر ذلك لكم إلّا من أنا آخذ بيده، وشائل

---

(١) التوبة: ٦١.

بعضده، ومعلمكم أنّ من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه، وموالاته من الله عزّ وجلّ أنزلها عليّ. ألا وقد أدّيت، ألا وقد بلّغت، ألا وقد أسمعت، ألا وقد أوضحت، لا تحلّ إمرة المؤمنين بعدي لأحدٍ غيره، ثمّ رفعه الى السماء حتى صارت رجله مع ركبة النبيﷺ وقال: معاشر الناس، هذا أخي ووصيّي، وواعي علمي، وخليفتي على من آمن بي وعلى تفسير كتاب ربّي.

وفي رواية: اللهمّ والِ من والاه، وعادِ من عاداه، والعن من أنكره، واغضب على من جحد حقّه، اللهم إنّك أنزلت عند تبين ذلك في عليّ ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ بإمامته، فمن لم يأتمّ به وبمن كان من ولدي من صلبه الى القيامة فأولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون، إنّ إبليس أخرج آدم من الجنة مع كونه صفوة الله بالحسد، فلا تحسدوا فتحبط أعمالكم وتزلّ أقدامكم، في عليّ نزلت سورة ﴿والعصر إنّ الإنسان لفي خسر﴾ . معاشر الناس آمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزل معه من قبل أن نطمس وجوهاً فنردّها على أدبارهم أو نلعنهم كما لعنّا أصحاب السبت، النور من الله فيّ ثم في عليّ ثم في النسل منه الى القائم المهديّ، معاشر الناس سيكون من بعدي أئمة يدعون الى النار ويوم القيامة لا يُنصرون، وإنّ الله وأنا بريئان منهم، إنّهم وأنصارهم وأتباعهم في الدرك الأسفل من النار، وسيجعلونها ملكاً اغتصاباً، فعندها يفرغ لكم أيّها الثقلان، ويُرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران، الحديث[1] .

٢ ـ رواية أبي سعيد الخدري

عن ابن أبي حاتم وابن مردويه والواحدي النيسابوري بإسنادهم الى أبي سعيد الخدري أنّ الآية نزلت على رسول اللهﷺ يوم غدير خم في عليّ بن أبي طالبعليه السلام[2] .

---

(١) الأميني، عبدالحسين، الغدير: ج ١/ ص ٢١٤ ـ ٢١٦ نقلاً عن ضياء العالمين، وهو كتاب في الإمامة للمولى أبي الحسن العاملي «توفي حدود ١١٤٠ هـ» أحد تلامذة الشيخ المجلسي، نسخه موجودة في بعض مكتبات النجف الأشرف، أنظر الذريعة: ج ١٥ / ١٢٤.

(٢) الغدير: ج ١ / ص٢١٦، و ج ٥ / ص٢١٨ و ج٨ / ص٢٠٣ نقلاً عن الشوكاني في فتح القدير: ج ٢ / ص ٦٠.

٣ـ رواية ابن عباس

عن الحافظ أبي‌عبدالله المحاملي، بإسناده عن ابن عباس قال: لمّا أُمر النبي ﷺ أن يقوم بعليّ بن أبي‌طالب المقام الذي قام به فانطلق النبي ﷺ الى مكة فقال: **رأيت الناس حديثي عهد بكفر، بجاهلية، ومتى أفعل هذا به يقولوا صنع هذا بابن عمّه، ثم مضى حتى قضى حجّة الوداع، ثمّ رجع حتى إذا كان بغدير خم أنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يا أيها الرسول بلّغ ما أُنزل إليك من ربّك﴾** الآية، فقام منادٍ فنادى «الصلاة جامعة» ثم قام وأخذ بيد علي عليه السلام فقال: **من كنت مولاه فعليّ مولاه اللهمّ والِ من والاه وعادِ من عاداه**[1].

وروى الحافظ أبوبكر الفارسي الشيرازي في كتابه «ما نزل من القرآن في أميرالمؤمنين» عن ابن عباس إن الآية نزلت يوم غدير خمّ في عليّ بن أبي‌طالب[2].

٤ـ رواية جابر بن عبدالله الأنصاري

عن الحافظ الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل بإسناده عن ابن عباس وجابر الأنصاري قالا: أمر الله تعالى محمّداً أن يُنصّب علياً للناس فيخبرهم بولايته، فتخوّف النبي ﷺ أن يقولوا حابىٰ ابن عمّه وأن يطعنوا في ذلك عليه، فأوحى الله **﴿يا أيّها الرسول بلّغ ما أُنزل إليك من ربّك﴾** الآية، فقام رسول الله ﷺ بولايته يوم غدير خمّ[3].

---

(١) الغدير: ص٥٢، ص٢١٦.

(٢) المصدر السابق: ص٢١٦، ح ٤.

(٣) المصدر السابق: ص٢١٨ / ح ١٠، نقلاً عن مجمع البيان: ج٣ / ص٢٢٣، نقلاً عن شواهد التنزيل للحاكم الحسكاني: ج١ / ص٢٥٤.

٥ـ رواية البرّاء بن عازب

عن السيد علي الهمداني في «مودة القربى» عن البرّاء بن عازب قال: أقبلت مع رسول الله ﷺ في حجّة الوداع فلمّا كان بغدير خمّ نودي الصلاة جامعة. فجلس رسول الله ﷺ تحت شجرة وأخذ بيد عليّ وقال: **ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم قالوا:** بلى يا رسول الله فقال: **ألا من أنا مولاه فعليّ مولاه اللهمّ وال من والاه وعاد من عاداه،** فلقيه عمر قال: هنيئاً لك يا عليّ بن أبي طالب أصبحت مولاي ومولى كلّ مؤمن ومؤمنة، وفيه نزلت: ﴿**يا أيّها الرّسول بلّغ ما أنزل إليك من ربّك**﴾[1] .

٦ـ رواية أبي هريرة

عن شيخ الإسلام أبي إسحاق الحمويني في كتابه فرائد السمطين عن مشايخه الثلاثة برهان الدين إبراهيم بن عمر الحسني المدني والشيخ الإمام مجدالدين عبدالله بن محمود الموصلي، وبدر الدين محمد بن محمد بن أسعد البخاري، باسنادهم عن أبي هريرة أنّ الآية نزلت في عليّ عليه السلام[2] .

٧ـ رواية ابن مسعود

عن القاضي الشوكاني في تفسيره «فتح القدير» عن ابن مردويه عن ابن مسعود قال: كنّا نقرأ على عهد رسول الله ﷺ ﴿**يا أيها الرسول بلّغ ما أُنزل إليك من ربّك** ـ أن عليّاً مولى المؤمنين ـ **وإنّ لم تفعل فما بلّغت رسالته والله يعصمك من الناس**﴾[3] .

---

(١) الغدير: ٢٢٠ / ح١٧.

(٢) فرائد السمطين: ج ١ / ص١٥٨.

(٣) فتح القدير: ج ٢ / ص ٦٠.

روايات مدرسة أهل البيت

وردت عند أتباع هذه المدرسة روايات كثيرة جداً في هذا الباب أيضاً ننقل فيما يلي بعضها:

منها: ما رواه ثقة الإسلام الكليني عن زرارة والفضيل بن يسار وبكير بن أعين ومحمد بن مسلم وبريد بن معاوية وأبي الجارود جميعاً عن أبي جعفر قال: فأمر الله محمداً أن يفسّر لهم الولاية كما فسّر لهم الصلاة والزكاة والصوم والحج، فلمّا أتاه ذلك من الله ضاق بذلك صدر رسول الله وتخوف أن يرتدّوا عن دينهم وان يكذّبوه، فضاق صدره وراجع ربّه عزّ وجل فأوحى الله عزّ وجل إليه: ﴿ **يا أيها الرسول بلّغ ما أُنزل إليك من ربّك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته والله يعصمك من الناس** ﴾ فصدع بأمر الله ـ تعالى ذكره ـ فقام بولاية عليّ يوم غدير خم فنادى «الصلاة جامعة» وأمر الناس أن يبلّغ الشاهد الغائب[١].

ومنها: ما رواه الكليني أيضاً عن مولانا أبي عبدالله في حديث طويل قال: فلمّا رجع رسول الله من حجة الوداع نزل عليه جبرئيل فقال: ﴿ **يا أيّها الرسول بلّغ ما أُنزل إليك من ربّك، وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته، والله يعصمك من الناس، إنّ الله لا يهدي القوم الكافرين** ﴾ فنادى الناس فاجتمعوا وأمر بسمرات فقمّ شوكهنّ ثم قال: «**يا أيها الناس من وليّكم وأولى بكم من أنفسكم؟** فقالوا: الله ورسوله، فقال: **من كنت مولاه فعليّ مولاه اللّهمّ والِ من والاه وعادِ من عاداه** ـ ثلاث مرات ـ[٢].

---

(١) الكليني، محمد بن يعقوب. أُصول الكافي: ج١ / ص٣٤٩، وقد مضى تمام الحديث في الفصل السابق ص٧٨.

(٢) المصدر السابق: ج١ / ص٢٩٥ ح٣.

ومنها: ما رواه شيخنا الطبرسي في الاحتجاج مسنداً الى مولانا أبي جعفر الباقر عليه السلام في حديث طويل، قال فيه: فلمّا بلغ غدير خمّ قبل الجحفة بثلاثة أميال أتاه جبرئيل عليه السلام على خمس ساعات مضت من النهار بالزجر والانتهاء والعصمة من الناس، فقال: يا محمّد، إنّ الله عزّ وجل يقرئك السلام ويقول: ﴿**يا أيها الرسول بلّغ ما أُنزل إليك من ربك ـ في عليّ ـ وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته والله يعصمك من الناس**﴾ وكان أوائلهم قريباً من الجحفة فأمره أن يردّ من تقدّم منهم، ويحبس من تأخر عنهم في ذلك المكان، ليقيم علياً للناس ويبلّغهم ما أنزل الله في عليّ عليه السلام، وأخبره بأنّ الله عزّ وجل قد عصمه من الناس، فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله عندما جاءت العصمة منادياً ينادي في الناس «الصلاة جامعة» ـ الى أن قال ـ : وأُوذي ما أوحيَ إليّ حذراً من أن لا أفعل فتحلّ لي منه قارعة لا يدفعها عني أحد وإن عظمت حيلته، لأنّه قد أعلمني أنّي إن لم أُبلّغ ما أُنزل إليّ فما بلّغت رسالته، وقد ضمن لي تبارك وتعالى العصمة، وهو الله الكافي الكريم، فأوحى الله اليّ: ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الرسول بلّغ ما أُنزل إليك من ربّك ـ يعني في الخلافة لعليّ بن أبي طالب ـ وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته**﴾[١] .

ومنها: ما رواه العيّاشي في تفسيره بإسناده عن أبي صالح عن ابن عباس وجابر بن عبدالله قالا: أمر الله محمّداً صلى الله عليه وآله أن ينصب علياً للناس ليخبرهم بولايته، فتخوّف رسول الله صلى الله عليه وآله أن يقولوا: حابى ابن عمّه وأن يطعنوا في ذلك، فأوحى الله إليه ﴿**يا أيها الرسول بلّغ ما أُنزل إليك من ربّك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته والله يعصمك من الناس**﴾ فقام رسول الله صلى الله عليه وآله بولايته يوم غدير خم[٢] .

---

(١) الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج: ج ١ / ص٦٩.

(٢) البحراني، هاشم، غاية المرام: ص٣٣٦ / ح ٤، نقلاً عن تفسير العياشي: ج ١ / ص٣٥٧ ـ ٣٥٨.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفصل السادس

الإمامة إكمال الدين وإتمام النعمة

آية الإكمال

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَالدَّم وَلَحْمُ ٱلْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِٱلأَزْلاَمِ ذٰلِكُمْ فِسْقٌ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلإِسْلاَمَ دِيناً فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

(المائدة: ٣)



ومن الآيات التي عالجت موضوع الإمامة والولاية وأشارت إلى موقعها المتقدّم في النظرية الإسلامية، آية إكمال الدين التي نخصّص هذا الفصل لاستخلاص إيحاءاتها وعطاءاتها.

والظاهرة التي تلاحظ في هذه الآية قبل كلّ شيء، أنّ الآية اشتملت على ثلاثة مقاطع، تناول المقطع الأوّل اللحوم المحرّمة، وتناول المقطع الثاني الإشارة إلى بلوغ الدين مستوى الكمال، الذي يجعل الكفّار في يأس شديد من أن ينالوه بشيء، والمقطع الثالث فيه ترخيص بتناول اللحوم المحرّمة في حالة الاضطرار، أي أنّ المقطعين الأوّل والثالث مترابطان، والمقطع الوسط أجنبي عنهما.

وتوجد ثلاثة احتمالات لتفسير هذه الظاهرة: فإمّا أن نقول: إنّ الآية نزلت هكذا لحكمة معيّنة ومقاطعها الثلاثة هذه، وامّا أن يكون النبيّ قد أمر بوضع المقطع الوسط بين المقطعين الأوّل والثالث، وأنّ زمن نزول ذلك المقطع مختلف عن زمن نزول الصدر والذيل، وإمّا أن يكون الأمر قد حصل أثناء الجمع القرآني.

ومهما يكن من أمر فإنّ البحث كل البحث يقع في المقطع الوسط الذي يعلن يأس الكفار من الإسلام الذي بلغ أوج كماله وارتقائه، وأنّ ذلك اليأس والكمال قد حصل في يوم معين واحد،

وأنّ السبب في يأس الكفّار وإكمال الدين هو أمر واحد **﴿اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون، اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي**

ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ .

فما هو ذلك اليوم؟ وما حقيقة ذلك السبب؟

يوجد احتمالات لتفسير كلمة «اليوم» الواردة في الآية مرتين:

الاحتمال الأوّل:

أن يكون المقصود باليوم اليوم النوعي، كما يقول القائل:

«كنت شاباً بالأمس وأصبحت اليوم شيخاً»،

فإنّ اليوم والأمس في كلامه لا يدل على اليوم الفلكي الخاص المكوّن من «٢٤» ساعة، وإنّما يدل على زمان نوعي قد يمتدّ لعدة سنوات لكنها تحسب بنظر المتكلم يوماً، فالآية جارية وفقاً لهذا المعنى، وهي تريد أن تقول للمؤمنين: لماذا تخافون الكفار وقد أصبحوا في يأس من أمرهم وأصبح دينكم في ذروة كماله بحيث لا يتأثر بالضغوط والمؤامرات؟ وكأنّ المقصود باليوم هو المرحلة الزمنية التي يجتازها الدين، وقد أورد الرازي هذا الاحتمال في تفسيره[1]، لكنّه احتمال مردود لأسباب أربعة هي:

١- إنّ تفسير اليوم بالمرحلة أوالبرهة وإن كان عرفياً إلّا أنّه مبنيّ على أنّ الاستعمال كان مجازياً، ولا يمكن المصير إلى التفسير بالاستعمال المجازي ما لم نفرغ أوّلاً من التفسير بالاستعمال الحقيقي ونثبت عدم إمكانه، لأنّ الاستعمال الحقيقي مقدم رتبة على الاستعمال المجازي، وستأتي الروايات المنقولة عن الفريقين بكون المقصود يوماً بعينه، وأنّ الاستعمال حقيقي لا مجازي.

---

(١) الفخر الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير: ج ٦، ص ١٣٩.

٢- لو صحّ هذا التفسير لكان نزول المقطع الوسط من الآية: ﴿اليوم يئس...اليوم أكملت...﴾ في فترة فتح مكة أجدر وأولىٰ من نزوله في غيرها.

٣-إذا صحّ هذا التفسير فلازمه أن يكون الإكمال المقصود في الآية إكمال الشريعة، وحينئذ لابد من إثبات عدم نزول حكم تشريعي بعده، مع أنه قد وردت روايات كثيرة تدل على نزول أحكام بعد ذلك اليوم كآية الكلالة وآية الربا ونحوهما.

فالإكمال التشريعي أمر تأباه الروايات الكثيرة من قبل الفريقين، ولذا اختار الرازي في تفسيره[1] ما قاله القفّال من أنّ المقصود بالإكمال هو أنّ الشرائع النازلة من عند الله في كلّ وقت كانت كافية في ذلك الوقت، بينما أصبحت الشريعة الإسلامية في آخر البعثة النبوية كاملة إلى يوم القيامة، ولكن هذا القول لا يفهم له معنى تام، فقوله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم...﴾ ناظر إلى المسلمين دون سواهم وإلى الشريعة الإسلامية دون سواها، ولابدّ أنها كانت قبل اليوم المذكور ناقصة وأصبحت بعده كاملة تامة، فلا محصّل جديد من هذا القول.

٤- إنّ هذا التفسير يلغي الترابط بين ﴿اليوم يئس...﴾ وبين ﴿اليوم أكملت لكم...﴾ مع أنّ الترابط بينهما موجود محسوس.

الاحتمال الثاني: وهو أن يكون المقصود باليوم هو اليوم الفلكي المعروف المكوّن من «٢٤» ساعة، وحينئذ لابدّ أن نبحث عن يوم في الإسلام حصل فيه أمران متلازمان، أولهما يأس الكفّار من سقوط الدين الإسلامي أوالنيل منه، وثانيهما إكمال الدين وإتمام النعمة.

---

(١) الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير: ج ٦/ ص ١٤٠.

من الممكن أن يقال: إنّه يوم فتح مكة، لكن فتح مكة يتناسب مع الأمر الأوّل دون الثاني، وهكذا يتعيّن ما قالته مدرسة أهل البيت من أنّ اليوم المقصود هو يوم الغدير، الثامن عشر من ذي الحجة من السنة العاشرة للهجرة، الذي حصلت فيه ولاية أمير المؤمنين عليه السلام وتمّ نصبه خليفة على المسلمين بعد النبي صلى الله عليه وآله، ذلك أنّ الكفار وهم في حربهم المستمرّة مع الرسول صلى الله عليه وآله، قد حاولوا المحاولات تلو المحاولات ونفّذوا المؤامرات تلو الأُخرى للإطاحة بالإسلام والمسلمين، لكنها جميعاً باءت بالفشل الذريع فظل أصحابها يتربّصون الدوائر بالنبيّ صلى الله عليه وآله وأصحابه وينتظرون الفرص ويدبّرون ما يستطيعونه من الخطط، وعلّقوا آخر آمالهم على وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله، حيث صورت لهم أوهامهم انتهاء الرسالة الإسلامية بوفاة رائدها ورحيله عن هذه الدنيا، على غرار ما يحصل لبعض الثورات الاجتماعية والحركات السياسية، التي ينطبق عليها التعبير القرآني الشريف ﴿**إنّ شانئك هو الأبتر**﴾[1] أي لا مستقبل له ولا مصير.

هكذا تصوّر الأعداء الأمر، لكنّهم فوجئوا بالقيادة الإسلامية النبوية تعلن عن القيادة التي ستخلفها وستضمن استمرار الرسالة ومصير الأُمّة بعدها، وتكشف عن أنّ انتهاء عهد النبوّة لا يعني انتهاء الرسالة وإنّما يعني ظهور مرحلة جديدة هي مرحلة الإمامة التي ستواصل المسؤولية بعد النبي صلى الله عليه وآله، الأمر الذي أسقط ما في أيدي الأعداء وألقىٰ بهم في وهدة اليأس من أن يقوموا بشيء مؤثّر في واقع الرسالة، ولاشك أنّ هذا الإجراء التأريخي يمثل ارتقاءاً نوعياً رفيعاً في واقع الرسالة الإسلامية، بحيث لايمكن لنا تصوّر الكمال فيها

---

(١) الكوثر: ٣.

بدونه، وأيّ كمال لرسالة خاتمة لا تضمن مستقبلها ومصيرها بإجراء أكيد وخطوة حتمية؟ وأيّ خطوة أوإجراء أضمن لمستقبل الإسلام من الإعلان عن خط الإمامة كمرحلة جديدة في سير الرسالة، وأنّ هذا الخط سيأخذ على عاتقه مسؤولية تجذير وترسيخ التجربة النبوية وصدّ الأخطار المحدقة بها؟

وهكذا تكون الإمامة السبب المشترك لأمرين متلازمين هما يأس الكفار وإكمال الدين، وهو ما حصل يوم الغدير.

وواضح أنّ هذا التفسير لايرد عليه أيّ اشكال، بل هو يتطابق مع العقل والنقل معاً، ويكفي لإثبات صحة هذا التفسير استفاضة الروايات الدالّة عليه من طرق الشيعة، بل وتوفّر روايات دالة عليه من طرق السنّة أيضاً، ويمكن إثباته أيضاً بعدم وجود تفسير ناهض يكون بديلاً عنه، فقد ورد من طرق السنّة أنّ اليوم المقصود هو يوم عرفة من حجة الوداع بروايات تنتهي إلى الإمام عليّ عليه السلام ومعاوية وسمرة وعمر بن الخطاب، ونقل صاحب «الدرّ المنثور» وصاحب «روح البيان» روايتين من الروايات الدالّة على أنّ الآية نازلة في الغدير. لكنّهما وصفا الروايتين بالضعف السندي وهما تنتهيان إلى أبي هريرة وأبي سعيد الخدري[1].

مناقشات في ضوء العقل والواقع التأريخي

ولكي نثبت صحة التفسير الشيعي الغديري لآية الإكمال، لابدّ لنا من مناقشة الكلام السابق عن ضعف الروايات الدالة عليه، وما قيل من أنّ المراد

---

(١) السيوطي، عبدالرحمن بن أبي بكر، الدر المنثور: ج ٢ / ص ٤٥٧-٤٥٨، ولم أعثر عليها في تفسير روح البيان لإسماعيل حقي البروسوي، انظر ج ٢ / ص ٣٤٢-٣٤٥.

باليوم هو يوم عرفة.

والمناقشات هي:

١- إنّ الروايات الدالّة على أنّ المراد باليوم هو يوم الغدير لا تنحصر سنداً في من ذكره مؤلفا «الدر المنثور» و«الروح البيان»، فإضافة إلى أبي سعيد الخدري وأبي هريرة المذكورين رويت هذه الروايات عن زيد بن أرقم وجابر بن عبدالله الأنصاري وابن عباس ومجاهد والإمامين الباقر والصادق عليهما السلام بطرق عديدة.

٢- إنّ الروايات المنتهية إلى أبي هريرة وأبي سعيد الخدري صحيحة سنداً على موازين المدرسة السنّية في الحديث، وقد أثبت العلّامة الأميني ذلك.[١]

٣- إنّ الروايات الواردة في نزول الآية يوم عرفة من حجّة الوداع ورويت بطرق عديدة كلّها ضعيفة السند غير ما روى منها عن عمر، كما ذكر ذلك الاستاذ العلّامة الطباطبائي في تفسير الميزان[٢].

٤- إنّ الروايات الدالّة على أنّ آية الإكمال نازلة في قضية الغدير مؤيّدة بالروايات الواردة في تفسير آية ﴿**يا أيّها الرسول بلّغ ما انزل اليك...**﴾ كما مرّ سابقاً، ومؤيّدة كذلك بالروايات الواردة في سبب نزول قوله تعالى: ﴿**سأل سائل بعذاب واقع**﴾ حيث تتّحد هذه الآيات بكونها قد نزلت في قضية الغدير.

٥- وعلى فرض سلامة الاحتمالات غير الشيعية في تفسير آية الإكمال

---

(١) الأميني، عبد الحسين، الغدير: ج ١ / ص ٢٣٦، ص ٤٠١-٤٠٥.

(٢) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ٥ / ص ١٩٥.

من كلّ إشكال سندي أو تأريخي، فإنّ بالإمكان القول بأنّ هذه الاحتمالات مخالفة للكتاب، فيجب طرحها والأخذ بالروايات المؤيّدة للتفسير الشيعي بوصفه مؤيّداً من قبل الكتاب العزيز كآية التبليغ وآية **﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾**(١).

٦- إنّ ما احتمله الفخر الرازي من كون المقصود باليوم هو اليوم النوعي قد ورد النقض عليه سابقاً، ويردّ عليه - إضافة لما سبق - ما روي عن عمر بن الخطاب من أنّه قال له بعض أهل الكتاب: إنّ في القرآن آية لو نزلت علينا مثلها لاتّخذنا اليوم عيداً، وهي قوله تعالى: **﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾** فقال: «والله إنّي لأعلم اليوم الذي نزلت فيه على رسول الله ﷺ والساعة التي نزلت فيها، نزلت على رسول الله ﷺ عشية عرفة في يوم جمعة»(٢).

ذلك أنّ هذا الخبر صريح في أنّ المراد هو يوم معين مشخص.

٧- ولو أغمضنا النظر عن الإشكالات السابقة، وقلنا بصحة الروايات الدالّة على نزول الآية في غير يوم الغدير، فمن اللازم حينئذ ملاحظة قواعد التعارض بين الأخبار، وليس من النهج العلمي الموضوعي التزام أحد الجانبين المتعارضين دون الآخر ما لم يكن ذلك ناتجاً عن تطبيق تلك القواعد.

٨- وأخيراً يمكن أن يقال بإمكان الجمع بين الطائفتين من الروايات وذلك بوجهين:

الوجه الأوّل:

ما قاله سبط ابن الجوزي من نزول الآية مرتين(٣)، وليس هذا بدعاً

---

(١) المعارج: ١.

(٢) الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير: ج٢ / ص ١٢.

(٣) سبط بن الجوزي، تذكرة الخواص: ص ٣٥.

في الآيات، وكم له من نظير؟ وقد جمع العلاّمة الأميني ﷺ الآيات النازلة مرّتين لدى بحثه في آية ﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾[1] .

الوجه الثاني:

ما قاله العلاّمة الأميني وسدّده العلاّمة الطباطبائي من احتمال الاختلاف بين يوم النزول ويوم التلاوة[2]، على أساس أنّ النبيّ ﷺ كان يتّقي الناس في إظهار أمر الولاية خشية أن لا يتلقّوه فيختل أمر الدعوة، أو تقع الفرقة والاختلاف في الأمّة الإسلامية، فكان لا يزال يؤخّره من يوم إلى يوم منتظراً ستوح الفرصة المناسبة حتّى نزل قوله تعالى: ﴿يا أيّها الرسول بلّغ ما انزل إليك من ربّك﴾، وبهذا يكون من الجائز نزول معظم السورة، ومنه قوله تعالى: ﴿اليوم يئس الذين كفروا﴾ إلى قوله: ﴿ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ في يوم عرفة، إلّا أنّ النبيّ ﷺ أخّر بيان الولاية إلى يوم غدير خم.

وعليه، فيرتفع التعارض بين الطائفتين من الروايات، بأن يكون ما دلّ على نزول الآية يوم عرفة ناظراً إلى يوم النزول، وما دلّ على أنّ المراد هو يوم غدير خم ناظراً الى يوم التلاوة والتبليغ، وتكون الآية منطبقة على أمر الولاية وحاكية عنه على كلّ حال.

وحقيقة الأمر أنّنا إذا تدبّرنا قوله تعالى: ﴿يا أيّها الرسول بلّغ ما انزل إليك من ربّك﴾ والروايات الواردة في سبب نزوله، وتأملنا قول تعالى: ﴿اليوم يئس الذين كفروا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ والروايات الواردة في سبب

---

(١) الأميني، عبدالحسين، الغدير: ج١ / ص ٢٥٥ ٢٥٧.

(٢) الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان: ج٦ / ص ٤٨.

نزوله والتعارض الذي يتراءى فيها، ولاحظنا أيضاً الروايات الواردة في قضية غدير خم الكبرى ،وركّزنا على الأوضاع الداخلية للمجتمع الإسلامي آنذاك، أي في أواخر عهد الرسول الاعظم ﷺ، ودور الكفّار ومؤامراتهم وحقدهم الذي تعبر عنه الآية الشريفة على لسانهم ﴿واذ قالوا اللهمّ إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب اليم﴾[1] .

حيث نجدهم يشكّكون في حقانية الولاية وربّانيتها، إلى حد أنّهم يفضّلون نزول العذاب عليهم من التسليم لعليّ ﷺ بالولاية، وهو منتهى العناد الذي تعبر عنه آية أُخرى هي ﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾[2] إذا لاحظنا كلّ هذه المؤشرات وتدبّرناها بدقّة وجدنا أنّ أمر الولاية كان قد نزل قبل يوم الغدير، وهذا ما يصلح شاهداً للجمع بين الطائفتين من الروايات، الطائفة القائلة بنزول آية الإكمال في يوم عرفة من حجّة الوداع، والطائفة القائلة بنزولها في يوم الغدير.

روايات المدرستين

أمّا الروايات التي وردت عن الفريقين والتي تفسّر آية الإكمال بقضية الغدير وولاية عليّ بن أبي طالب ﷺ، فمن طرق السنّة ما رواه إبراهيم بن محمد الحمويني بسنده إلى أبي هارون العبدي عن أبي سعيد الخدري: إنّ النبيّ ﷺ يوم دعا الناس إلى غدير خم، أمر الناس بما كان تحت الشجرة من الشوك فقمّ، وذلك يوم الخميس، ثم دعا الناس إلى عليّ ﷺ، فأخذ بضبعه فرفعها حتّى رأى الناس إلى بياض إبطه، ثمّ لم يفترقا حتّى نزلت هذه الآية ﴿اليوم أكملت لكم دينكم

---

(١) الأنفال: ٣٢.

(٢) المعارج : ١.

وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ .

فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر على إكمال الدين وإتمام النعمة ورضى الربّ برسالتي والولاية لعليّ ﷺ، ثم قال: اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله [١].

وقريب من ذلك رواية أُخرى رواها أبو نعيم الاصبهاني في كتابه «ما نزل من القرآن في عليّ»، وأبو سعد السجستاني في كتاب «الولاية»، والحاكم الحسكاني، وابن عساكر، وموفّق بن أحمد الخوارزمي في المناقب وغيرهم [٢].

ومنها: ما عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ أنّه قال: من صام يوم ثمان عشر من ذي الحجّة كتب له صيام ستين شهراً، وهو يوم غدير خم لمّا أخذ النبي ﷺ بيد علي بن أبي طالب فقال: ألست أولى بالمؤمنين، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: من كنت مولاه فعليّ مولاه، فقال عمر بن الخطاب: بخ بخ يا ابن أبي طالب أصبحت مولاي ومولى كلّ مسلم، فانزل الله: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ [٣] .

ومنها: ما عن جابر الانصاري وأبي سعيد الخدري قالا: لمّا نزلت ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ الآية، قال النبيّ ﷺ: الله أكبر على إكمال الدين وإتمام النعمة ورضى الربّ برسالتي وولاية عليّ بن أبي طالب بعدي [٤].

وأمّا ما ورد عن الشيعة فروايات كثيرة، منها ما عن الصادقين ﷺ : أنّه أنزل

---

(١) البحراني، هاشم، غاية المرام: ص ٣٣٧ / ح ٢، نقلاً عن الحمويني في فرائد السمطين: ج ١ / ص ٧٣.

(٢) الأميني، عبدالحسين، الغدير: ج ١ / ص ٢١٨-٢٣٤، انظر شواهد التنزيل للحسكاني: ج ١ ص ٢٠٠ ـ ٢٠٨، والمناقب للخوارزمي: ص ٨٠.

(٣) الغدير: ج ١ ص ٢١٢-٢١٣.

(٤) المصدر السابق / ص ٢١٤.

الله بعد أن نصب النبيّ ﷺ علياً عليه السلام علماً للأنام يوم غدير خم عند منصرفه من حجّة الوداع.

قالا: وهي آخر فريضة أنزلها الله لم ينزل بعدها فريضة[١]، وقريب منه سائر ما رواه البحراني في هذا الباب عن عليّ بن إبراهيم القمّي[٢] والطبرسي[٣] والعياشي[٤] في تفاسيرهم، والطوسي في أماليه[٥] والطبرسي في الاحتجاج[٦] وابن بابويه في أماليه[٧] وغيرهم.

ومنها: ما رواه في «الخصائص» عن الصادقين عليهما السلام قالا: **نزلت هذه الآية - يعني آية التبليغ - يوم الغدير، وفيه نزلت ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ قال: وقال الصادق عليه السلام: أي اليوم أكملت لكم دينكم بإقامة حافظة، وأتممت عليكم نعمتي أي بولايتنا، ورضيت لكم الإسلام ديناً أي تسليم النفس لأمرنا**[٨].

ومنها: ما رواه في «الكافي» عن أبي جعفر عليه السلام في حديث: **وكانت الفريضة تنزل بعد الفريضة الأُخرى، وكانت الولاية آخر الفرائض فأنزل الله عزوجل: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي﴾، قال أبو جعفر عليه السلام: يقول الله عزوجل: لا أنزل عليكم بعد هذه فريضة، قد أكملت لكم الفرائض**[٩].

وقد مرّ تمام الحديث في ذيل البحث في آية الولاية.

---

(١) البحراني، هاشم، غاية المرام: ص ٣٣٨ / ح ٩.

(٢) القمي، علي بن إبراهيم، تفسير القمي: ج ١ / ص ٤٦٩.

(٣) الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان: ج ٣ / ص ١٥٩.

(٤) العياشي، محمد بن مسعود، تفسير العياشي: ج ١ / ص ٣٢١-٣٢٢.

(٥) الطوسي، محمد بن الحسن، الأمالي: ج ١ / ص ٢٠٨.

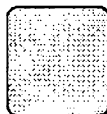
(٦) الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج: ج ١ / ص ٦٩-٨٤.

(٧) القمي، محمد بن علي، الأمالي: ص ٤٣٦ - ٤٣٧.

(٨) الأميني، عبدالحسين، الغدير: ج ١ / ص ٢١٤.

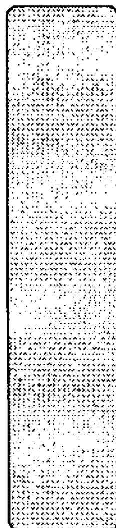
(٩) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١ / ص ٣٤٩ / ح ٤.





الفصل السابع

الإمامة لمن عنده علم الكتاب



آية علم الكتاب

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ ٱلْكِتَابِ ﴾

(الرعد: ٤٣)



وآية علم الكتاب هي الأُخرى عالجت جانباً من موضوع الإمامة، وأشارت إلى بُعد من أبعادها، فهذه الآية المباركة جعلت خاتمة لسورة الرعد المكيّة، والمعروف عن السور المكيّة أنّها تتعرّض إلى شبهات الجاحدين والمعاندين، الذين يكابرون في الحقّ ويتعامون عن الآيات الواضحة ويستخدمون شتى الأساليب لتبرير إنكارهم وعنادهم، منها أُسلوب طرح المطاليب والاقتراحات التي يتصوّرونها تعجيزية، كما في قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿**وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه**﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿**ويقول الذين كفروا لولا انزل عليه آية من ربّه**﴾[2].

ومن الواضح أنّ طرحهم هذه الاقتراحات لم يكن ناشئاً من رغبة حقيقة في الوصول إلى الحقّ، لأنّ الحجج والآيات والأدلة التي أقامها النبيّ ﷺ على حقّانية نبوّته لم تكن قليلة، بل كانت كثيرة وكافية، وإنّما كانوا يهدفون من وراء ذلك توجيه ضغوط نفسية على النبيّ ﷺ وإثارة التشكيك والاستهزاء بكلامه، وحتّى لو كانت تلك الاقتراحات تنفذ لهم فسيفسّرونها بالسحر وأمثال ذلك مما تكرّر منهم اتهام النبيّ ﷺ به.

---

(١) الإسراء: ٩٠ و٩٣.

(٢) الرعد: ٧.

وفي مجال الردّ عليهم اتّخذ القرآن عدّة أساليب، منها ثلاثة أساليب معروفة هي:

الأوّل: تلقين الرسول ﷺ بالردّ عليهم بأنّ ﴿الله يضلّ من يشاء ويهدي إليه من أناب﴾(١) . متعجباً من موقفهم المعاند المكابر بعد كلّ هذه الآيات الساطعة، التي قدّمها الرسول ﷺ لهم وكفى بالقرآن وحده آية قاطعة لاتقبل الجدل والردّ، فإذا كانوا يجحدون بكلّ هذه الأدلّة فبأيّ دليل بعدها يؤمنون؟!!

وواضح أنّ هذا الجواب والأُسلوب في الردّ يتضمّن نوعاً من الاستهانة بهم وبشأنهم، فكأنّما النبي ﷺ يقول لهم: إنّكم لستم بالشأن الذي تكون هدايتكم نافعة لي أوضلالتكم ضارة بي، وإنّ موقفكم هذا غرور وعناد وليس فيه من التعقّل شيء.

الثاني: تلقين الرسول ﷺ في أن يقول في جواب اقتراحاتهم تلك:

﴿قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم، إنّه كان بعباده خبيراً بصيراً﴾(٢) .

وهو الآخر أُسلوب ينطوي على تثبيت لقلب النبي ﷺ ورفع لمعنوياته واستهانة بشأن الكفّار وعنادهم، فإذاكان الله تعالى هو الشهيد الشاهد على حقّانية النبيّ ﷺ وصدق دعوته، فما الذي يضرّه من جحود الجاحدين وإنكار المكابرين؟ وعلى غرار ذلك جاء قول الفرزدق في جواب هشام بن عبد الملك عندما تظاهر بتجاهل شخصية الإمام زين العابدين ؛ في قصيدته الميمية

---

(١) الرعد: ٢٧.

(٢) الإسراء: ٩٦.

المعروفة التي منها قوله:

وليس قــولك مــن هــذا بضائره   العرب تعرف من أنكرت والعجم

الثالث: تلقين الرسول ﷺ أن يطلب منهم - تبكيتاً لهم - أن يتدبّروا آيات الله الماثلة في كلّ ذرّة من ذرّات هذا الكون الفسيح، ويفكّروا في نعمه الغامرة للمخلوقات، ثمّ يتحدّاهم بأن يأتوا بمثل معجزته الخالدة، حيث يقول تعالى: **﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾**(١).

وعندما ننظر في آية علم الكتاب نجدها تستخدم الأُسلوب الثاني في مواجهة جحود الجاحدين وإنكار المكابرين، وهو أُسلوب تسلية النبيّ وتشديد عزيمته والاستهانة بخصومه.

فلقد كان النبيّ ﷺ بحاجة ماسّة إلى زخم سماوي متواصل يتعبأ به في مواجهة تحديات الخصوم التي كانت تملأ نفسه ضيقاً وألماً وأسفاً، رغم ما كان يتّصف به من سعة الصدر والاستعداد المثالي لتحمّل المشاق والمصاعب، فقد كانوا ينسبون إليه السحر والجنون محاولة منهم الفتّ في عضده واضعاف عزم التابعين له، ثم راحوا يكذّبونه ويستخّفون به محاولين ممارسة الضغط النفسي عليه وإيذاءه لعلّه ينهار غمّاً وحزناً، ولذا كثيراً ما نجد القرآن الكريم يحاول تسلية النبيّ ﷺ ورفع الحزن عنه من هذه الجهة، قال تعالى: **﴿فلعلّك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً﴾**(٢)، وقال تعالى: **﴿لعلّك باخع نفسك ألّا**

---

(١) الاسراء: ٨٨.

(٢) الكهف: ٦.

يكونوا مؤمنين﴾[١] .

وقال تعالى: **﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾**[٢] .

وهذه الآيات الثلاث تكشف عن النفس الكبيرة التي كان يتحلّى بها الرسول الأعظم ﷺ فإنّه لم يكن يتألّم من تكذيبهم إيّاه وإيذائهم له، وإنّما كان ألمه النفسي الشديد بسبب كونهم يحرمون أنفسهم من نور الهداية الإلهية، ولعدم استفادتهم من فيض النبوّة وعطاء الرسالة، فكان ألمه لهم ومن أجلهم، فتأتيه التسلية الربانية السماوية لتقول له: بأنّك قد أدّيت ما عليك، وأنّ هؤلاء لا يستحقّون هذه الحسرات التي تؤلم نفسك بها عليهم، وأنّ الله سبحانه كفيل بنصر دينه، وأنّ تكذيب هؤلاء لك وعدم إيمانهم بنبوّتك لن يؤثّر بشيء في مصير الدين وحركة الرسالة، وإلى جانب ذلك كان القرآن يزيده عزماً على عزمه إصراراً على إصراره، عندما يقصّ عليه أنباء الرسل من قبله، وما حصل لهم من التكذيب وما جاءهم من النصر، قال تعالى: **﴿قد نعلم إنّه ليحزنك الذي يقولون فإنّهم لا يكذّبونك ولكنّ الظالمين بآيات الله يجحدون * ولقد كذّبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذّبوا وأُوذوا حتّى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله﴾**[٣].

وفي مقابل تكذيبهم كان القرآن الكريم يعطيهم الشهادة تلو الشهادة **﴿إنّك لمن المرسلين﴾**[٤] وهي شهادة عظمى لا تعدلها شهادة، ولا يضرّ معها جحود هؤلاء، بل جحود أهل الأرض أجمعين، قال تعالى: **﴿إن تكفروا أنتم ومن**

---

(١) الشعراء: ٣.

(٢) فاطر: ٨.

(٣) الأنعام: ٣٣-٣٤.

(٤) يس: ٣.

في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد﴾[١].

وآية علم الكتاب التي نحن بصددها من هذا النوع، فهي تنطوي على شهادتين على نبوة الرسول، شهادة الله سبحانه **﴿قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم﴾**[٢] وشهادة من عنده علم الكتاب **﴿..ومن عنده علم الكتاب﴾** وكفى الشهادة الثانية فضلاً وكرامة أنّها جاءت مقترنة بشهادة الله.

والملاحظ أنّ الآية لم تبيّن اسم الشهيد الثاني، وإنّما أشارت إلى وصفه بـ **﴿من عنده علم الكتاب﴾** ولعلّها تريد أن تشير من خلال ذلك إلى أنّ الفضل والكرامة والملاك ليست في الاسم والعنوان، وإنّما في الوصف والحقيقة التي ينطوي عليها ذلك الشهيد، ألا وهي (علم الكتاب).

وقد كشف القرآن الكريم في موضع آخر عن منزلة ومكانة هذا العلم، وهو قوله تعالى: **﴿قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفك﴾**[٣].

فتحدّث عن عمل عجيب خارق للعادة، وهو جلب عرش بلقيس من سبأ خلال أقل من ارتداد الطرف، قام به من **﴿عنده علم من الكتاب﴾**، فما أجلّ هذا العلم الذي يجعل الحامل للبعض منه بهذه الدرجة من الكرامة والمنزلة عند الله! وكيف ستكون درجة **﴿من عنده علم الكتاب﴾** الذي ذكرته الآية الشريفة؟ **﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذوالفضل العظيم﴾**[٤]

---

(١) ابراهيم: ٨.

(٢) الرعد: ٤٣.

(٣) النمل: ٤٠.

(٤) الحديد: ٢١.

من هو الذي عنده علم الكتاب؟

وهنا نتساءل عن الشخص المقصود بهذه الصفة؟ ومن هو الذي كان عنده علم الكتاب؟

يوجد اتجاهان في تفسير هذه الصفة، هما:

الأوّل:

يفسّرها بعلماء أهل الكتاب مثل: عبدالله بن سلام، وكأنّ الآية تجعل شهادة هؤلاء دليلاً على صحّة الرسالة الإسلامية، وحينئذ تكون على غرار قوله تعالى: ﴿**وشهد شاهد من بني إسرائيل**﴾[١] وقوله تعالى: ﴿**أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل**﴾[٢].

ويردّ على هذا التفسير: أنّ الآية وسواء أكانت نازلة في مكة أو المدينة فإنّ تفسيرها بأمثال عبدالله بن سلام خلاف الظاهر منها، فإنّ الآية مشعرة بنوع من المنزلة لصاحب هذه الصفة، وهذا الإشعار مستفاد من الاقتران بشهادة الله، وهو يتأكد عندما نجمع الآية مع آية ﴿**وقال الذي عنده علم من الكتاب**﴾، ولعلّ هذا التفسير نشأ من الخلط بين مفهوم ﴿**من عنده علم الكتاب**﴾ ومفهوم ﴿**أهل الكتاب**﴾، وهما مفهومان مختلفان لا اتّحاد بينهما، لاختلاف المقصود بالكتاب في كلّ منهما، فالكتاب المقصود في الآية هو القرآن، وابن سلام وأمثاله ليس عندهم علم القرآن، وسبب هذا الخلط ابتعاد أصحابه عن عدل الكتاب وهم

(١) الأحقاف: ١٠.

(٢) الشعراء: ١٩٧.

أهل البيت عليهم السلام الحاوون على علم الكتاب والقادرون على تفسيره - دون سواهم - الذين أمرنا بالرجوع إليهم في حديث الثقلين المتواتر لدى الفريقين **«إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي اهل بيتي، وانهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»**[١].

الثاني:

تفسيرها بالإمام عليّ عليه السلام والأئمة من بعده، وهو التفسير الوارد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، وحينئذ تكون صفة علم الكتاب من صفات الإمامة وملاكاتها المطلوبة في الإمام، وقد وردت روايات كثيرة تؤكّد على هذا التفسير، ومن طرق الفريقين.

فمن طرق السنّة ما رواه الفقيه ابن المغازلي الشافعي مسنداً عن عبدالله بن عطاء، قال: كنت عند أبي جعفر عليه السلام جالساً إذ مرّ عليه ابن عبدالله بن سلام، قلت: جعلني الله فداك، هذا ابن الذي عنده علم من الكتاب، قال: لا، ولكن صاحبكم عليّ بن أبي طالب الذي نزلت فيه آيات من كتاب الله عزّوجلّ: **﴿الذي عنده علم من الكتاب﴾**، **﴿أفمن كان على بيّنة من ربّه ويتلوه شاهد منه﴾** و**﴿إنّما وليّكم الله ورسوله والذين آمنوا﴾**[٢].

وأمّا من طرقنا فروايات متظافرة:

منها: ما رواه ثقة الإسلام الكليني محمد بن يعقوب في الصحيح عن بريد بن معاوية، قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام **﴿قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب﴾**؟ قال: إيّانا عنى، وعليّ أولّنا وأفضلنا وخيرنا بعد النبيّ صلى الله عليه وآله[٣].

---

(١) ابن المغازلي، علي بن محمد، المناقب: ص ١٣٤.

(٢) ابن المغازلي، علي بن محمد، المناقب: ص ٣١٤، وذكره صاحب غاية المرام في ص ٣٥٧ نقلاً عن ابن المغازلي.

(٣) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١ / ص ٢٨٧ / ح ٦.

ومنها: ما رواه أيضاً مسنداً عن سدير قال: كنت أنا وأبو بصير ويحيى البزاز وداود بن كثير في مجلس أبي عبدالله إذ خرج إلينا وهو مغضب، فلمّا أخذ مجلسه قال: يا عجباً لأقوام يزعمون أنّا نعلم الغيب! ما يعلم الغيب إلّا الله عزّوجلّ، لقد هممت بضرب جاريتي فلانة فهربت مني فما علمت في أيّ بيوت الدار هي، قال سدير: فلمّا أن قام من مجلسه وصار في منزله دخلت أنا وأبو بصير وميسر، وقلنا له، جعلنا فداك، سمعناك وأنت تقول كذا وكذا في أمر جاريتك، ونحن نعلم أنّك تعلم علماً كثيراً ولا ننسبك إلى علم الغيب.

قال: فقال: يا سدير، ألم تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قال: فهل وجدت في ما قرأت من كتاب الله عزّوجلّ ﴿قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك﴾؟

قال: قلت: جعلت فداك قد قرأته، قال: فهل عرفت الرجل؟ وهل علمت ما كان عنده من علم الكتاب؟ قال: قلت: أخبرني به؟ قال: قدر قطرة من الماء في البحر الأخضر فما يكون ذلك من علم الكتاب؟! قال: قلت: جعلت فداك ما أقلّ هذا، فقال: يا سدير ما أكثر هذا أن ينسبه الله عزّوجلّ إلى العلم الذي أخبرك به، يا سدير فهل وجدت فيما قرأت من كتاب الله عزّوجلّ ﴿قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب﴾؟

قال: قلت: قد قرأته جعلت فداك، قال: أفمن عنده علم الكتاب كلّه أفهم أم من عنده علم الكتاب بعضه؟ قلت: لا، بل من عنده علم الكتاب كلّه، قال: فأومأ بيده إلى صدره وقال: علم الكتاب والله كلّه عندنا، علم الكتاب والله كلّه عندنا[١].

---

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١ / ص ٢١٥ / ح ٣.

الفصل الثامن

الإمامة الشاهدة

آية البيّنة

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَـٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَاتَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَايُؤْمِنُونَ﴾

(هود: ١٧)



ومن الآيات التي تناولت قضية الإمامة وأشارت إلى خصائصها آية البيّنة الواردة في سورة هود، ومطلع الآية استفهام استنكاري ذكر فيه المبتدأ؟ وحذف الخبر، والمعنى: أنّه ليس من كان على بيّنة كغيره ممن ليس كذلك، فهي نظير قوله تعالى: ﴿أفمن كان على بيّنة من ربّه كمن زيّن له سوء عمله﴾[١] .

والبيّنة: هي الدلالة الواضحة، كما في المفردات للراغب الاصفهاني[٢]، وقد كثر استعمالها فيما يتبيّن به غيره كالحجّة والدليل، بسبب أنّ الأُمور الواضحة قد تكون سبباً لوضوح غيرها مما هو متعلّق بها، ولذا أطلق القرآن الكريم البيّنة على الآيات والبراهين ومعجزات الأنبياء، لكونها الدليل الفاصل بين الحقّ والباطل، كقوله تعالى: ﴿قد جاءتكم بيّنة من ربّكم هذه ناقة الله لكم آية﴾[٣] .

وقوله تعالى حكاية عن نوح ﷺ: ﴿أرأيتم إن كنت على بيّنة من ربّي وآتاني رحمة من عنده فعمّيت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون﴾[٤].

وقوله تعالى حكاية عن قوم هود ﷺ: ﴿قالوا يا هود ما جئتنا ببيّنة وما نحن بتاركي

---

(١) محمد: ١٤.

(٢) الاصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات: ص١٨.

(٣) الأعراف: ٧٣.

(٤) هود: ٢٨.

آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين﴾(١) .

وقوله تعالى حكاية عن صالح ﷺ: ﴿قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بيّنة من ربّي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته فما تزيدونني غير تخسير﴾(٢) وقوله تعالى حكاية عن موسى ﷺ: ﴿قد جئتكم ببيّنة من ربّكم فأرسل معي بني اسرائيل﴾(٣) وغير ذلك من الموارد القرآنية.

والبيّنة قد تكون عقلية ينتزعها الإنسان من عقله، وقد تكون آية ربانية.

والظاهر أنّها في المورد الذي نحن فيه إلهية، لأنّ وصف البيّنة بأنّها «من ربّه» يتناسب مع كونها ربانية لاعقلية، والمراد بها هو القرآن الكريم، المعجزة الإلهية الخالدة، والآية الربّانية الساطعة، وقد تكرّر في القرآن الكريم إطلاق البيّنة وإرادة الكتاب العزيز منها عدّة مرّات، منها قوله تعالى: ﴿قل إنّي على بيّنة من ربّي وكذّبتم به ما عندي ما تستعجلون به﴾(٤) وقوله تعالى: ﴿أوتقولوا لو أنّا انزل علينا الكتاب لكنّا أهدى منهم فقد جاءكم بيّنة من ربّكم وهدى ورحمة فمن أظلم ممن كذّب بآيات الله﴾(٥).

ومن هنا يظهر أنّ المراد باسم الموصول المذكور في مطلع الآية: ﴿أفمن كان على بيّنة﴾ هو الرسول الأعظم ﷺ لأنّه هو صاحب البيّنة المذكورة، وبإتضاح

---

(١) هود: ٥٣.

(٢) هود: ٦٣.

(٣) الأعراف: ١٠٥.

(٤) الأنعام: ٥٧.

(٥) الانعام: ١٥٧.

ذلك تصبح المعاني الأُخرى للآية واضحة أيضاً، فالضميران في قوله تعالى: ﴿ويتلوه شاهد منه﴾ يرجعان إلى اسم الموصول «من» أي إلى الرسول ﷺ مع احتمال أن يكون مرجع الضمير في «يتلوه» هو البيّنة.

والفعل «يتلو» مأخوذ من «التلو» لا «التلاوة»، وحينئذ يكون معنى الآية: من كان على بيّنة هي القرآن، ويتبعه بلا فصل شاهد منه أي من نفس النبي ﷺ، وفي هذا تشريف بيان لمنزلة الشاهد من جهتين: جهة موالاة الشاهد للنبيّ بحيث يكون تالياً له، وجهة التبعيض وكون الشاهد من نفس النبيّ ﷺ ومثل هذه المنزلة لا يمكن أن تنطبق إلّا على أوحدي من أُمّة الرسول ﷺ وصحابته، وليس بإمكان أحد أن يفسر الشاهد بأمثال عبدالله بن سلام.

قوله تعالى: ﴿أُولئك يؤمنون به﴾ أي أُولئك المؤمنون، وقد يكون المراد المؤمنين والشاهد وصاحب البيّنة، فتكون الآية بمثابة قوله تعالى: ﴿آمن الرسول بما أُنزل إليه من ربّه والمؤمنون...﴾[1].

وقد تكون الجملة في مقام تسلية النبيّ ﷺ عن طريق إخباره بأنّ أهل الكتاب يؤمنون به، نظير قوله تعالى: ﴿وكذلك أنزلنا اليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلّا الكافرون﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أُنزل اليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه﴾[3] وقوله تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلى

---

(١) البقرة: ٢٨٥.

(٢) العنكبوت: ٤٧.

(٣) الرعد: ٣٦.

عليهم قالوا آمنا به إنّه الحقّ من ربّنا إنّا كنّا من قبله مسلمين﴾[١].

قوله تعالى: **﴿فلاتك في مرية منه﴾** أي في شك منه، والمخاطب بهذا الخطاب هو النبيّ ﷺ، إلّا أنّه على نحو «إيّاك أعني واسمعي يا جارة»، فالمخاطب وإن كان هو النبيّ ﷺ إلّا أنّ المقصود بالخطاب هو سائر الناس، لعدم إمكانية نسبة الشك الى النبيّ ﷺ، وقد روى عبدالله بن بكير عن أبي عبدالله عليه السلام قال:«نـزل القرآن بإيّاك أعني واسمعي يا جارة»[٢].

ولهذه الآية نظائر في القرآن الكريم مثل قوله تعالى: **﴿أفغير الله أبتغي حكماً وهو الذي أُنزل اليكم الكتاب مفصّلاً والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنّه منزل من ربّك بالحقّ فلا تكونن من الممترين﴾**[٣] وقوله تعالى: **﴿فإن كنت في شك مما انزلنا اليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحقّ من ربّك فلا تكوننّ من الممترين﴾**[٤] وقوله تعالى: **﴿الحقّ من ربّك فلا تكوننّ من الممترين﴾**[٥] وقوله تعالى: **﴿الحقّ من ربّك فلا تكن من الممترين﴾**[٦].

معطيات الآية الكريمة:

ورغم البعد الظاهري عن موضوع الإمامة إلّا أنّنا إذا تدبّرنا الآية جيّداً وجدناها تنطوي على دلالات بالغة الأهمية بالنسبة إلى هذا الموضوع، وهي:

---

(١) القصص: ٥٢-٥٣.

(٢) الفيض الكاشاني، محمد محسن، تفسير الصافي: ج ١ / ص١٨ المقدمة الرابعة.

(٣) الأنعام: ١١٤.

(٤) يونس: ٩٤.

(٥) البقرة: ١٤٧.

(٦) آل عمران: ٦٠.

١- إنّ وصف الشاهد بأنّه من صاحب البيّنة - أي من الرسول الأكرم ﷺ كما هو البعض جزء من الكلّ - ينطبق على أهل البيت عليهم السلام المذكورين في آية التطهير، وهذا يتساوق مع ما جرى عليه خط النبوّات من جعل النبوّة والإمامة في نطاق نسبي متقارب.

٢- إنّ هذا الشاهد يأتي تلو الرسول، بل سيأتي في معطيات آية المباهلة أنّه بمنزلة نفس الرسول ﷺ، وقد مرّ في آية علم الكتاب أنّ شهادة هذا الشاهد تساوق شهادة الله سبحانه.

كلّ ذلك على فرض أن يكون الضمير في «يتلوه» راجعاً إلى صاحب البيّنة أي إلى الرسول ﷺ، أمّا لو كان الضمير راجعاً إلى البيّنة نفسها - أي إلى القرآن - فحينئذ يكون مضمون الآية مطابقاً لمضمون حديث الثقلين الذي جعل العترة عدلاً لكتاب الله ومفسّرة له.

٣- والشهادة هنا لابد أن تكون شهادة التأدية الناشئة عن مشاهدة سابقة لموضوع معين وحضور في الواقعة التي يراد الشهادة لها، أي أنّ أداء الشهادة يفترض مسبقاً تحمّل الشهادة، واختصاص الشهادة بفرد معيّن له تلك الخصوصيات «ويتلوه شاهد منه» يدل على أنّ التحمّل المقصود ليس ناشئاً عن مجرد الإيمان بالنبوّة، لأنّ هذا المعنى يشترك فيه الكثير من أتباع الرسول ﷺ، فلا بد أن يكون التحمّل المقصود هو الشهود لحقيقة النبوّة ورؤية جبرئيل حامل الوحي الذي كان يهبط على النبيّ ﷺ، وهو ما يمكن أن ينفرد به هذا الشاهد عن غيره، ويصحّح نسبة تلك الخصائص الرفيعة له.

وهذا المعطى الذي توصلنا إليه عبر الاستنتاج، يؤيده قول الرسول ﷺ

للإمام علي عليه السلام «انك تسمع ما أسمع وترى ما أرى» كما جاء في الخطبة القاصعة الواردة في نهج البلاغة[1] ، وما روي عن الصادق عليه السلام أنه قال: **كان علي عليه السلام يرى مع النبي صلى الله عليه وآله قبل الرسالة الضوء ويسمع الصوت.**

وقال له الرسول صلى الله عليه وآله: **«لو لا أني خاتم الانبياء لكنت شريكاً في النبوة»**[2].

٤- إن الغرض من الشهادة هو إزالة الريب والشك عن المدّعي، وهذا ما يتطلّب الثقة بنزاهة وضبط الشاهد لموضوع شهادته، ودرجة الثقة تتناسب تناسباً طردياً مع أهمية موضوع الشهادة، فكلّما كان ذلك الموضوع مهمّاً كلّما كانت الوثاقة المطلوبة في الشاهد أعلى حتى يصل الأمر الى أعظم درجات الأهمية وهو النبوّة والرسالة، فتكون الوثاقة المطلوبة بنزاهة وضبط الشاهد أقصى ما يمكن، وليست تلك الدرجة إلّا العصمة عن الخطأ والسهو والنسيان، وهكذا تثبت عصمة الشاهد.

٥- اذا جمعنا بين آية البيّنة وآية علم الكتاب، وجدنا أنّ الشاهد المذكور في الاولى هو نفس من عنده علم الكتاب المذكور في الثانية.

هذه خلاصة المعطيات التي يمكن استفادتها من الآية، وهي بلا شك ذات علاقة وطيدة بنظرية الإمامة في القرآن الكريم لإنطباقها على أئمّة أهل البيت عليهم السلام ، وكونها تتحدّث عن أبعاد وخصوصيات الإمامة فيهم.

---

(١) ميثم بن علي، شرح ابن ميثم: ج ٤ / ص ٣٠٧.

(٢) المصدر السابق: ص٣١٨.

الشاهد في روايات المدرستين

وتنطبق على هذا المعنى الذي توصّلنا إليه روايات كثيرة وردت من طرق الفريقين، ودلّت على أنّ الشاهد المقصود في الآية هو الإمام عليّ ﷺ.

فمما روي عن السّنة، ما رواه موفّق بن أحمد الخوارزمي، قال: كتب عمروبن سعد بن أبي العاص الى معاوية في ردّ مكاتبته إليه في طلبه الإعانة على قتال أميرالمؤمنين ﷺ، كتب إليه:

«من عمروبن سعد بن أبي العاص صاحب رسول الله ﷺ الى معاوية بن أبي سفيان، وقد علمت يا معاوية ما أنزل الله تعالى في كتابه فيه من الآيات المتلوات في فضائله التي لايشركه فيها أحد، كقوله تعالى: ﴿يوفون بالنذر﴾ و﴿إنّما وليّكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾، ﴿أفمن كان على بيّنة من ربّه ويتلوه شاهد منه ومن قبله﴾ وقد قال الله تعالى: ﴿رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ وقد قال الله تعالى لرسوله: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودّة في القربى﴾ وقد قال رسول الله ﷺ: **أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ سلمك سلمي وحربك حربي، وتكون أخي ووليّي في الدنيا والآخرة، يا أبا الحسن من أحبّك فقد أحبّني، ومن أبغضك فقد أبغضني، ومن أبغضني أدخله الله النار**، وكتابك يا معاوية الذي هذا جوابه ليس مما ينخدع به من له عقل أو دين، والسلام»[١].

ومنها: ما رواه الخوارزمي أيضاً قوله تعالى: ﴿أفمن كان على بيّنة من ربّه ويتلوه

---

(١) البحراني، هاشم، غاية المرام: ص٣٥٩ / ح ١، نقلاً عن المناقب للخوارزمي: ص١٢٩-١٣٠. باختلاف يسير.

شاهد منه﴾ قال ابن عباس: هو عليّ عليه السلام يشهد للنبيّ صلى الله عليه وآله وهو منه[١].

ومنها: ما عن الحمويني مسنداً عن زاذان قال: سمعت علياً عليه السلام يقول: **والذي فلق الحبّة وبرأ النسمة لو كسرت لي وسادة - يقول: ثنيت - فاجلست عليها لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم، وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم، وبين أهل الزبور بزبورهم، وبين أهل القرآن بفرقانهم، والذي فلق الحبّة وبرأ النسمة ما من رجل من قريش جرت عليه المواسي إلّا وأنا أعرف آية تسوقه الى جنّة أوتقوده الى نار، فقام رجل فقال: أيش[٢] نزل فيك؟ فقال عليّ عليه السلام: ﴿أفمن كان على بيّنة من ربّه ويتلوه شاهد منه﴾ فرسول الله صلى الله عليه وآله على بيّنة من ربّه، ويتلوه، أنا شاهد منه**[٣].

وقريب منه باختلاف يسير ما رواه الثعلبي عن السبيعي[٤].

ومنها: ما عن الحمويني أيضاً عن ابن عباس: **﴿أفمن كان على بيّنة﴾** رسول الله صلى الله عليه وآله **﴿ويتلوه شاهد منه﴾** عليّ عليه السلام خاصة[٥].

ورواه الثعلبي في تفسيره مسنداً عن ابن عباس[٦].

ومنها: ما رواه أبو نعيم الحافظ بثلاثة طرق عن عباد بن عبدالله الأسدي في

---

(١) البحراني، هاشم، غاية المرام: ص ٣٥٩ / ح ٢، نقلاً عن المناقب للخوارزمي: ص١٩٧ باختلاف يسير، حيث نقل عن ابن عباس قوله: إنّه هو عليّ عليه السلام أوّل من شهد للنبيّ صلى الله عليه وآله وهو منه.

(٢) يعني: أي شيء.

(٣) المصدر السابق: ص٣٥٩ / ح ٤، نقلاً عن فرائد السمطين: ج ١ / ص ٣٣٨-٣٣٩ باختلاف يسير عمّا هو مذكور هنا.

(٤) المصدر السابق: ص ٣٦٠ / ح ٩.

(٥) المصدر السابق: ص ٣٥٩ / ح ٣، نقلاً عن فرائد السمطين: ج ١ / ص ٣٣٨.

(٦) المصدر السابق: ص ٣٦٠، ح ٨.

خبر، قال: سمعت علياً عليه السلام يقول: **﴿أفمن كان على بيّنة من ربه ويتلوه شاهد منه﴾ رسول الله ﷺ على بيّنة من ربّه، وأنا شاهد.**

ورواه النظيري في الخصائص، وحماد بن سلمة عن ثابت عن أنس، والقاضي عثمان بن أحمد وأبو نصر العشير في كتابيهما، والفلكي المفسر عن مجاهد وعبدالله بن شدّاد(١).

وأمّا عن طرق الشيعة فروايات متظافرة أيضاً:

منها: ما عن محمد بن الحسن الصفار، عن محمد بن الحسين، عن عبدالله بن حماد، عن أبي الجارود، عن الاصبغ بن نباتة، قال: قال أميرالمؤمنين عليه السلام:

لو كسرت لي الوسادة فقعدت عليها لقضيت بين أهل التوراة بتوراتهم، وأهل الإنجيل بإنجيلهم، وأهل الفرقان بفرقانهم، بقضاء يصعد إلى الله يزهر، والله ما نزلت آية في كتاب الله في ليل أو نهار إلّا وقد علمت في من أُنزلت، ولا أحد مرّ على رأسه المواسي إلّا وقد نزلت آية فيه في كتاب الله تسوقه إلى الجنّة أوالنار، فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين فالآية التي نزلت فيك؟ قال: **أما سمعت الله يقول: ﴿أفمن كان على بيّنة من ربّه ويتلوه شاهد منه﴾؟**

فرسول الله ﷺ على بيّنة من ربّه، وأنا شاهد له منه، وأتلوه معه(٢).

ومنها: ما عن الشيخ في أماليه بإسناده عن أمير المؤمنين عليه السلام قام يوم الجمعة يخطب على المنبر فقال: **والذي فلق الحبّة وبرأ النسمة ما من رجل من قريش جرت عليه المواسي إلّا وقد نزلت فيه آية من كتاب الله عزّوجلّ أعرفها كما أعرفه.**

---

(١) غاية المرام: ص ٣٦٠ / ح ١١.

(٢) المصدر السابق: ص ٣٦١ / ح ٣.

فقام إليه رجل، فقال: يا أميرالمؤمنين، ما آيتك التي نزلت فيك؟

فقال: إذا سألت فافهم ولا عليك أن لا تسأل عنها غيري! أقرأت سورة هود؟

فقال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: أفسمعت قول الله عزّوجلّ يقول: ﴿أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه﴾؟

قال: نعم، قال: فالذي على بيّنة من ربّه محمدﷺ ويتلوه شاهد منه، وهذا الشاهد هو منه وهو عليّ بن أبي طالب، وأنا الشاهد، وأنا منه[١].

ومنها: ما عن الشيخ في مجالسه مسنداً عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه علي بن الحسين عن الحسنعليه السلام في خطبة طويلة خطبها بحضور معاوية وقالعليه السلام:

أقول: معشر الخلائق ولكم أفئدة وأسماع، وهو إنا أهل بيت أكرمنا الله بالإسلام واختارنا واصطفانا واجتبانا، فأذهب عنّا الرجس وطهّرنا تطهيراً، والرجس هو الشك، فلا نشك في الله الحقّ ودينه أبداً، وطهّرنا من كلّ أفن وعيبة مخلصين الى آدم نعمة منه، لم يفترق الناس فرقتين إلّا جعلنا الله في خيرهما، فأدّت الأُمور إلى أن بعث الله محمداً ﷺ للنبوّة واختاره للرسالة وأنزل عليه كتابه. ثم أمره بالدعاء إلى الله عزّوجلّ، فكان أبيعليه السلام أوّل من استجاب لله تعالى ولرسوله، وأوّل من آمن وصدّق الله ورسوله، وقد قال الله تعالى في كتابه المنزل على نبيّه المرسل: ﴿أفمن كان على بيّنة من ربّه ويتلوه شاهد منه﴾ فرسول اللهﷺ الذي على بيّنة من ربّه، وأبيعليه السلام الذي يتلوه، وهو شاهد منه[٢]- الخطبة.

---

(١) غاية المرام: ص ٣٦١ / ح٤. نقلاً عن أمالي الشيخ: ج١ / ص ٣٨١-٣٨٢.

(٢) غاية المرام: ص٣٦١ / ح٥ نقلاً عن أمالي الشيخ الطوسي: ج٢ / ص١٧٥.

ومنها: ما عن العياشي عن بريد بن معاوية العجلي عن أبي جعفر عليه السلام قال: الذي على بيّنة من ربّه رسول الله صلى الله عليه وآله، والذي تلاه من بعده الشاهد منه أميرالمؤمنين عليه السلام ثم أوصياؤه واحداً بعد واحد[1].

ومنها: ما رواه العياشي أيضاً عن جابر بن عبدالله بن يحيى قال: سمعت علياً عليه السلام وهو يقول: **ما من رجل من قريش إلّا وقد انزلت فيه آية أوآيتان من كتاب الله،** فقال له رجل من القوم: فما انزل فيك يا أمير المؤمنين؟

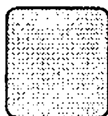
فقال: أما تقرأ الآية التي في هود ﴿أفمن كان على بيّنة من ربّه ويتلوه شاهد منه﴾؟ محمد صلى الله عليه وآله على بيّنة من ربّه، وأنا الشاهد[2].

---

(١) غاية المرام: ص٣٦٢ / ح٨ نقلاً عن تفسير العياشي: ج٢ / ص١٥٢.

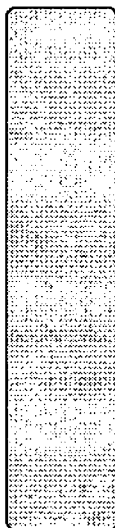
(٢) المصدر السابق: ص ٣٦٢ / ح ٩ نقلاً عن تفسير العياشي: ج٢ / ص١٥٣.





الفصل التاسع

الـولايـة الفاضلـة



آية المباهلة

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَاذِبِينَ﴾

(آل عمران:٦١)


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ومن الآيات ذات العلاقة بقضية الولاية آية المباهلة الواردة في قضية نصارى نجران ومحاجّتهم مع النبيّ ﷺ.

المحاجّة هي تبادل الحجّة، ويقصد بها إثبات المدّعى سواء كان دليلاً حقاً أومغالطة باطلة، وأمّا المباهلة فمأخوذة من الابتهال بمعنى الاسترسال في الدعاء والتضرّع، وقيل: إنها كلمة مأخوذة من البهلة أي اللعنة.

قصة المباهلة

إنّ آية المباهلة مسبوقة بقوله تعالى: ﴿**إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم...**﴾ الذي جاء لقطع حجّة النصارى وإبطال دعواهم بأنّ المسيح ابن الله، استناداً لكونه ﷺ قد ولد من غير أب، فالآية تقول لهم: بأنّ انعدام الأب لايدل على اُلوهيّة الابن، ولو كان الأمر كذلك لكان آدم أحق بالأُلوهيّة من السيد المسيح، إذ أنّ آدم ﷺ لم يكن مسبوقاً بأب ولا أمّ ومع ذلك لم يكن ابناً لله ولا متّحداً معه، وكذلك الأمر في عيسى بن مريم ﷺ، واضافة إلى كون هذه الحجّة وحياً إلهياً بالغ الدلالة فإنّها كانت أيضاً دليلاً عقلياً محكماً لإبطال تلك الدعوى، وإقناع أصحابها بعدم صحتها، لو كانوا يحظون بمسكة من التفكير وقدر من التعقّل الحرّ.

وبدلاً عن التراجع إلى الحقّ وحكم العقل ظلّ هؤلاء يصرّون على الخطأ

ويتشبثون بالجدل، فجاءت المباهلة كطريق أخير لإسكات صوتهم وإيقافهم عند حدّهم، ونزلت الآيات لتقول للنبيّ ﷺ بأن محاجّة هؤلاء إن استمرّت رغم هذا الدليل القاطع فأعرض عليهم المباهلة وتسليم الأمر لله سبحانه حتى يؤيّد الصادقين ويدحض الكاذبين.

وكان العرض نوعاً من التحدي واختبار الثقة والنوايا، وقد شكّل منعطفاً تأريخياً حاسماً في مسيرة الإسلام وصراعه مع الخصوم، وتأكيداً منها على التحدي واختبار مدى اطمئنان الطرف المقابل بدعواه، طلبت الآية من الطرفين إحضار الخواصّ من الأهل والأبناء، ليكون ذلك أدعى لتزلزل المرتاب وتراجعه من جهة، ويكون الصدق والثقة بالنفس والاطمئنان بالموقف عند النبيّ ﷺ بأجلى حالاته أمام الخصم من جهة أُخرى، بما قد يساعد على هزيمة الخصم قبل النزال.

وممّا يلاحظ في الآية أنّها قدّمت ذكر الأبناء والنساء على الأنفس وهي الخاصّة.

وذلك مزيداً من التحدي للخصم ومزيداً من البيان لشدّة الإطمئنان والثقة بالموقف، بحيث يبدي الاستعداد للتضحية بالأبناء والنساء قبل التضحية بالخاصّة، باعتبار أنّ الإنسان يعتني بحفظ أبنائه وتأخذه الغيرة على نسائه أكثر ممّا يعتني بخاصته.

وقد اتفقت الروايات وأطبق المفسّرون والمؤرّخون على أنّ الدعوة حينما تمّت ووافق النصارى عى ذلك حضر النبيّ ﷺ بنفسه، ودعا عليّاً

والحسن والحسين وفاطمة عليهم السلام للحضور فحضروا، ولم يدع غيرهم، وحينما نظر النصارى إلى هؤلاء الصفوة، تراجعوا عن المباهلة وأخذتهم الخشية على أنفسهم، واقترحوا أن يعطوا الجزية للنبيّ ﷺ فقبل النبيّ ذلك منهم.

دلالة الآية على فضل أهل البيت عليهم السلام

وليس هناك من شك في أنّ الآية تدل على منزلة رفيعة وفضل عظيم لأهل البيت عليهم السلام بحيث لايباهل النبيّ ﷺ خصومه في ظرف حرج وحساس للغاية إلّا بهم، و قد اعترف بذلك الفضل أكابر المفسّرين والمحدّثين من السّنة. فقد قال العلّامة الجصّاص في «أحكام القرآن»: «نقل رواة السير و نقلة الأثر - لم يختلفوا فيه - أنّ النبيّ ﷺ أخذ بيد الحسن و الحسين و عليّ و فاطمة - رضي الله عنهم - ثم دعا النصارى الذين حاجّوه إلى المباهلة، فأحجموا عنها، وقال بعضهم لبعض: إن باهلتموه اضطرم الوادي عليكم ناراً، و لم يبق نصراني ولا نصرانية إلى يوم القيامة»[1].

وقال الفخر الرازي في تفسيره بعد نقل رواية مماثلة في ذلك: «إعلم أنّ هذه الرواية كالمتفق على صحتها بين أهل التفسير والحديث»[2].

وقال في الكشاف: «فيه دليل لاشيء أقوى منه على فضل أصحاب الكساء عليهم السلام»[3].

و قال الآلوسي في «روح المعاني» بعد نقل الرواية: «و دلالتها على فضل

(١) الجصّاص، أحمد بن علي، أحكام القرآن: ج٢ / ص١٦.

(٢) الفخر الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير: ج٤ / ص ٨٩-٩٠.

(٣) الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف: ج١ / ص ٣٧٠.

آل الله و رسوله مما لايمتري فيها مؤمن، والنصب جازم الإيمان» الى أن قال: «والنواصب زعموا أنّ ما وقع منهﷺ كان لمجرد إلزام الخصم و تبكيته، و أنّه لايدل على فضل اولئك - على نبيّنا و عليهم أفضل الصلاة و أكمل السلام - وأنت تعلم أنّ هذا الزعم ضرب من الهذيان و أثر من مسّ الشيطان.

و ليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار الى دليل»[١]

إنّ دلالة الآية على فضل أهل البيتعليهم السلام و منزلتهم عند الله سبحانه أوضح من أن تحتاج إلى بيان و تقريب، لأنّ إشراكهم في المباهلة يعني إشراكهم في التحدّي، والاعتماد على منزلتهم عند الله سبحانه بحيث تكون موجبة لفضح الأعداء و نزول النقمة الإلهية عليهم، على غرار ما يحصل في المعارك الفاصلة عندما يقوم القائد بانتقاء أفضل أتباعه و تسليمهم المسؤوليات المهمة.

و من الملاحظ أنّ الآية استخدمت صيغة الجمع حينما دعت إلى المباهلة حيث طالبت بحضور ﴿أبناءنا و أبناءكم و نساءنا و نساءكم و أنفسنا و أنفسكم﴾.

وهذا يقتضي إحضار ما لايقل عن ثلاثة أفراد من كلّ عنوان، كما هو مقتضى صيغة الجمع، والشيء الذي أكّده التاريخ الصحيح و الحديث الصحيح أيضاً أنّ النبيّﷺ حينما قام بامتثال الأمر الإلهي اكتفى بإحضار الإمام عليّ والحسن و الحسين و فاطمةعليهم السلام و هذا يدل على أنّ هؤلاء كانوا يمثلون صفوة الأمة و أخصّ الخاصّة و أحب الخلق إلى قلب النبيّﷺ، حيث إنّه طبق عنوان الأبناء على الحسن و الحسينعليهما السلام و عنوان (نساءنا) على فاطمة الزهراء، وعنوان

---

(١) الآلوسي، روح المعاني: ج٣/ ص ١٩٠.

(أنفسنا) عليه و على أميرالمؤمنين عليه السلام مع أنّه كان بإمكانه أن يدخل زوجاته في عنوان (نسائه) و يدخل بعض صحابته في أفراد هذه العناوين؟ و أنّ هذه العناوين لاتنطبق على غيرهم في حسابات النبيّ صلى الله عليه وآله؟

إنّ المنطق السليم يستنتج من دخول السيدة الزهراء في عنوان (نساءنا) دون غيرها، و استبعاد زوجات النبيّ اللائي ربّما كنّ أقرب لغوياً إلى هذا العنوان من السيدة الزهراء، و من دخول الإمام عليّ في عنوان (أنفسنا) دون سواه من الصحابة، أنّ لهذه السيدة و ذلك الإمام فضلاً و منزلة بحيث يكونان بالدرجة الثانية من بعد النبيّ صلى الله عليه وآله في هذه الأُمة خاصة في انطباق عنوان «النفس» على الإمام عليّ عليه السلام و هو انطباق أكيد دلّت عليه الآية بصراحة، وأيّدته الروايات المروية بطرق الفريقين القائلة بأنّ الرسول صلى الله عليه وآله قال يوماً لعليّ:

«أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لانبي بعدي»[1] و قوله صلى الله عليه وآله: **«أنت منّي و أنا منك»**[2] و قوله صلى الله عليه وآله: **«عليّ نفسي فمن رأيته يقول في نفسه شيئاً؟»**[3].

و قد احتجّ الإمام عليّ عليه السلام بهذه الفضيلة يوم الشورى، واعترف القوم بها ولم ينكروا عليه ذلك، و لو كان هناك مجال للإنكار لأنكره المولعون بإنكار

---

(١) أنهى البحراني في غاية المرام الروايات الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله والمشتملة على هذه العبارة من طرق السنة الى مائة حديث و من طرق الشيعة الى سبعين حديثاً. غاية المرام: ص/١٠٩-١٥٢.

(٢) ذكره الترمذي في الجزء الخامس من سننه: ص ٦٣٦ هكذا «علي مني و انا من علي»، وذكره الحاكم في المستدرك: ج٣ / ص١٣٠ بالصورة المذكورة في المتن، وذكره في ص١١٩ هكذا«إنّ علياً مني و أنا منه» وقال: صحيح على شرط مسلم، و ذكره النسائي في سننه: ج٥ / ص ١٢٧، و ورد في صحيح البخاري: ج٤ / ص٢٢.

(٣) اللئالئ المصنوعة: ج ١ / ص١٩٨.

فضائله أمثال ابن تيمية الذي اعترف بصحّة الحديث القائل بأنّ نفس رسول الله ﷺ في الآية هو عليّ ؑ، إلّا أنّه حاول التقليل من شأن ذلك و عدم دلالته على مزيّة غير مزيّة القرابة، ثم التفت إلى أنّ هذه المزيّة مشتركة بينه و بين عمّه العباس، و أنّ العمّ أقرب من ابن العمّ، فلماذا اختار النبيّ ﷺ عليّاً و لم يختر العباس عمّه؟

ثم أجاب عن ذلك : بأنّ العباس لم يكن من السابقين الأولين و لا كان له به اختصاص كعليّ»[1] فاضطرّ إلى الاعتراف بأنّ الملاك في تنزيل الإمام عليّ بمنزلة نفس الرسول ﷺ ليس هو القرابة فقط، بل السبق إلى الإسلام والاختصاص بالنبيّ ﷺ، ثمّ إنّ المؤمن يتعبّد بالنصوص و ليس له شأن باستنتاج الملاكات والمناطات، و علينا باتّباع النصوص التي جعلت عليّاً بمنزلة نفس النبيّ ﷺ.

ثمّ إنّ دخول الأبناء والنساء في المحاجّة حول النبوّة والرسالة دليل على أنّ لهؤلاء شأناً في ذلك و مدخلية في أمر الرسالة، بحيث يشاركون النبيّ ﷺ في محاجّاته و مباهلاته و منعطفات حياته الحاسمة و المصيرية، و إذا جمعنا بين ذلك و بين آية ﴿ويتلوه شاهد منه﴾ الدالة على وجود شاهد من نفس النبيّ يتلوه في المرتبة و يشاركه في مهامّ الرسالة، اتّضح لنا نوع المدخلية والشأن الذي كان لأهل البيت ؑ في أمر المباهلة، و هو ما يتأكّد أكثر عندما نلاحظ قوله

(١) ابن تيمية، أحمد عبدالحليم، منهاج السّنة النبوية: ج ٤ / ص ٣٤-٣٥.

تعالى: ﴿قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا و من اتّبعني﴾[١].

و تؤيّده الروايات الواردة في ذلك، و يقتضيه إطلاق التنزيل في قوله ﷺ لعلي عليه السلام: «**أنت مني بمنزلة هارون من موسى**».

كما أنّ قوله تعالى في ذيل آية المباهلة: ﴿**فنجعل لعنة الله على الكاذبين**﴾[٢].

يراد به الكاذبون المفترض وجودهم في أحد طرفي المحاجّة والمباهلة، ومقتضى صيغة الجمع -الكاذبين- أن يكون المدّعي في كلا الجانبين أكثر من واحد و إلّا لكان حقّ الكلام أن يقال مثلاً: «فنجعل لعنة الله على من هو كاذب» حتى يصحّ انطباقه على الفرد أيضاً .

و حينما يتمثّل الطرفان كلّ منهما في جماعة فلابدّ أن يكون الأمر الدائر في كلّ جماعة أمراً مشتركاً بين أفراد الجماعة بنحو من الاشتراك، و حيث كان النصارى المباهلون للنبيّ ﷺ يشارك بعضهم بعضاً في إنكار الرسالة الاسلامية والبعثة المحمدية فلابدّ أن يكون الحاضرون مع النبيّ ﷺ في المباهلة مشاركين له بنحو ما في أمر الرسالة. و هذه المشاركة هي التي أوجبت انتخابهم وحضورهم إلى جانبه في المباهلة، ولابدّ أن تكون المشاركة نوعاً أرفع من مجرّد الإيمان بالإسلام واتّباع النبيّ ﷺ لأنّ هذا المعنى ليس خاصّاً بأهل البيت عليهم السلام الذين يدل حضورهم في المباهلة على مواقع نوعية ممتازة على صعيد الرسالة الاسلامية، و ليست تلك إلّا مواقع الإمامة، و هذا ما نبه عليه الاستاذ العلّامة الطباطبائي رحمه الله[٣].

---

(١) يوسف: ١٠٨.

(٢) آل عمران: ٦١.

(٣) الطباطبائي، محمدحسين، تفسير الميزان، ج ١ / ص ٢٢٣.

شبهة ورد

و لو أغمضنا النظر عن هذا التفسير فإنّ الروايات الواردة بشأن الآية بلغت من الصحّة مبلغاً قليلاً ما يتّفق لحادثة تأريخية معينة بحيث لم يرد تشكيك فيها من قبل أيّ من أعلام الأمّة، حتى قال الزمخشري:«فيه دليل ليس أقوى منه على فضل أصحاب الكساء» و جعل الآلوسي إنكار ذلك ضرباً من الهذيان و أثراً من مسّ الشيطان، و قال: «والنصب جازم الإيمان» إشارة الى أنّ الدافع الى إنكار فضل أهل البيت عليهم السلام المستفاد من الآية ليس إلّا النصب و العداوة لهم، مع التصريح بأنّ النواصب هم الذين درجوا على مثل هذه التسويلات.

إنّ التشكيك في فضيلة رواها جمّ غفير من الصحابة، كجابر بن عبدالله، والبراء بن عازب، و أنس بن مالك، و عثمان بن عفان، وعبدالرحمن بن عوف، وطلحة، و الزبير، و سعد بن أبي وقاص، و عبدالله بن عباس، و أبي رافع مولى النبيّ صلى الله عليه وآله، و لحقهم على روايتها جمع من التابعين كالسدّي، والشعبي، والكلبي، و أبي صالح، و أطبق المحدّثون والمؤرّخون والمفسّرون على إيداعها في موسوعاتهم، كمسلم[1]، والترمذي[2] و الطبري[3]، وأبي الفداء[4]،

---

(١) صحيح مسلم، ج٢ / ص٢٧٨.

(٢) سنن الترمذي: ج٥ / ص٢١٠.

(٣) تفسير الطبري: ج٣ / ص٢٩٩ ـ ٣٠١.

(٤) تفسير ابن كثير: ج٢ / ص٢٣٦.

والسيوطي في تاريخ الخلفاء[1]، والزمخشري، والرازي، مع الإذعان منهم جميعاً بصحة هذه الروايات. إنّ التشكيك في فضيلة حظيت بوضوح تأريخي كهذا يقود أصحابه إلى السفسطة وهدم التأريخ، لأنّ مثل هذا التشكيك إن كان جائزاً ومقبولاً فعلى أيّ رواية يمكن الاعتماد؟

و بأي سنّة يصح التعبّد؟ و هل هو إلّا رفض للسنّة، و بالتالي هدم لأساس الدين و غلق لباب معرفة الأحكام و الشرائع والتفاصيل التي تكفّلت السنّة النبوية المطهرة بإيضاحها؟!

و لذا فإن هذا التشكيك يبدو لذوي السلائق المعتدلة فرضاً خيالياً لا يستطيع أحد ارتكابه، لكنّه قد حصل فعلاً، حيث علّق صاحب تفسير المنار على تلك الروايات بعد اعترافه باتّفاقها على اختيار النبيّ لأهل بيته في المباهلة بما لفظه «و مصادر هذه الروايات الشيعية و مقصدهم منها معروف، و قد اجتهدوا في ترويجها ما استطاعوا حتى راجت على كثير من أهل السنّة، ولكن واضعيها لم يحسنوا تطبيقها على الآية، فإنّ كلمة (نساءنا) لايقولها العربي و يريد بها بنته لاسيما إذا كان له أزواج، ولايفهم هذا من لغتهم، و أبعد من ذلك أن يراد بـ (انفسنا) عليّ - عليه الرضوان -، ثم إنّ و فد نجران الذين قالوا إنّ الآية نزلت فيهم لم يكن معهم نساؤهم و أولادهم»[2].

و غاية ما نستطيعه من الإعذار و حسن الظنّ هو توجيه هذا التشكيك بأنّه ينبعث من الزعم بعدم المطابقة بين تلك العناوين و الأفراد الذين نسبت

---

(١) تاريخ الخلفاء: ص١٦٩.

(٢) رضا، محمدرشيد، تفسير المنار: ج٣ / ص/٣٢٢.

الفضيلة لهم، و على أساس هذا الزعم اتّهم المؤلف الشيعة بوضع تلك الأحاديث، ولكن من الذي يوافقه على هذا الاتّهام والمغالطة التأريخية الفاحشة التي إذا قبلت منه فستكون النتيجة انهدام التاريخ و السنّة النبوية، وكان الأحرى به - و هو يواجه ما يعتقده مشكلة علمية ـ أن يعمل على ايجاد حلّ لهذه المشكلة، فإنّ هذا السلوك أقرب الى النهج العلمي الموضوعي من إنكار روايات حظيت بوضوح تاريخي قلّ مثيله، و أطبق على صحتها الصحابة والتابعون و علماء الفريقين من مفسّرين و مؤرّخين و محدّثين، و لو أنّه سلك هذا الطريق لاهتدى بيسر الى أنّ الآية لم تستعمل (نساءنا) بمعنى البنت (وانفسنا) بمعنى الغير و هو عليّ، بل المراد أنّ النبيّ في مقام امتثال الأمر الإلهي لم يأت إلّا بالسيدة الزهراء والإمام عليّ، ففهم من ذلك أنّ النبيّ قد طبق هذين العنوانين عليهما دون غيرهما، وكان غرضه بيان المصداق لامعنى اللفظ، وكذا ما استشكله من عدم وجود النساء و الأبناء مع نصارى نجران الذين باهلوه، فإنّ هذا الإشكال يكون مقبولاً لو كان المراد باسم الموصول «من» في قوله تعالى: ﴿**فمن حاجّك**﴾ هو وفد نجران خاصة، و ليس الأمر كذلك، لأنّ المراد باسم الموصول «من» عنوان عامّ شامل لكلّ من يحاجّه من النصارى في أمر النبوّة والرسالة، ولاشك أنّ فيهم أبناء و نساء، لكن الذين خرجوا إلى المباهلة و استجابوا لها كانوا هم وفد نجران فقط، و هذا لايعني اختصاص اللفظ بمن حضر منهم، و إنّما يعني أنّ الحضور من النصارى كانوا بعض المعنيين بالمحاجّة و بتعبير أدق: إنّ الحاضرين كانوا أفراداً من بعض

العناوين دون العناوين الأُخرى.

و لو كان هذا الاشكال وارداً لأورده من هو أكثر أصالة في العربية و براعة في الأدب و مهارة في معرفة أساليب الكلام و نقد كلمات الأُدباء والبلغاء، وهم نقلة هذه الروايات، و المؤرّخون و المفسّرون و المحدّثون الذين تعاهدوها بالدرس و التفسير والتدوين دون أن يتوقّف فيها أحد منهم.

واليك نماذج ممّا رواه الفريقان في هذا المجال:

فمنها: ما رواه أبو نعيم الحافظ بإسناده عن الشعبي عن جابر قال: قدم على رسول الله ﷺ العاقب و الطيب، فدعاهما إلى الإسلام، فقالا: أسلمنا يا محمد، فقال: كذبتما، إن شئتما أخبرتكما ما يمنعكما من الإسلام؟ فقالا: هات الينا، قال: لحب الصليب و شرب الخمر و لحم الخنزير، قال جابر: فدعاهم الى الملاعنة، فواعداه الى أن يغاذياه بالغداة، فغدا رسول الله ﷺ وأخذ بيد عليّ والحسن و الحسين و فاطمة عليهم السلام فأرسل اليهما، فأبيا أن يجيباه و أقرّا له، فقال رسول الله ﷺ: **والذي بالحقّ لو فعلا لأمطر عليهم الوادي ناراً.**

قال جابر: فيهم نزلت ﴿**ندع أبناءنا و أبناءكم**﴾.

قال جابر: (أنفسنا) رسول الله ﷺ و عليّ عليه السلام و (أبناءنا) الحسن والحسين عليهما السلام، و (نساءنا) فاطمة عليها السلام [١].

و عن ابن المغازلي في المناقب[٢] و الحمويني في فرائد السمطين مثله[٣].

و روى ذيله ابن الصبّاغ المالكي عن جابر[١]، و عن الحاكم في مستدركه عن علي بن عيسى - و قال: صحيح على شرط مسلم[٢] - و عن أبي داود الطيالسي عن شعبة الشعبي[٣].

و منها: ما روى مسلم في صحيحه، عن عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه، قال: أمر معاوية بن أبي سفيان سعداً فقال: ما يمنعك أن تسبّ أبا تراب؟ قال: أمّا ما ذكرت فثلاث قالهن له رسول الله ﷺ فلن أسبّه، لأن يكون لي واحدة منهن أحبّ اليّ من حمر النعم، سمعت رسول الله يقول حين خلّفه في بعض مغازيه، فقال له علي عليه السلام: يا رسول الله خلّفتني مع النساء والصبيان؟ فقال له رسول الله ﷺ: **أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبي بعدي**، وسمعته يقول يوم خيبر: **لاعطين الراية رجلاً يحبّ الله ورسوله و يحبّه الله ورسوله**، قال: فتطاولنا لها، فقال: **ادعوا لي علياً**، فأتي به أرمد العين، فبصق في عينيه و دفع الراية إليه، ففتح الله على يده، و لما نزلت هذه الآية **﴿فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم و نساءنا و نساءكم و أنفسنا و أنفسكم ثم نبتهل﴾**[٤] دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً و حسيناً، و قال: **اللّهمّ هؤلاء أهل بيتي**[٥].

و رواه أبو المؤيّد الموفّق بن أحمد الخوارزمي في كتاب «فضائل

---

(١) غاية المرام: ص٣٠٣ / ح١٧، انظر الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي: ص ٥-٧.

(٢) المصدر السابق: ص٣٠٣ / ح١٨، هكذا نقل عن المستدرك، والموجود في المستدرك بشأن المباهلة رواية واحدة عن عامر بن سعد وصفها الحاكم النيسابوري بأنها حديث صحيح على شرط الشيخين.

(٣) المصدر السابق: ص ٣٠٣ / ح١٩.

(٤) آل عمران: ٦١.

(٥) غاية المرام: ص ٣٠٠ / ح ١و٢، نقلاً عن صحيح ملم: ج٢ / ص٢٧٨.

عليّ عليه السلام»[١] وابن الصباغ المالكي في«الفصول المهمة»[٢].

و منها: ما روى علي بن ابراهيم في تفسيره عن أبي عبدالله عليه السلام أنّ نصارى نجران لمّا و فدوا على رسول الله صلى الله عليه وآله و كان سيّدهم «الأهتم» و «العاقب» و«السيد» و حضرت صلاتهم، فأقبلوا يضربون الناقوس و صلّوا، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله: يا رسول الله، هذا في مسجدك؟ فقال: دعوهم، فلمّا فرغوا دنوا من رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا له: إلى ما تدعونا؟ فقال: إلى شهادة أن لا إله إلّا الله، و أنّي رسول الله، و أنّ عيسى عبد مخلوق يأكل و يشرب و يحدث، فقالوا: من أبوه؟ فنزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: قل لهم ما تقولون في آدم؟ أكان عبداً مخلوقاً يأكل ويشرب و يحدث و ينكح؟ فسألهم النبيّ صلى الله عليه وآله فقالوا: نعم، فقال: فمن أبوه؟ فبهتوا، فأنزل الله ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثمّ قال له كن فيكون - إلى قوله - فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾[٣].

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: فباهلوني، فإن كنت صادقاً نزلت اللعنة عليكم، و إن كنت كاذباً نزلت عليّ، فقالوا:أنصفت، فتواعدوا للمباهلة، فلمّا رجعوا إلى منازلهم قال رؤوسهم السيد و العاقب والأهتم: إن باهلنا بقومه باهلناه، فإنّه ليس بنبيّ، و إن باهلنا بأهل بيته خاصة فلا نباهله، فإنّه لايقدم على أهل بيته إلّا و هو صادق.

فلمّا أصبحوا جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله و معه أمير المؤمنين و فاطمة والحسن و الحسين عليهم السلام، فقال النصارى: من هؤلاء؟

---

(١) غاية المرام: ص ٣٠١ / ح ٥، نقلاً عن الخوارزمي في كتابه: ص ٥٩-٦٠ باختلاف يسير.

(٢) غاية المرام: ص ٣٠٢ / ح ١٥، انظر الفصول المهمة: ص ٥-٧.

(٣) آل عمران: ٥٩ - ٦١.

فقيل لهم: هذا ابن عمّه ووصيّه و ختنه عليّ بن أبي طالب، و هذه ابنته فاطمة، و هذان ابناه الحسن و الحسين، فعرفوا، فقالوا لرسول الله ﷺ: نعطيك الرضا، فاعفنا من المباهلة، فصالحهم رسول الله ﷺ على الجزية وانصرفوا[١].

و منها: ما روى الشيخ في أماليه عن الإمام الصادق عليه السلام عن أبيه، عن جدّه عليّ بن الحسين عليه السلام عن عمّه الحسن بن علي عليه السلام قال: **قال الله تعالى لمحمد ﷺ حين جحده كفرة أهل الكتاب و حاجّوه: ﴿فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم و نساءنا و نساءكم وأنفسنا و أنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنت الله على الكاذبين﴾** .

فأخرج رسول الله ﷺ من الأنفس معه أبي، و من البنين أنا و أخي. و من النساء فاطمة أُمي من الناس جميعاً، فنحن أهله و لحمه و دمه و نفسه، و نحن منه، و هو منّا[٢].

ومنها: ما روى الشيخ المفيد في الاختصاص عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام قال: **اجتمعت الأُمة برّها و فاجرها أنّ حديث النجراني حين دعاه النبيّ ﷺ الى المباهلة لم يكن في الكساء إلّا النبيّ ﷺ و عليّ و فاطمة و الحسن والحسين عليهم السلام، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا و أبناءكم و نساءنا ونساءكم و أنفسنا و أنفسكم﴾ فكان تأويل (أبناءنا) الحسن و الحسين، و (نساءنا) فاطمة، وأنفسنا) عليّ بن أبي طالب**[٣].

ومنها: ما روى الشيخ في مجالسه في حديث مناشدة عليّ عليه السلام يوم الشورى:

---

(١) غاية المرام: ص٣٠٣ / ب ٤ / ح ١، نقلاً عن تفسير القمي، ج ١ / ص١٠٤.

(٢) المصدر السابق: ص٣٠٤ / ح ٣.

(٣) المصدر السابق: ص ٣٠٤ / ح ٤، نقلاً عن الاختصاص للشيخ المفيد: ص٥٦.

فهل فيكم أحد أنزل الله عزّوجلّ فيه و في زوجته و ولديه آية المباهلة، وجعل الله عزّوجل نفسه نفس رسول الله ﷺ غيري؟ قالوا: لا[١].

و منها: ما روى ابن بابويه عن موسى بن جعفر ؑ في حديث له مع الرشيد قال: قول الله عزّوجلّ: ﴿فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم و نساءنا و نساءكم و أنفسنا و أنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾، ولم يدّع أحد أنّه أدخل النبيّ ﷺ تحت الكساء عند المباهلة مع النصارى إلّا عليّ بن أبي طالب و فاطمة والحسن والحسين ؑ، فكان تأويل قوله عزّوجلّ (أبناءنا) الحسن والحسين، و(نساءنا) فاطمة، و (أنفسنا) علي بن أبي طالب[٢].

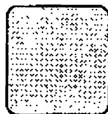
و روى هذا المضمون غير واحد من أصحابنا عن أئمة أهل البيت ؑ.

---

(١) غاية المرام: ص ٣٠٤ / ح ٥، نقلاً عن امالي الشيخ الطوسي: ج ٢ / ص ١٦٣.

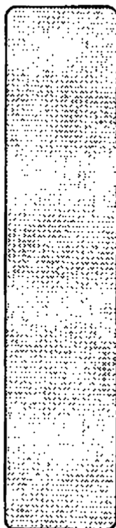
(٢) المصدر السابق: ص ٣٠٥ / ح ٨





الفصل العاشر

الإمامة المعصومة



آية التطهير

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾

(الأحزاب: ٣٣)



و آية التطهير هي الأُخرى تشارك في تشييد مدرسة الولاية، و ذلك من خلال دلالتها على عصمة أهل البيت(عليهم السلام) ، و قبل بيان هذه الدلالة لابدّ من استيضاح معاني بعضى المفردات التي وردت فيها، مثل: الإرادة و الرجس والبيت.

فالإرادة لها مفهوم واضح، و هي تنقسم الى قسمين: تكوينية و تشريعية، والإرادة التكوينية ما تريد نفس المريد تحقيقه بنفسه فهي تتعلّق بفعل نفس المريد، و الإرادة التشريعية ما يراد من الغير تحقيقه على نحو الاختيار، فهي متعلّقة بفعل الغير.

و الإرادة التكوينية لله سبحانه هي المتعلّقة بأفعاله سبحانه بما هي صادرة منه، و المراد بها لابدّ من تحققه، فهو لايقبل التخلّف عنها البتة، قال تعالى: ﴿إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾[1].

أمّا إرادة الله التشريعية فهي المتعلّقة بأفعال العباد الاختيارية، و لذا فهي ممكنة الانفكاك و التخلّف عن المراد، فقد تتحقّق تلك الأفعال و قد لا تتحقق، لأنّ الأمر منوط باختيار العباد، قال تعالى: ﴿يريد الله بكم اليسر و لايريد بكم العسر﴾[2] و قال سبحانه: ﴿ولكن يريد ليطهركم﴾[3].

---

(١) يس: ٨٢

(٢) البقرة: ١٨٥.

(٣) المائدة: ٦.

والرجس: هو الشيء القذر[١]، و هو قد يكون حسّياً كالقذارات المعلومة، وقد يكون معنوياً و هو ما يلوّث النفس و يوجب تقذّرها من الأعمال كالشرك والإثم والمعصية.

أمّا البيت فهو ما تحيط الجدران به، والمسقف من الدار و غيرها، و هو بيت السكنى، و يطلق على بيت القرابة و النسب، و أهل بيت السكنى من يعيش فيه، كما أنّ أهل بيت القرابة هم قرابة الرجل الأدنون.

و في ضوء هذا البيان نتساءل: هل إنّ الإرادة المذكورة في آية التطهير إرادة تشريعية أم إرادة تكوينية؟ و هل هي من قبيل **﴿ولكن يريد ليطهركم﴾** فتكون تشريعية؟ أم من قبيل **﴿إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾** فتكون تكوينية؟

إنّ الطريق للفرز بين الأمرين و تشخيص النوع المناسب للآية يتم بتسليط الضوء على القرائن الموجودة فيها، فإنّ الإرادة التشريعية تتناسب مع حكم عام و إرادة شاملة لجميع المشمولين بالشريعة، و الإرادة التكوينية تتناسب مع حالة استثنائية و خصوصية فريدة في أفراد معدودين يراد إبرازها فيهم، فاذا استفدنا من القرائن أنّ الآية بصدد إبراز حكم عام و غرض تشريعي كانت الإرادة المذكورة فيها إرادة تشريعية، و إن كانت الآية بصدد إبراز صفة خاصة في أفراد معدودين معيّنين كانت الإرادة المذكورة فيها إرادة تشريعية.

و إذا نظرنا في الآية وجدناها من النوع الثاني، لوجود أداة الحصر «إنّما»

---

(١) الراغب الاصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات: ص١٨٨.

فيها بنحو تفيد إرادة التطهير لأفراد معيّنين دون سواهم، فكأنّما تريد الآية أن تقول: يا أهل البيت أنتم الذين يريد الله أن يذهب عنكم الرجس و يطهّركم من الأدناس، فهي إرادة تكوينية لا محالة، لأنّ الإرادة التشريعية للتطهير لا تختصّ بجماعة دون اُخرى، و قد أعلن القرآن الكريم أنّ من أهداف الشريعة الإسلامية الوصول إلى مجتمع طاهر نقي، قال تعالى: ﴿ولكن يريد ليطهركم﴾، فالإرادة المذكورة إرادة تكوينية غرضها إبراز صفة خاصة في أهل البيت عليهم السلام، و تلك الصفة هي العصمة، لأنّ الإرادة التكوينية لله سبحانه لابدّ من تحقّقها وعدم انفكاكها عن المراد، أي أنّ تطهير أهل البيت عليهم السلام من الذنوب و الآثام أمر واقع بإرادة من الله سبحانه، و هذا هو معنى العصمة.

و هذا هو المعنى الذي يستفاد من الآية عندما ننظر إليها بنحو مستقل عمّا قبلها، و أمّا إذا نظرنا إليها بنحو مرتبط بما قبلها و بالسياق الذي جاءت فيه فقد يقال: بأنّ المعنى سيكون مختلفاً، و هو أنّ الله سبحانه أمر نساء النبيّ صلى الله عليه وآله في الآية السابقة لآية التطهير بأوامر مؤكدة و تكاليف مشدّدة، ثم انتقل في آية التطهير من خطاب خاص بنساء النبيّ إلى خطاب شامل لهنّ و لغيرهن من خاصّة النبيّ صلى الله عليه وآله، فكان القصر في الآية للقلب، و التعليل بأنّ الغرض من تشديد التكليف بالنسبة إليهم ليس التضييق عليهم و إنّما التطهير و التزكية لهم، حتى يصيروا بذلك اسرة مثالية صالحة لأن تكون نواة و محور المجتمع الإسلامي المطلوب، و حينئذ يكون المراد بأهل البيت عنواناً يشمل نساء النبيّ و خاصته معاً، و الإرادة المذكورة إرادة تشريعية، والقصر للقلب[1]، و ما ذكر من الأحكام

---

(١) يقسم القصر الاضافي الى ثلاثة أقسام: ١- قصر أفراد ٢- قصر قلب ٣- قصر تعيين، مثال قصر القلب قول

الموجّهة لنساء النبيّ في الآية السابقة سارياً على آله أيضاً، لأنّ علّة التطهير عامة تشمل نساء النبيّ و قرابته معاً، والعلّة تعمّم و تخصّص كما هو معروف.

و هذا الاحتمال في نفسه صحيح و معقول بناءاً على اتّحاد آية التطهير بما قبلها، ولكنّ الروايات الواردة في تفسير الآية والتي رواها الفريقان متظافرة الدلالة على نزولها بنحو مستقل و عدم ارتباطها بما قبلها، و لم تدل حتى الضعاف منها على نزولها ضمن الآيات السابقة عليها.

و لذا فإنّ الالتزام بالسياق لا مبرّر له، و ممّا يؤكّد انفصال الآية عمّا قبلها أنّ الآيات السابقة عليها استعملت في الخطاب ضمير الجمع المؤنث المتناسب مع نساء النبيّ، بينما استعملت آية التطهير ضمير الجمع المذكر، ممّا يدل على اختلاف المخاطب، و إن قيل: إنّ ضمير الجمع المذكر جيء به هنا لغلبة التذكير على التأنيث في الاستعمالات اللغوية، كان الجواب أنّ التغليب نكتة يمكن سريانها في كلّ الآيات، فلماذا سرى التغليب في آية التطهير دون ما قبلها؟

و لهذا فإن انفصال الآية عمّا قبلها من حيث المضمون والمعنى أمر متعيّن، و يبقى اندراجها في هذا المحل الغريب عنها بحاجة الى تفسير، و يمكن تفسيره بأحد أمرين:

١- أن تكون كلاماً جاء القرآن به استطراداً لغرض خاص، كما في قوله تعالى: ﴿ يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنّك كنت من الخاطئين ﴾ [١] و لعل هذا

← القائل «ما سافر إلّا علي» ردّاً على من اعتقد أنّ المسافر غيره انظر: الهاشمي، أحمد، جواهر البلاغة: ص١٩٣.

(١) يوسف: ٢٩.

الغرض الخاص هو بيان مقام أهل البيت عليهم السلام وما يمتاز به عن شأن نساء النبي صلى الله عليه وآله.

٢- أن تكون آية مستقلّة في نزولها و قد وضعت هنا بأمر النبي صلى الله عليه وآله لمصلحة خفية،كالاحتياط و التحفّظ عليها من التحريف، ذلك أنّ الله سبحانه قد ضمن سلامة القرآن من التحريف، وليكن هذا الاسلوب من الأساليب الطبيعية التي حقّقت ذلك الضمان.

هذا بناء على أنّ ترتيب القرآن بسوره و آياته و سياقه الذي عليه الآن كان بأمر من النبي صلى الله عليه وآله أمّا بناءاً على كون ذلك من غيره فالأمر أيسر و الاحتمال أكبر.

و لهذه الحالة نظائر أُخرى في القرآن الكريم، منها ما ذكرناه آنفاً في آية الإكمال ﴿اليوم أكملت لكم دينكم...﴾[1] التي أثبتنا استقلالها عمّا قبلها.

و مهما يكن من أمر فإنّ علامة الإيمان هي الاحتكام الى السنّة النبوية في معضلات الدين، و إذا عدّ أمر هذه الآية معضلاً فالحلّ الطبيعي الذي ينبغي لكلّ مسلم اللجوء إليه هو الرجوع الى نصوص النبي صلى الله عليه وآله الواردة في المسألة، حيث وردت الروايات الدالّة على نزول الآية في أهل البيت عليهم السلام دون غيرهم بعدد كبير يربو على السبعين حديثاً، و من طرق الفريقين، و من لم يعتبر بهذا القدر من الروايات فبأي دليل بعد ذلك يعتبر؟ و بأي حديث يؤمن؟

و هذه الروايات التي رواها الشيعة بطرقهم عن أميرالمؤمنين و عليّ بن الحسين و محمد بن علي و جعفر بن محمد و علي بن موسى الرضا عليهم السلام وعن

---

(١) المائدة: ٣.

أُمسلمة و أبي ذر و أبي ليلى و أبي الأسود الدؤلي و عمر بن ميمون الأودي وسعد بن أبي وقاص، و روتها السنّة بأسانيدهم عن أم سلمة و عائشة و أبي سعيد الخدري و سعد و واثلة بن الأصقع و أبي الحمراء و ابن عباس و ثوبان مولى النبيّ ﷺ و عبد الله بن جعفر و عليّ بن أبي طالب و الحسن بن علي عليهما السلام، كلّها تدل على أنّ الآية نزلت في الخمسة الطيّبة: رسول الله وابن عمّه عليّ وبنته فاطمة و سبطيه الحسنين عليهما السلام، و هم المرادون بأهل البيت دون غيرهم. واليك نماذج منها:

١- روى عبدالله بن أحمد بن حنبل في مسنده عن أبيه عن شداد أبي عمار، قال: دخلت على واثلة بن الأصقع و عنده قوم، فذكروا علياً، فلمّا قاموا قال: ألا اخبرك بما رأيت من رسول الله ﷺ؟ قلت: بلى، قال: أتيت فاطمة - رضي الله تعالى عنها - أسألها عن عليّ، قالت: توجّه إلى رسول الله ﷺ، فجلست أنتظره حتى جاء رسول الله ﷺ و معه عليّ و حسن و حسين (رضي الله تعالى عنهم) آخذاً كلّ (واحد) منهما بيده حتى دخل، فأدنى علياً و فاطمة فأجلسهما بين يديه، و أجلس حسناً و حسيناً كلّ واحد منهما على فخذه، ثم لفّ عليهم ثوبه - أو قال: كساء - ثم تلاهذه الآية: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ و قال: اللّهمّ هؤلاء أهل بيتي، و أهل بيتي أحق[1].

٢- روى عبدالله بن أحمد بن حنبل عن أبيه بسنده عن شهر بن حوشب، قال: سمعت أُم سلمة زوجة النبي ﷺ حين جاء نعي الحسين بن علي لعنت أهل

---

(١) البحراني، هاشم الحسيني، غاية المرام: ص ٢٨٧ / ح ١، نقلاً عن مسند أحمد: ج ٤ / ص١٠٧.

العراق فقالت: قتلوه قتلهم الله، غرّوه و أذلّوه لعنهم الله، فإنّي رأيت رسول الله ﷺ (وقد) جاءته فاطمة غدية ببرمة قد صنعت فيها عصيدة تحملها في طبق لها حتى وضعتها بين يديه، فقال لها: أين ابن عمك؟ قالت: هو في البيت، قال: اذهبي فادعيه وائتيني بابنيه، قالت: فجاءت تقود ابنيهما، كلّ واحد منهما بيد، وعليّ يمشي في أثرها، حتى دخلوا على رسول الله ﷺ فأجلسهما في حجره، وجلس علي عن يمينه، و جلست فاطمة عن يساره.

قالت أُم سلمة: فاجتذب من تحتي كساءاً خيبرياً كان بساطاً لنا على المنامة[1] في المدينة، فلفّه رسول[2] الله ﷺ (عليهم جميعاً فأخذ بشماله) طرفي الكساء، و ألوى بيده اليمنى إلى ربّه عزّوجلّ، وقال: **اللّهم هؤلاء أهل بيتي، أذهب عنهم الرجس و طهّرهم تطهيراً**[3]، قلت: يا رسول الله، ألست من أهلك؟ قال: بلى، فادخلي في الكساء (قالت: فدخلت في الكساء) بعد ما قضى دعاءه لابن عمّه وابنيه وابنته فاطمة (رضي الله عنهم)[4].

٣- عن الثعلبي في تفسيره بإسناده عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: **نزلت هذه الآية فيّ و في عليّ و في حسن و حسين و فاطمة ﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهّركم تطهيراً﴾**[5].

٤- عن الثعلبي أيضاً باسناده عن العوام بن حوشب قال: حدثني ابن عمّ لي

---

(١) في غاية المرام: على طبانة.

(٢) في غاية المرام: فلفّه النبي ﷺ و أخذ طرفي الكساء.

(٣) في مسند أحمد كررت هذه العبارة ثلاثاً.

(٤) البحراني، هاشم، غاية المرام: ص٢٨٨ / ح٨، نقلاً عن مسند أحمد: ج٦/ ص٢٩٢.

(٥) غاية المرام: ص ٢٨٨ / ح١٥.

من بني الحرث بن تيم الله يقال له: مجمع، قال: دخلت مع أُمي على عائشة، فسألتها أُمي قالت: أرأيت خروجك يوم الجمل، قالت: إنّه كان قدراً من الله تعالى فسألتها عن علي، فقالت: سألتيني عن أحبّ الناس كان إلى رسول الله ﷺ، لقد رأيت علياً و فاطمة و حسناً و حسيناً و قد جمع رسول الله ﷺ بغدف عليهم ثمّ قال: **اللّهم هؤلاء أهل بيتي و خاصتي فأذهب عنهم الرجس و طهّرهم تطهيراً**، قالت: قلت: يا رسول الله، أنا من أهلك؟

قال: تنحي فإنّك إلى خير[1].

٥- روى الحميدي في المتّفق عليه من الصحيحين عن البخاري و مسلم من مسند عائشة، عن مصعب بن شيبة، عن صفية بنت شيبة، عن عائشة، قالت: خرج النبيّ ﷺ ذات غداة و عليه مرط مرجل من شعر أسود، فجاء الحسن بن علي فأدخله، ثم جاء الحسين فأدخله، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء عليّ فأدخله، ثم قال: **﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهّركم تطهيراً﴾**[2]

٦- روى مسلم في صحيحة بسنده عن زيد بن أرقم، قال: قال رسول الله ﷺ: **ألا و إنّي تارك فيكم ثقلين، أحدهما كتاب الله عزّوجلّ، هو حبل الله من اتّبعه كان على الهدى، ومن تركه كان على ضلالة، و أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي.**

---

(١) البحراني، هاشم، غاية المرام: ص٢٨٩ / ح١٧.

(٢) المصدر السابق: ص ٢٨٩ / ح٢٢، الصحيح في تسمية المصدر المذكور هو «الجمع بين الصحيحين» لمحمد ابن أبي نصر الحميدي المتوفى سنة ٤٨٨ هـ و لم أعثر على هذا المصدر، والاسم المذكور في المتن اشتباه ناشئ عن الأخذ من كتاب غاية المرام الذي ذكر المصدر هكذا.

فقلنا: من أهل بيته؟ نساؤه؟ قال: لا أيم الله، إنّ المرأة تكون مع الرجل العصر ثم الدهر ثم يطلّقها فترجع إلى أهلها و قومها، أهل بيته أصله و عصبته الذين حرموا الصدقة بعده(١).

٧- روى موفّق بن أحمد الخوارزمي في كتابه «فضائل أمير المؤمنين» عن أبي سعيد الخدري أنّه قال: لمّا نزل قوله تعالى: ﴿**وأمر أهلك بالصلاة**﴾ كان رسول‌الله يأتي باب فاطمة و عليّ تسعة أشهر كلّ صلاة، فيقول:

الصلاة، يرحمكم الله، ﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾.(٢)

٨- روى الحمويني في كتاب فرائد السمطين عن ثوبان مولى رسول‌الله ﷺ قال: أجلس رسول الله ﷺ الحسن و الحسين على فخذيه و فاطمة في حجره واعتنق علياً ثمّ قال: **اللّهم هؤلاء أهل بيتي**(٣).

٩- روى الحمويني أيضاً عن إسماعيل بن عبدالله بن جعفر، عن أبيه، قال: لمّا نظر رسول الله ﷺ إلى الرحمة هابطة من السماء قال: **من يدعو؟** مرتين، قالت: زينب أنا يا رسول الله، فقال لي: **ادعي لي علياً و فاطمة والحسن والحسين**، قال: فجعل حسناً عن يمناه و حسيناً عن يسراه و علياً وفاطمة وجاهه، ثم غشّاهم كساءاً خيبرياً، ثم قال: **اللّهم إن لكلّ نبي أهل بيت، وهؤلاء أهلي**، فأنزل الله عزّوجلّ ﴿**إنّما**

---

(١) غاية المرام: ص٢٩٠ ح/٢٧. نقلاً عن صحيح مسلم: ج٢ ص ٢٧٩-٢٨٠. و قريب منه ما رواه الحمويني عن زيد بن ارقم و عن الحسن بن علي ﷺ فراجع الاحاديث المرقمة (٣٣) و(٣٤) و(٣٥). من غاية المرام: ص٢٩٠-٢٩١ نقلاً عن فرائد السمطين: ج٢ ص٢٣٤-٢٣٥ و ص ٢٥٠ و ص١٢٠.

(٢) المصدر السابق: ص ٢٩٠ / ح ٢٩، نقلاً عن الخوارزمي في كتابه: ص٢٣.

(٣) المصدر السابق: ص ٢٩٠ / ح ٣١، نقلاً عن فرائد المسطين، ج٢ / ص١٥.

يـريد الله ليـذهب عـنكم الرجس أهـل البـيت ويـطهّركم تـطهيراً﴾، فـقالت زيـنت: يا رسول الله، ألا أدخل معك؟ فقال رسول اللهﷺ: مكانك، فإنّك إلى خير إن شاء الله تعالى(١).

١٠- روى ابن الصباغ المالكي في كتاب «الفصول المهمّة» عـن أم سـلمة (رضي الله عنها) أنّها قالت: كان النبيّﷺ في بيتها يوماً فأتته فاطمة ببرمة فيها عصيدة، فدخلت بها عليه، فقال لها: ادع لي زوجك و ابنيك، فجاء عليّ والحسن و الحسين فدخلوا فجلسوا يأكلون والنبيّﷺ جالس على دكّة تحته كساء خيبري، قالت: و أنا في الحجرة قريباً منهم، فأخذ النبيّﷺ الكساء فغشاهم به، ثمّ قال: اللّهم أهل بيتي و خاصتي، فأذهب عنهم الرجس و طهرهم تطهيراً،قالت: فأدخلت رأسي البيت، قلت: و أنا معكم يا رسول الله؟ قال: إنّك إلى خير، فأنزل الله: ﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهّركم تطهيراً﴾(٢).

وفي معناها روايات كثيرة أُخرى تـدل عـلى عـدم دخـول الأزواج فـي أهل البيت و اختصاص الآية بالخمسة الطيّبة، و قد صرّح مشايخ القـوم بـصحة غير واحدة منها.

و من هنا تعرف و هن الرأي المنقول عمّن اشتهر بالنصب والعداوة لأهل البيتﷺ، كعكرمة مولى ابن عباس و من يحذو حـذوه: إنّ الآيـة نـزلت فـي أزواج النبيّﷺ.

---

(١) غاية المرام: ص ٢٩٠ / ح٣٢، نقلاً عن فرائد السمطين، ج٢ / ص ١٨-١٩.

(٢) المصدر السابق: ص ٢٩١ / ح٣٧، انظر الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي: ص ٧-٨.

و هذا الرأي - مضافاً إلى أنّه غير مستند إلى كلام رسول الله ﷺ - اجتهاد في مقابل النص، من رجال معروفين بالكذب و الاختلاق، فارجع إلى ميزان الاعتدال[١] وغيره من كتب الرجال في المدرسة السنّية حتى تعرف أحوال هؤلاء و موقفهم من أميرالمؤمنين و أهل بيت النبيّ ﷺ و تعرف قيمة الرأي المنقول عنهم، و الله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

و في الختام نذكر بعض ما ورد من طرق أصحابنا الإمامية أيضاً:

فمنها: ما رواه محمد بن يعقوب بسنده عن أبي بصير قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله عزّوجل: ﴿أطيعوا الله و أطيعوا الرسول وأُولي الأمر منكم﴾[٢]؟

فقال: نزلت في عليّ بن أبي طالب و الحسن و الحسين عليهم السلام - إلى أن قال - : لكنّ الله عزّوجلّ أنزله في كتابه تصديقاً لنبيّه ﷺ ﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾، فكان عليّ و الحسن و الحسين و فاطمة عليهم السلام، فأدخلهم رسول الله ﷺ تحت الكساء في بيت أُم سلمة ثمّ قال: اللّهم إنّ لكلّ نبي أهلاً و ثقلاً وهؤلاء أهل بيتي و ثقلي، فقالت أُم سلمة: ألست من أهلك؟ فقال: **إنّك إلى خير، ولكن هؤلاء أهلي وثقلي** الحديث[٣].

و عن ابن بابويه بسنده عن موسى الهاشمي بسرّ من رأى، قال: حدثني أبي، عن أبيه، عن آبائه، عن الحسين بن عليّ، عن عليّ عليه السلام قال: **دخلت على**

---

(١) ميزان الاعتدال: ج٣ / ص ٩٣-٩٧.

(٢) النساء: ٥٩.

(٣) الكافي: ج ١، ص ٢٤٦-٢٤٧.

رسول اللهﷺ في بيت أم سلمة و قد نزلت عليه هذه الآية: ﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهّركم تطهيراً﴾، فقال رسول اللهﷺ: يا عليّ، هذه الآية فيك وفي سبطيّ و الأئمة من ولدك، فقلت: يا رسول الله، وكم الأئمة بعدك؟

قال: أنت يا عليّ، ثم الحسن و الحسين، و بعد الحسين عليّ ابنه، و بعد عليّ محمد ابنه، وبعد محمد جعفر ابنه، و بعد جعفر موسى ابنه، و بعد موسى عليّ ابنه، وبعد عليّ محمد ابنه، وبعد محمد عليّ ابنه، و بعد عليّ الحسن ابنه، والحجة من ولد الحسن، هكذا أسماؤهم مكتوبة على ساق العرش، فسألت الله تعالى عن ذلك فقال: يا محمّد، هؤلاء الأئمة بعدك، مطهّرون معصومون، وأعداؤهم ملعونون[1].

---

(١) البحراني، هاشم، غاية المرام: ص ٢٩٣ / ح٦.

الفصل الحادي عشر

مـودّة الـولاية

آية المودّة

﴿قُل لَّآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ * أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَاطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾

(الشورى: ٢٣ ـ ٢٤)


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

وتساهم آية المودّة بتشييد جانب آخر من جوانب مدرسة الولاية، ألا وهو ضرورة عدم الاكتفاء بالإيمان العقلي بأئمة أهل البيت عليهم السلام وتجاوز ذلك إلى مستوى الشدّ العاطفي و الاتصال القلبي بهم، بحيث لايبقى جانب من جوانب الشخصية الإسلامية خالياً من امتدادات الإمامية و إشعاعاتها، فهي تملأ العقل والقلب و السلوك، و لا تبقي فراغاً في هذه الشخصية يمكن لزعامة طاغوتية أن تملأه.

و قبل أن نستوحي من الآية عطاءاتها لابدّ من استيضاح معاني المفردات الثلاثة التي وردت فيها: الأجر، المودّة، القربى.

فالأجر: هو ما يعود إلى العامل من ثواب العمل، سواء كان دنيوياً أو أُخروياً[1].

والمودّة: هي المحبّة المستتبعة للمراعاة والتعاهد، أي أن يتقيّد المحبّ بشؤون محبوبه و رغباته، و لعلّ وجود هذا الجانب فيها صرفها عن الاستعمال في محبة العباد لله تعالى.

و القربى: القرابة في النسب[2].

و بعد بيان معاني هذه المفردات الثلاثة نجد أنّ سيرة الأنبياء - وكما

---

(١) المفردات: ص١١.

(٢) المصدر السابق: ص٣٩٩.

يفصح عنها القرآن الكريم - أكّدت دائماً على التعفّف عمّا في أيدي الناس، ورفض أخذ الأجر كثمن على الرسالة و ما يعانونه من صعاب و ما يقدّمونه من تضحيات في سبيلها، مجسّدين بذلك رفتعهم و رفعة الرسالة الإلهية، ممّا يدل على خطأ التفسيرات المادية و الاقتصادية التي فسّر بها نشوء الدين و ظهوره في الحياة الإنسانية، ففي سورة واحدة نجد القرآن الكريم يكرّر حكاية ﴿و ما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلّا على ربّ العالمين﴾[1] على لسان عدد من الأنبياء.

إنّ خط الأنبياء جاء ليمنح الأرض عطاءات السماء بالنحو الذي يؤكّد للأرض حاجتها إلى السماء و غنى السماء عنها، فكيف يطلب الأنبياء من الناس أجراً على الرسالة؟

و هل هذا إلّا نقض في أهداف و مبادئ الرسالة الإلهية التي جاءت لتربّي الناس على أنّهم الفقراء إلى الله و أنّ الله هو الغني الحميد؟

و هذا لايلغي حقّ الانبياء في الأجر، لأنّ الله لايضيع عمل عامل في الأرض و لا في السماء، و إنّما هو أدب نبوي جاء ليبيّن أنّ الأجير إنّما يأخذ أجره من الذي استعمله، و أنّ من المناسب أن يأخذ الرسول أجره من الله الذي أرسله بهذه المهمة، و لا معنى لأخذ الأجر من الناس، خاصة مع الامتناع عن الإيمان و قلة الاتّباع للأنبياء. ثم هل يقاس أجر الله بأجر الناس؟

والغرض كلّ الغرض من إعلان الأنبياء المتكرّر لهذا المبدأ هو إزالة ما يعلّق بأذهان الناس أحياناً من الوهم بأنّ الأنبياء جاءوا لأمر دنيوي، و أنّهم

---

(١) الشعراء: ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠.

بصدد منافسة الناس في ذلك، مما قد يكون سبباً من اسباب امتناعهم عن الإيمان بالله سبحانه.

و جاء الرسول الأعظمﷺ فسار على هذه السيرة أيضاً، وها هو القرآن يعلن ﴿و ما تسألهم عليه من أجر﴾[١] ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً﴾[٢].

و بعد كلّ هذا البيان من الحقّ أن يتساءل القارئ لآية المودّة هل إنّها كانت استثناءاً من سيرة الأنبياء؟ بل من سيرة النبيّ الأعظمﷺ نفسه؟

و هل أنّ النبيّ يناقض نفسه فتارة يمتنع عن طلب الأجر و أُخرى يطلب الأجر؟

والجواب على هذا التساؤل: أن آية المودة لم تكن استثناءاً من سيرة الأنبياء و لا تناقضاً مع سيرة النبيّﷺ، بل هي متوافقة تماماً معهما، ذلك أنّ مودّة القربى التي طالب بها لم تكن أجراً حقيقياً بقدر ما هي موقف مبدأي تحتاج إليه الأُمة في مسيرتها و استقامتها، و المنتفع الأول و الأخير منها هو الأُمّة دون النبيّﷺ لما تحدثه فيها من الشدّ العاطفي بين الأُمة و نواتها الأُولى النقية المتمثّلة بآل البيتﷺ، بين الأُمة وقيادتها المتمثلة بأئمة أهل البيتﷺ، وعندما تنشدّ الأُمة بقيادتها و نواتها الأُولى تصبح استقامة هذه الأُمة مضمونة وتعود وحدتها آمنة من كلّ خطر، وعندما تشبع الأُمة حاجتها العاطفية الى موالاة القدوة و محبّة الرموز الفكرية و السياسية في حياتها تصبح شخصيتها متكاملة، حيث التطابق بين العقل و العاطفة على محور واحد، وحيث الإشباع

---

(١) يوسف: ١٠٤.

(٢) الأنعام: ٩٠.

الكافي الذي لايبقي فراغاً يدفع بالشخصية نحو رموز أُخرى، كما أنّ انشداد الأُمة نحو القيادة يجعل هذه القيادة ذات زخم و فاعلية بحيث تستطيع إنجاز المهام الحضارية الموكلة إليها.

و قد أشار القرآن الكريم الى هذه الحقيقة حيث قال تعالى على لسان نبيه ﷺ : ﴿قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجري إلّا على الله ﴾[١].

فالأجر الحقيقي هو ما ينتفع به الأجير، بينما لانجد النبيّ ﷺ منتفعاً بمودة الأُمة لقرابته، بل المنتفع هو الأُمة.

و كأنّ النبيّ ﷺ طلب من الأُمة أن تنفع نفسها، ثم جعل هذه المنفعة وكأنّها أجر له، و بتعبير آخر: إنّ النبيّ ﷺ أراد أن يقول للأُمة: إن أردت أن أستوفي حقوقي منكم فإنّني أستوفيها عندما أجدكم في قوة و استقامة و صلاح، و لا تكونون كذلك إلّا بمودة أهل البيت ﷺ، و لذا أطلب منكم مودّتهم، و هذه غاية الرحمة و العطف والتدبير لشأن الأُمة و مستقبلها و غاية التفاني في سبيلها، و قد عبّر القرآن الكريم عن ذلك بقوله تعالى: ﴿قل ما أسالكم عليه من أجر إلّا من شاء أن يتخذ الى ربه سبيلاً﴾[٢].

أمّا السبب في تسمية ذلك أجراً للرسول ﷺ، فبعد أن عرفنا أنّه مجرّد تنزيل وادّعاء نحتمل أنّ السبب فيه هو ما يبدو في الظاهر من أنّ مودّة القربى وإكرامهم هو نوع من ردّ الجميل للرسول ﷺ على قاعدة «يكرم المرء في

---

(١) سبأ: ٤٧.

(٢) الفرقان: ٥٧.

أهله»، وهكذا تبدو مودّة القربى وكأنّها أجر تقدّمه الأُمة للرسولﷺ الذي أسّسها و أوجدها، وكأنّ النبي أراد أن يستثمر الرابطة العاطفية التي تشدّ الأُمة به ويرسّخها أكثر بحيث تصبح أساساً لاستقامة الأُمة و قوة شوكتها في المراحل التالية، فأراد أن يقول لهم: بأنّ من حقي أن أطلب منكم أنّ تكونوا أُمّة قوية مستقيمة بعدي، و بما أنّ هذه القوة والاستقامة لا تقوم إلّا على أساس مودة القربى فلذا أنا أطلب منكم ذلك و أعدّه بمثابة الأجر الذي استحقّه منكم لو طالبتكم به.

هذا ما يستفاد من الآية بمساعدة آيات أُخرى مناظرة لها.

أمّا من هم اولئك القربى؟ فذلك ما تكفّلت به الروايات المتواترة التي بيّنت أنّ القربى المقصودين في الآية هم علي و فاطمة والحسن و الحسين، وهذا ما بلغ حدّ الضرورة في التصوّر الشيعي، كما ذهب إليه جمهور علماء السنّة وقطع به أكابرهم، فلا يعبأ بالشاذّ المخالف كعكرمة و أمثاله ممّن كان ديدنهم بغض أهل البيتﷺ و العداوة لهم والاجتهاد في حرف الآيات النازلة بحقّهم عمّا دلّت عليه من الفضيلة لهم.

وقد أورد بعضهم على تفسير الآية بأهل البيت إيرادين:

١- إنّ المراد من الآية لو كان هو أهل البيتﷺ لما ورد حرف الجر «في» و لاستغنت الآية عنه بتعابير مثل «إلّا مودّة القربى» أو «إلّا المودة للقربى» لأنّها أوضح في بيان ذلك لو كان هو المقصود.

و يكفي في جواب ذلك نقل ما يفهم من كلام الزمخشري من أنّه عبّر بـ «في» و لم يعبّر باللام تأكيداً، لأنّ الظرفية أبلغ و آكد للمودّة، فيكون تقدير

الكلام «إلّا المودة ثابتة في القربى متمكّنة فيها»[١].

٢- إنّ الآية مكية لأنّها في سورة الشورى، و حينئذ لايمكن انطباقها على الحسن و الحسين عليهما السلام لأنّهما ولدا في المدينة.

و هو إشكال ضعيف جداً، فإنّه قد أكّد غير واحد من أئمة التفسير نزول الآية في المدينة[٢].

والتسليم بكونها مكية لايمنع من الأخذ بالتفسير المذكور، لأنّ الآية سيقت لبيان قضية حقيقة لا خارجية، و لنقل: إنّ الآية طرحت في مكة مفهوماً معيناً، وإنّ النبيّ حدّد أفراد هذا المفهوم و مصاديقه التي كان بعضها موجوداً في مكة ثم حضر البعض الآخر منها في المدينة، فما المانع من ذلك؟

آراء أُخرى في الآية

و ورد في تفسير الآية آراء أُخر ليست لها أهمية علمية، و إنّما نذكرها لبيان دور العصبية والجهل في نشوئها و هي:

١- إنّ الآية تدعو النبيّ صلى الله عليه وآله الى أن يطلب من المشركين أن يحفظوا قرابته منهم و لا يقطعوا الرحم الذي يربطه بهم، و أنّه لايطلب منهم أجراً غير ذلك، وكأنّ هذا الطلب وسيلة من وسائل التخفيف من وطأة المشركين وحقدهم على النبيّ صلى الله عليه وآله.

(١) الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف: ج ٤ / ص٢١٩.

(٢) الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان: ج١٨/ ص ٤٧-٤٨.

ولكنّه رأي بعيد جداً، لسبب واضح هو أنّ طلب الأجر يدل على وجود حقّ مسلّم يذعن به الطرف المقابل، والطرف المقابل لازال على الشرك و هو يعتقد أنّ النبي ﷺ يشكّل خطراً عليه، و مثل هذه الحالة لا تتناسب مع طلب الأجر وكيف يطلب أجر الرسالة ممّن بخطرها عليه؟

٢- وقيل: إنّ الآية تقصد ملاحظة القربى من الله سبحانه، فكأنّ الرسول ﷺ يطلب من المسلمين أداء القربى إلى الله سبحانه بإتيان الأعمال الصالحة، وهذا رأي بعيد، بل أبعد من سابقه، لأنّ لفظ القربى لايستعمل في غير القرابة النسبية، فهذا التفسير ينطوي على تحريف.

٣- وقيل: إنّها تطلب من المسلمين أداء حقّ الرحم بينهم وصلة القربى، وهو أيضاً مردود لايتقبله الذوق العرفي السليم، إذ لاوجه يصحّح ربط هذا الحكم الجزئي بالنبيّ ﷺ بحيث يكون بمثابة الأجر على الرسالة، فإنّ أجر الرسالة لابدّ أن يكون أمراً يؤثّر في مستقبلها و مستقبل الأُمة و يصحّ نسبته الى النبيّ ﷺ بوجه عرفي معقول.

و إزاء هذه الآراء الهزيلة يستغرب الباحث من الإصرار عليها، بل و من مجرد اللجوء إليها مع ورود النصّ المتواتر و الإجماع المنقول من الفريقين على أنّ المراد بالقربى هم أميرالمؤمنين و فاطمة والحسن و الحسين ﷺ، وهذا ما يجعلنا نزداد تمسّكاً بأهل البيت ﷺ وبالسير على هداهم.

و من الضروري إيراد نماذج من تلك النصوص.

فمن طريق السنّة جاءت روايات منها:

ما عن مسند أحمد بن حنبل عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لمّا

نزل ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودّة في القربى﴾ قالوا: يا رسول الله، من قرابتك الذين وجبت علينا مودّتهم؟ قال: عليّ و فاطمة وابناهما[١].

و قريب منها ما روي في صحيح البخاري [٢] و تفسير الثعلبي بسندين، وعن الجمع بين الصحاح الستة بسندين، و عن ابراهيم بن محمد الحمويني[٣] وعن موفّق بن أحمد الخوارزمي[٤] و عن أبي نعيم الاصبهاني صاحب «حلية الأولياء» و عن المالكي[٥] بسندين، و عن ابن المغازلي في كتاب «المناقب»[٦]، غالبهم عن ابن عباس، و بعضهم عن سعيد بن جبير، و بعضهم عن مقاتل والكعبي.

و عن تفسير الثعلبي عن أبي الديلم قال: لمّا جيء بعليّ بن الحسين (صلوات الله عليه) أسيراً قائماً على درج دمشق قام رجل من أهل الشام فقال: الحمدلله الذي قتلكم و استأصل شأفتكم و قطع قرن الفتنة، فقال علي بن الحسين عليه السلام: أقرأت القرآن؟ قال: نعم، قال: قرأت الحم؟ قال: قرأت القرآن ولم أقرأ الحم؟! قال: قرأت: ﴿قل لا أسألكم عليه اجراً إلّا المودة في القربى﴾ قال: لأنتم هم؟ قال: نعم[٧].

---

(١) البحراني، هاشم، غاية المرام: ص٣٠٦ / ح ١، نقلاً عن مسند احمد: ج١ / ص٢٢٩.

(٢) صحيح البخاري، محمد بن اسماعيل: ج٦ / ص١٦٢.

(٣) الحمويني، ابراهيم بن محمد، فرائد السمطين: ج٢ / ص١٣.

(٤) الخوارزمي، موفّق بن أحمد، المناقب: ص ١٩٤-١٩٥.

(٥) المالكي، ابن الصباغ، الفصول المهمة: ص١١.

(٦) ابن المغازلي، علي بن محمد، المناقب: ص٣٠٩.

(٧) البحراني / هاشم الحسيني / غاية المرام / ص ٣٠٦ ح ٥.

وروى محمد بن جرير برجاله في كتاب «المناقب» أنّ النبيّ ﷺ قال لعليّ عليه السلام: اخرج فناد، ألا من ظلم أجيراً أجرته فعليه لعنة الله، ألا من تولّى غير مواليه فعليه لعنة الله، ألا من سبّ أبويه فعليه لعنة الله.

فنادى بذلك.

فدخل عمر و جماعة على النبيّ ﷺ و قالوا: هل من تفسير لما نادى؟ قال: نعم، إنّ الله يقول: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودّة في القربى﴾ فمن ظلمنا فعليه لعنة الله، ويقول: ﴿النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ ومن كنت مولاه فعلي مولاه، فمن والى غيره و غير ذرّيته فعليه لعنة الله، و اشهدكم أنا و عليّ أبوا المؤمنين، فمن سبّ أحدنا فعليه لعنة الله، فلمّا خرجوا قال عمر: يا أصحاب محمد، ما أكّد النبيّ لعليّ بغدير خم و لا غيره أشدّ من تأكيده في يومنا هذا.

قال خباب بن الأرت: كان ذلك قبل وفاة رسول الله ﷺ بتسعة عشر يوماً[١].

و روى عليّ بن الحسين بن محمد الاصبهاني في كتاب «مقاتل الطالبيين» أنّ الحسن بن عليّ عليه السلام قال في خطبة له بعد موت أبيه قال: أيّها الناس، من عرفني فقد عرفني، و من لم يعرفني فأنا الحسن بن محمد ﷺ، أنا ابن البشير، أنا ابن النذير، انا ابن الداعي الى الله بإذنه، و أنا ابن السراج المنير، و أنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس و طهّرهم تطهيراً، و الذين افترض الله مودّتهم في كتابه اذ يقول: ﴿ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً﴾، فالحسنة مودّتنا أهل البيت[٢].

---

(١) غاية المرام: ص ٣٠٧ / ح ٩.

(٢) مقاتل الطالبيين: ج ١ / ص ٣٤.

و ممّا رواه أصحابنا الإمامية ما رواه الكليني عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودّة في القربى﴾ قال: **هم الأئمة عليهم السلام**[١].

و منها: ما رواه الكليني أيضاً عن إسماعيل بن عبدالخالق قال: سمعت أباعبدالله عليه السلام يقول لأبي جعفر الأحول و أنا أسمع: **أتيت البصرة؟ فقال: نعم، قال: كيف رأيت مسارعة الناس إلى هذا الأمر و دخولهم فيه؟** فقال: و الله إنّهم لقليل ولقد فعلوا وإنّ ذلك لقليل، فقال عليه السلام: **عليك بالأحداث، فإنّهم أسرع الى كلّ خير،** ثم قال: **ما يقول أهل البصرة في هذه الآية ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودّة في القربى﴾؟**

قلت: جعلت فداك، إنّهم يقولون إنّها لأقارب رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: **كذبوا، إنّما نزلت فينا خاصة في أهل البيت، في عليّ و فاطمة و الحسن و الحسين، أصحاب الكساء عليهم السلام**[٢].

و روى عبدالله بن جعفر الحميري مثله في قرب الإسناد[٣].

و منها: ما رواه ابن بابويه عن عليّ بن الحسين عليه السلام قال لرجل: **أما قرأت كتاب الله عزّوجلّ؟** قال: نعم، قال: **أما قرأت هذه الآية ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودّة في القربى﴾؟** قال: بلى، قال: **فنحن أولئك**[٤].

و منها: ما رواه البرقي في المحاسن عن عبدالله بن عجلان، قال سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودّة في القربى﴾، قال: **هم الأئمة**

---

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١ ص/ ٤٧١ / ح٧.

(٢) المصدر السابق: ج٨ / ص٦٥ / ح٦٦.

(٣) البحراني، هاشم، غاية المرام: ص ٣٠٧، / ح٣، نقلاً عن قرب الاسناد: ص٥٢.

(٤) المصدر السابق: ص٣٠٩ / ح ١٠. نقلاً عن أمالي الشيخ الصدوق: ص ٢٣٠.

الذين لا يأكلون الصدقة و لا تحلّ لهم[١].

و قد روى أمثالها المفيد في «الاختصاص»[٢] و الطبرسي[٣] و علي بن ابراهيم القمّي في تفسيره[٤] و الشيخ في أماليه[٥] و سعد بن عبدالله في «بصائر الدرجات»[٦] و محمد بن العباس بن ماهيار في تفسيره[٧] و غيرهم.

---

(١) البحراني، هاشم، غاية المرام: ص٣٠٩ / ح١٣، نقلاً عن المحاسن: ج١ / ص١٤٥.

(٢) المفيد، محمد بن محمد، الاختصاص: ص٦٣.

(٣) الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان: ج٩ / ص٢٩.

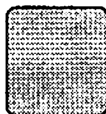
(٤) القمي، علي بن ابراهيم، تفسير القمي: ج٢ / ص٢٧٥.

(٥) الطوسي، محمد بن الحسن، الأمالي: ج١ / ص٢٧٦.

(٦) لعلّ نسخة من هذا الكتاب كانت موجودة عند صاحب غاية المرام الذي حكي ذلك عنه، و إلّا فالكتاب مفقود، والموجود الآن بصائر الدرجات لمحمد بن الحسن الصفار.

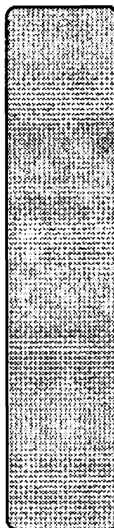
(٧) هذا أيضاً من الكتب المفقودة، و قد استظهر الشيخ الطهراني في الذريعة: ج٤ / ص ٢٤١-٢٤٢. وجوده عن السيد البحراني لكثرة ما ينقله عنه في غاية المرام.





الفصل الثاني عشر

من الوسطية الى الشهادة



آية الشهادة

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾

(البقرة: ١٤٣)



ومن الآيات ذات العلاقة بالإمامة والولاية آية الشهادة التي انطوت على إشارات دقيقة الى بعض خصائص الإمامة، وقبل أن ندرس تلك الإشارات نحاول شرح بعض المفردات التي وردت فيها.

(كذلك) : قيل: إنّ الظاهر بملاحظة الآية السابقة على آية الشهادة والواردة في شأن القبلة ان المراد من قوله: (وكذلك) أنّه وكما كان تحويل القبلة لغاية هي الهداية الى صراط مستقيم كذلك جعلناكم أُمة وسطاً لغاية هي تحقّق شهادتكم على سائر الناس، ولكن مع ذلك لايبعد أن تكون الواو استئنافية، و(كذلك): كلمة يراد بها تثبيت الخبر بعكس لفظة «كلّا» التي يراد بها نقض الخبر، فتكون الآية حينئذ منفصلة عن آية تحويل القبلة التي جاءت قبلها.

قال الخفاجي في «نسيم الرياض» بعدما نقل عن الكشّاف وشرّاحه كلاماً طويلاً في معنى (كذلك)، أقول:

لم أزل أبحث عن هذا كلّ من ناقشته من الفضلاء، فلم أظفر بما يثلج الصدر، فتصفحت الدفاتر وراجعت خزائن الضمائر فرأيت في شرح القصائد الطوال في شرح قول زهير:

كذلك خيمهم ولكلّ قوم ... إذا مسّتهم الضّراء خيم

نقلاً عن الجرجاني أنّه قال: لفظ «كذلك» يكون تثبيتاً لخبر متقدّم

أومتأخّر، فهي نقيض «كلا» لأنّها تنفي ذلك[١].

«الوسط»: وهوما له الطرفان أو الأطراف، ويستعمل بمعنى العدل، لأنّ الوسط هوأعدل ما يكون من الشيء وأبعده من الانحراف، أو لأنّ العدل حالة متوسطة بين التفريط والإفراط.

«الشهادة»: الشهادة والشهود: الحضور مع المشاهدة إمّا بالبصر أوبالبصيرة[٢]، يقال: شهد المجلس أي حضره واطّلع عليه.

والمستفاد من موارد استعمال هذه المادة دخول معنى التطلّع والإشراف فيها بما يفيد معنى الرقابة والنظارة، ولذا تستعمل مع لفظة «على» الاستعلائية.

ومن ذلك ما تكرّر في القرآن الكريم من إطلاق الشهيد على الله تعالى، مثل قوله تعالى: ﴿والله على كلّ شيء شهيد﴾[٣].

الأمّة الوسط

من الواضح أنّ الآية جاءت في سياق الامتنان على المسلمين، وبيان أنّ الوسطية التي أُعطيت لهم إنّما هي تكريم لهم وتعظيم لشأنهم، وليكونوا بذلك شهداء على الناس ويكون الرسول عليهم شهيداً.

وقد قيل في تفسير الوسطية آراء عديدة، منها:

١- إنّ المراد بالوسطية هوالاعتدال، أي إنّ هذه الأُمّة وضعت على نهج

---

(١) الخفاجي، أحمد، نسيم الرياض، ج١ / ص١٦٤.

(٢) المفردات: ٢٦٧.

(٣) البروج : ٩.

معتدل لا إفراط فيه ولا تفريط.

وإلى هذا القول يرجع ما قيل من أنّ الوسطية تعني التوازن الذي تتسم به الشريعة الإسلامية، حيث وازنت بين متطلّبات الروح ومتطلّبات الجسد مجسّدة بذلك واقعية هذا الدين، ممّا يجعل المسلمين أُمّة شاهدة على من سواها بالإفراط أوالتفريط، فهي تشهد على الماديين بأنّهم قد فرّطوا بالجانب الروحي والمعنوي الراقي في الوجود الإنساني، وتشهد على المغرقين في الجانب الروحي بأنّ الرهبنة إفراط في الروح تبعه تفريط بالجانب المادي والدنيوي من الحياة الإنسانية.

وبما أنّ الرسول الأعظم ﷺ هو أكمل أفراد هذه الأُمّة لذا فهو الشاهد عليها، كما هي الأُمّة الإسلامية شاهدة على من سواها من الأُمم.

٢- وقيل: إنّ معنى الوسطية هو أنّ هذه الأُمّة لمّا كانت ﴿خير أُمة أُخرجت للناس...﴾[1] فمن المناسب أن تكون واسطة العقد بين الأُمم، والمدبّرة لشؤونها.

٣- وقيل: إنّ معنى الوسطية هو توسّط هذه الأُمّة بين الرسول وبين سائر الأُمم، فالرسول شاهد عليها وهي شاهدة على سائر الأُمم بأنّ الأحكام الإلهية قد وصلت إليها وتمّ تبليغها بها، أي أنّها حجة على سائر الأُمم تبلغهم الأحكام وتسعى بهم نحو الكمال.

٤- وقيل: إنّ المراد هو أنّ هؤلاء المخاطبين قد جعلوا بعناية تكوينية خاصة في حاقّ الوسط والاعتدال، ليكون ذلك أساساً لتكليفهم بمهمّة

---

(١) آل عمران: ١١٠.

الإشراف على الناس ومراقبة أعمالهم وأقوالهم، بل والإشراف على مبادئ نياتهم، بحيث يطّلعون عليها فيتحمّلون الشهادة ليؤدّوها يوم القيامة.

هذه هي الأقوال والآراء التي قيلت في معنى الوسطية، ومهما يكن من شأن هذه الأقوال فممّا لا يشك فيه أنّ وصف الوسطية لا يشمل كلّ أفراد الأمّة، بل هو وصف للخواص منها ممّن له شأن معنوي رفيع فيها، وقد أعطي للأمة على أساس احتوائها على أفراد من هذا القبيل، كما هي سيرة القرآن في اعطاء الجماعة أوصاف بعض أفرادها، كما في الخطاب الموجّه الى بني اسرائيل ﴿وجعلكم ملوكاً﴾[1] فوصفهم بالملوكية مع أنّ هذا الوصف لا ينبطق إلّا على فرد واحد منهم في كلّ عصر، وقال تعالى: ﴿وإنّي فضّلتكم على العالمين﴾[2] فوصفهم بالأفضلية مع أنّها صفة خاصة بفئة معينة، وقال تعالى: ﴿محمد رسول الله والذين معه أشدّاء على الكفّار رحماء بينهم...﴾[3] فوصفهم بذلك مع أنّ فيهم الكثير ممن لا يستحقه.

والنتيجة أنّ اعطاء الأمّة الإسلامية وصف الوسطية والشهادة هو على أساس أنّ هذا الوصف متحقّق فيها دون غيرها من الأمم، ويكفي لتحقّق ذلك وجود من يستحقّه فيها، والمعنى أنّ الوسطية والشهادة وصف متحقّق في هذه الأمّة من خلال اتّصاف بعضها به.

والحقيقة أنّ الشهادة في القرآن الكريم موضوع تظافرت عليه العديد من

---

(١) المائدة: ٢٠.

(٢) البقرة: ٤٧.

(٣) الفتح: ٢٩.

الآيات القرآنية، وهوموضوع مفصّل له جهات عديدة، ومن تلك الجهات الشهادة يوم القيامة حيث يتنوع الشهود فيه على أعمال العباد، فهناك شهادة الأعضاء والجوارح، وهناك شهادة الملائكة المكرمين، وشهادة الأولياء المقربين كالأنبياء والصالحين، قال تعالى: ﴿**وأشرقت الأرض بنور ربّها ووضع الكتاب وجيء بالنبيّين والشهداء وقضي بينهم بالحق**﴾[١]، وقال تعالى: ﴿**ويوم نبعث في كلّ أُمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء**﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿**ان الله لايظلم مثقال ذرّة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً * فكيف إذا جئنا من كلّ أُمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً**﴾[٣] .

فهذه الآيات الكريمة تناولت موضوع الشهادة يوم القيامة، واختصّت الآيتان المذكورتان من سورة النساء بإشارة دقيقة هي نفي الظلم عن الله سبحانه وتعالى، والمناسبة المقتضية لذلك هي أنّ الأحكام الجزائية تحتاج إلى إثبات وشهود وبيّنات، وبدون ذلك تصبح ظلماً وتعدّياً، وكأنّ الآية أرادت أن تشير إلى أنّ الجزاء الإلهي وإن كان في نفسه مستغنياً عن الإثبات بالشهود والبيّنات إلّا أنّ مع ذلك جاء مقروناً بأنواع عديدة من الشهادات، فهناك شهادة الشهداء على الناس، وهناك شهادة الرسولﷺ على الجميع، وهذا ما يجعل الاعتقاد بالعدالة الإلهية في أقصى درجات الكمال.

وفي هذا السياق أيضاً يأتي قوله تعالى: ﴿**ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً**

---

(١) الزمر: ٦٩.

(٢) النحل: ٨٩.

(٣) النساء: ٤٠-٤١.

اولئك يعرضون على ربّهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربّهم﴾[١]، وقوله تعالى في عيسى بن مريم: ﴿ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾[٢].

وبعد اتضاح ذلك كلّه نأتي ونقول: إنّ الشهادة لا تتقوّم إلّا بالحضور والمشاهدة للواقعة التي يراد الشهادة لها أوعليها، وهذا ما يعبّر عنه بتحمّل الشهادة، فطلب أداء الشهادة لا معنى له ما لم يتمّ أوّلاً تحمّل الشهادة من قبل الشاهد المطلوب، وحيث إنّ الأعمال بالنيات ولا يستطيع الشاهد أن يشهد لفرد بالصلاح وعلى آخر بالفساد ما لم يكن مطّلعاً على نواياه وسرائره، لذا لابدّ أن يكون الشاهد المطلوب يوم القيامة قد اطّلع في دار الآخرة على أعمال وسرائر الناس الذين سيشهد لهم أوعليهم، وهذا ما يتجلّى بوضوح من قوله تعالى حكاية عن عيسى بن مريمﷺ: ﴿وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلمّا توفّيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كلّ شيء شهيد﴾[٣] ذلك أنّ اقتران شهادة المسيح على اُمته ورقابته عليهم بشهادة الله ورقابته عليهم تدل على التشابه بينهما، رغم أنّ شهادة المسيح شعاع من تلك الشهادة، وهذا لايتمّ إلّا بالإشراف والاطّلاع على القلوب.

وهذا ما تؤكده آية اُخرى هي قوله تعالى: ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾[٤] حيث جعلت رؤية الرسول والمؤمنين لأعمال العباد الى

---

(١) هود: ١٨.

(٢) النساء: ١٥٩.

(٣) المائدة: ١١٧.

(٤) التوبة: ١٠٥.

جنب رؤية الله تعالى مما يشير الى نوع مسانخ بينهما.

وهكذا، فمهما كان المراد من الوسطية وأيّ الآراء آنفاً فيها انتخبنا؛ فإن المقصود بالشهادة المذكورة في الآية هي الشهادة على الأعمال، وإنّ هؤلاء الخواصّ من الأُمّة منحوا هذه الفضيلة والكرامة نظراً لاتّصافهم بالوسطية.

ومن الجدير بالملاحظة أنّ آية أُخرى وردت في القرآن الكريم قاربت في دلالتها آية الشهادة وهي قوله تعالى: **﴿هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملّة أبيكم إبراهيم هو سمّاكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس﴾**(١).

وبالجمع بين الآيتين نستخلص وجود فئة معينة من الأُمّة الإسلامية حازت على مقام الشهادة على أعمال الناس، وإنّ هذه الفئة من ذرّية إبراهيم الخليل عليه السلام.

وقد وردت روايات من الفريقين تؤيّد بل تدلّ على ما استفدناه من نفس الآيات من كون الشهادة هي الشهادة على الأعمال.

فمن طريق أهل السنّة ما رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **يدعى نوح عليه السلام يوم القيامة فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلّغت؟ فيقال: نعم، فيقال لأُمته: هل بلّغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد صلى الله عليه وآله وأُمته، فيشهدون أنّه قد بلّغ ﴿ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾، فذلك قوله جلّ ذكره: ﴿وكذلك جعلناكم أُمة وسطاً﴾ والوسط: العدل**(٢).

---

(١) الحج: ٧٨.

(٢) صحيح البخاري: ج٥ / ص١٥١.

وفي الكشاف: روي أنّ الأُمم يوم القيامة يجحدون تبليغ الأنبياء، فيطالب الله الأنبياء بالبيّنة[١]. ويقرب منه ما في الدرّ المنثور[٢] وروح المعاني[٣] ومجمع البيان[٤].

وعن طريق الشيعة روى الكليني عن بريد العجلي قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وكذلك جعلناكم أُمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس﴾ قال: «نحن الأُمّة الوسطى، ونحن شهداء الله على خلقه وحججه في أرضه، قلت: قول الله عزّ وجلّ: ﴿ملة أبيكم إبراهيم﴾؟ قال: إيّانا عنى خاصة ﴿هو سمّاكم المسلمين من قبل﴾ في الكتب التي مضت «وفي هذا» القرآن ﴿ليكون الرسول عليكم شهيداً﴾ فرسول الله صلى الله عليه وآله الشهيد علينا بما بلّغنا عن الله عزّوجلّ، ونحن الشهداء على الناس، فمن صدّق صدّقناه يوم القيامة، ومن كذّب كذّبناه يوم القيامة»[٥].

وقد عقد في الكافي باباً عنوانه «في أنّ الأئمة شهداء الله عزّوجلّ على خلقه» وكذا في البحار[٦].

وفي تفسير العيّاشي عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال الله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أُمّة وسطاً﴾ فإن ظننت أنّ الله عنى بهذه الآية جميع أهل القبلة من الموحّدين، أفترى أنّ من

---

(١) الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف، ج ١ / ص ١٩٩.

(٢) السيوطي، عبدالرحمن بن أبي بكر، الدرّ المنثور: ج ١ / ص ٢٦٧.

(٣) الآلوسي، محمود، روح المعاني: ج ٢ / ص ٥.

(٤) الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان: ج ١ / ص ٢٢٥.

(٥) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ج ١/ ص ٢٤٦-٢٤٧ / ح ٢، باب «في أنّ الأئمة شهداء الله عزّوجلّ على خلقه».

(٦) بحار الأنوار: ج ٢٣ / ص ٣٣٣، باب ٢٠.

لايجوز شهادته في الدنيا على صاع من تمر يطلب الله شهادته يوم القيامة ويقبلها منه بحضرة جميع الأُمم الماضية؟! كلّا، لم يعن الله تعالى مثل هذا من خلقه، يعني: الأُمّة التي وجبت لها دعوة إبراهيم ﴿كنتم خير أُمة أُخرجت للناس﴾ وهم الأُمّة الوسطى، وهم خير أُمة أُخرجت للناس(١).

وهذا الصنف من الأخبار وإن كان أضيق مدلولاً من آية الشهادة من جهة، حيث إنّ مدلوله نوع من العمل وهو التبليغ لجميع الأعمال من الطاعات والمعاصي كما هومدلول الآيات، إلّا أنّ ذلك لايضرّ لأنّ الغرض منها هوإثبات الشهادة لفئة خاصة من الأُمّة دون جميع أفرادها، وأنها شهادة على الأعمال، ودلالة هذه الأخبار على ذلك ممّا لايقبل الإنكار.

نعم، أخبار عرض الأعمال على رسول الله ﷺ وعلى الأئمة عليهم السلام الوارد جلّها في تفسير آية **﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾** الآتي ذكرها بقوة النصّ على علمهم عليهم السلام بأعمال العباد، مثل ما رواه العلّامة المجلسي في البحار عن «البصائر» عن يونس عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: سمعته يقول في الأيام حين ذكر يوم الخميس قال عليه السلام: **هويوم تعرض فيه الأعمال على الله وعلى رسوله وعلى الأئمة عليهم السلام**(٢).

وفي بعض تلك الروايات اضيف يوم الاثنين إلى يوم الخميس، وفي بعضها: إنّ ذلك يتمّ في الصباح والمساء من كلّ يوم.

وقد يبدوالتعارض والاختلاف بين هذه الروايات من جهة، وبين آيات

---

(١) العياشي، محمد بن مسعود، تفسير العياشي: ج١ / ص٨٢

(٢) المجلسي، محمد باقر، بحارالأنوار. ج٢٣ / ص٣٤٦.

الشهادة وآية الرؤية من جهة أُخرى، لأنّ الآيات تدل بظاهرها على إشرافهم المستمر على الأعمال، بل على النوايا والخواطر القلبية التي انطلقت منها، في حين نجد تلك الأخبار تدل بظاهرها على عدم العلم بذلك إلّا حين العرض في الوقت المحدّد له، ثمّ لماذا هذا العرض إذا كانواﷺ مشرفين مطّلعين على الأعمال ومبادئها النفسانية؟

وللإجابة على هذا الإشكال نقول: إنّ للعلم مراتب ودرجات، وإنّ الآيات قد أشارت الى المرتبة العالية منه عند الأئمة، فيما أشارت الأخبار إلى مرتبة عادية منه، فلا تعارض بينهما، وبهذا الوجه يمكننا تصحيح الأخبار الدالّة على عرض الأعمال على الله سبحانه وتعالى يوم الخميس أيضاً، مع أنّه لايعزب عن علمه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء.

مقتضيات هذا المقام الرفيع

وحيث تبيّن لنا بعد هذا البيان والتفسير لآيات الشهادة ثبوت العلم الحضوري للأنبياء والأئمةﷺ، أصبح من الضروري الإشارة الى أنّ ثبوت هذا المقام الرفيع لهؤلاء الشهداء الكرام يقتضي ثبوت لوازم وخصائص أُخرى لهم، مثل:

١- إنّ علمهم بالغيب يتمّ بسبل خاصة تختلف عن السبل العامة التي تموّن عامّة الناس بأنباء الغيب، وسيأتي توضيح ذلك مفصّلاً في بحث العلم بالغيب من الخاتمة.

٢- إنّ العلم الحضوري يستلزم حضور المعلوم بوجوده الخارجي عند العالم به. وقد برهن في محلّه أنّ هذا المعنى لاينطبق إلّا على ما يعبّر عنه في الفلسفة «علم العلّة بمعنى ما به على المعلول»، وهذا ما يكشف أنّهم عليهم السلام واسطة الفيض الإلهي إلى الناس، وهوما يعبّر عنه بالولاية التكوينية للمعصوم.

ويدلّ على ذلك روايات، منها ما رواه ثقة الإسلام الكليني في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**إنّ الله خلقنا فأحسن خلقنا وصوّرنا وجعلنا عينه في عباده، ولسانه الناطق في خلقه، ويده المبسوطة على عباده بالرأفة والرحمة، ووجهه الذي يؤتى منه، وبابه الذي يدلّ عليه، وخزائنه في سمائه وأرضه، بنا أثمرت الأشجار، وأينعت الثمار، وجرت الأنهار، وبنا ينزل غيث السماء وينبت عشب الأرض، وبعبادتنا عُبد الله، ولولا نحن ما عُبد الله**»[١].

٣- العصمة من الضلال، لأنّ الآية أطلقت وصف الوسط ولم تقيّده ممّا يدل على أنّهم في قلب الوسط الحقيقي، ولذا فهم معصومون عن الانحراف والإفراط والتفريط.

على أنّ قوله تعالى: ﴿**جعلناكم أمة وسطاً**﴾ يدل على حصول عملية اصطفاء من بين الناس. والاصطفاء يساوق الاجتباء المذكور في قوله تعالى:

﴿**هو اجتباكم**﴾ والذي وصف الله به عدداً من أنبيائه كإبراهيم ويوسف عليهما السلام، ومعلوم أنّ الاصطفاء والاجتباء يدل على حصول عملية استخلاص وتنقية من الأكدار والشوائب، ولذا قال ابليس: ﴿**فبعزّتك لأغوينهم**

---

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١ / ص١٩٨ / ح٥.

أجمعين * إلاّ عبادك منهم المخلصين﴾[١] وقال سبحانه في وصف يوسف ﷺ: ﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنّه من عبادنا المخلصين﴾[٢] وكيف ترى يكون من تعهّد الله سبحانه بصرف السوء والفحشاء عنه؟

٤- إنّ هؤلاء الشهداء موجودون في الناس ولوعلى سبيل البدل والتدريج ما دام الإسلام إلى يوم القيامة، لأنّ استمرار الإسلام يعني استمرار الشهادة على الناس، واستمرار الشهادة يعني استمرار وجود الشهداء إلى ذلك اليوم، وهذا ما لا يتمّ إلاّ بغيبة الإمام المهدي ﷺ واستمرار حياته الخفيّة إلى نهاية التأريخ، وقد دلّت على ذلك رواية نقلها ثقة الإسلام الكليني عن سماعة قال: قال أبوعبدالله ﷺ في قول الله عزّوجلّ: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أُمّة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾[٣].

قال: «نزلت في أُمة محمد ﷺ خاصة، في كلّ قرن منهم إمام منّا شاهد عليهم، ومحمد ﷺ شاهد علينا»[٤].

---

(١) سورة ص: ٨٢-٨٣.

(٢) يوسف: ٢٤.

(٣) النساء: ٤١.

(٤) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج١ / ص٢٤٦ / ح١.

الفصل الثالث عشر

من الاجتباء الى الشهادة

آية الاجتباء

﴿يَـا أَيُّهَا ٱلَّـذِينَ ءَامَـنُواْ ٱرْكَـعُواْ وَٱسْـجُدُواْ وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ۩ وَجَـٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ ٱجْتَبَاكُمْ وَمَـا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَـرَجٍ مِّـلَّةَ أَبِـيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ فَأَقِـيمُواْ ٱلصَّـلاَةَ وَءَاتُـواْ ٱلزَّكَـاةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾

(الحج: ٧٧ ـ ٧٨)



ومن الآيات القرآنية ذات العلاقة بقضية الإمامة آية الاجتباء الواردة في سورة الحجّ، وهي تشترك مع الآية السابقة وتتشابه معها إلى حدّ ما، ذلك أنّ آية الشهادة جعلت الوسطية أساساً لانتخاب الأُمّة الإسلامية شاهدة على من سواها من الأُمم، وفي آية الاجتباء عدّ اجتباء هذه الأُمّة للرسالة الإسلامية سبباً وأساساً لإعطائها صفة الشهادة على سائر الناس، وتكرار الشهادة في آيتين منفصلتين يفيد تأكيدها وثبوتها.كما أن اختلاف الآيتين في تعيين ماهو السبب والأساس للشهادة يدل على تعدد ذلك وأن الأساس هو مجموع السببين الوسطية والاجتباء معاً.

وإذا أردنا أن نعرف حقيقة الاجتباء وما هوالمراد به لابدّ لنا أوّلاً من ملاحظة أنّ هذه الآية جاءت بعد أمر سابق للمؤمنين عموماً بالركوع والسجود ومطلق العبادة وفعل الخيرات والجهاد في الله حقّ جهاده، ثم بيّنت الآية في سياق الامتنان اجتباء المسلمين للرسالة الإسلامية ورفع الحرج عنهم وتسمية شيخ الأنبياء عليه السلام لهم باسم المسلمين قبل ظهور الإسلام بما يقرب من ألفي سنة. وكأنّها تريد أن تبيّن لهم ضرورة الالتزام بتلك الأحكام، فهي من جهة أحكام سهلة لاحرج فيها، ومن جهة ثانية أنّ الملاك في الاجتباء للرسالة الإسلامية هوالالتزام المفترض بهذه الأحكام، ومن جهة ثالثة أنّ هناك عناية سماوية بالمسلمين حيث تمّ اجتباؤهم للإسلام وظهرت تسميتهم بهذا الإسلام على

لسان رائد التوحيد إبراهيم الخليل عليه السلام.

ثمّ بيّنت الآية في خاتمتها أنّ الالتزام بتلك الأحكام والخصائص المترتّبة عليه من الاجتباء ورفع الحرج وإطلاق تسميتهم قبل ظهورهم على لسان خليل الله، ما هي إلّا مقدمات لتكريمهم بأن يكون الرسول شاهداً عليهم ويكونوا هم شهداء على الناس. فالشهادة هي الغاية من الاجتباء.

ولكي يتّضح لدينا المعنى الدقيق للاجتباء لابدّ من ملاحظة المعنى اللغوي له أوّلاً.

قال الراغب في «المفردات»: «يقال: جبيت الماء في الحوض: جمعته، والحوض الجامع له جابية» ثم قال: «الاجتباء الجمع على طريق الاصطفاء. قال عزّوجلّ: ﴿فاجتباه ربّه﴾ واجتباء الله العبد تخصيصه إيّاه بفيض إلهي»[١]

وقال الزمخشري في «أساس البلاغة»: «اجتباه: اختاره، مستعار منه لأنّ من جمع شيئاً لنفسه فقد اختصه واصطفاه»[٢].

وقال أبوالبقاء في «الكليات»: «الاجتباء هوأن تأخذ الشيء بالكلية»[٣]. ويقرب منه ما قاله الآخرون.

وعندما نتأمّل في لفظة الاجتباء نجدها متلازمة مع التسليم، فإذاكان أمام المجتبي أفراد معيّنون فإنّ اجتباءه لزيد دون عمرولابدّ وأن يتمّ على أساس معيّن، والأساس لابدّ أن يكون هوالقرب أوالأقربية، وفي مقام العبودية يكون

---

(١) الراغب الاصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات: ص٨٧.

(٢) الزمخشري، محمود بن عمر، اساس البلاغة: ج١ / ص١٠٧.

(٣) الحسيني الكفوي، أبوالبقاء، كليات: ص٣٠.

معنى الأقربية هوالتسليم الأكثر للمعبود، وذلك حينما يسلّم العبد قياده للخالق سبحانه ويتجه بكلّ وجوده نحوه، ويقمع ما في النفس من طغيان يجمح بها نحوغيره، وهذا يعني أنّ الاجتباء صفة مترتّبة على بلوغ مرتبة التسليم لله، وأنّ هذه المرتبة إلّا للخواص، وربّما أمكن تأكيد ذلك بملاحظة أنّ جملة ﴿**هوسمّاكم المسلمين من قبل**﴾ لم تعطف في الآية على جملة ﴿**هو اجتباكم**﴾؛ ممّا يدل على كمال اتّصال المعنيين: الاجتباء والإسلام، نظير قوله تعالى:﴿**أمدّكم بما تعلمون * أمدكم بأنعام وبنين**﴾[1].

فإنّ عدم وجود الفاصل بين الجملتين وعدم وجود عاطف بينهما يدل على اتّحاد هما في المعنى، ولو أنّه وصل بينهما بعاطف مثل حرف «الواو» فإنّ هذا العاطف سيدلّ على نوع مغايرة بين الجملتين في المعنى رغم وجود مناسبة لوحظت، فكانت سبباً للربط بينهما، وذلك على غرار ما ذكره أهل المعقول في الحمل.

والنتيجة: أنّ انفصال الجملتين السابقتين في الآية يدل على كمال الاتصال والاتحاد بين الاجتباء ومقام التسليم.

ويؤيّد ذلك أيضاً أنّ الآية واردة في سياق الامتنان، والذي يتناسب مع هذا السياق هومرتبة من الإسلام تستحق الامتنان بحيث تكون أساساً للاجتباء والاصطفاء.

وحيث إنّ الآية نسبت الإسلام إلى إبراهيم الخليل ﷺ لذا فإنّنا سنحاول البحث في مراتبه واقتناص المرتبة المقصودة ذات العلاقة بالاجتباء من سيرة

---

(١) الشعراء: ١٣٢-١٣٣.

هذا النبيّ العظيم.

فعندما نتلو القرآن نجده يصف رائد التوحيد بالإسلام، قال تعالى: ﴿ومن يرغب عن ملّة إبراهيم إلّا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وانّه في الآخرة لمن الصالحين * إذ قال له ربّه أسلم قال أسلمت لربّ العالمين﴾[١].

ويتضح من هاتين الآتين جليّاً أنّ اصطفاء الله سبحانه لإبراهيم الخليل في الدنيا وعدّه من الصالحين في الآخرة جاء مترتّباً على تسليمه الفوري الكامل لله سبحانه ﴿اذ قال له ربّه أسلم قال أسلمت لربّ العالمين﴾، ومعلوم أنّ الاصطفاء والاجتباء بمعنى واحد، وقال تعالى أيضاً: ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربّنا تقبّل منّا إنّك أنت السميع العليم * ربّنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذرّيتنا أُمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنّك أنت التوّاب الرحيم * ربّنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم إنّك أنت العزيز الحكيم﴾[٢].

فنقرأ هنا أنّ إمام الأنبياء إبراهيم ﷺ وابنه إسماعيل يطلبان من الله أن يلهمهما مقام التسليم له، وعندما نتدبّر هذا الدعاء نجده قد صدر من إبراهيم ﷺ وهوفي أواخر عمره وبعد أن نال جميع المراتب من الرسالة والنبوّة والإمامة، وذلك بدلالة اشتراك إسماعيل ابنه معه فيه عند رفع القواعد من البيت، ونحن نعلم من القرآن الكريم أنّ الله قد وهبه الذريّة وهو شيخ عجوز، قال تعالى: ﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق﴾[٣]، ومعلوم أنّه كان نبيّاً قبل

---

(١) البقرة: ١٣٠ ـ ١٣١.

(٢) البقرة: ١٢٧-١٢٩.

(٣) ابراهيم: ٣٩.

ذلك، كما مرّ تفصيله في الفصل الثاني.

فماذا يفهم من نبيّ يعدّ من أعاظم الانبياء والمرسلين، وقد بلغ في التوحيد والتسليم مقاماً قلّ نظيره في الانبياء، ولكنه مع ذلك يسأل الله أن يرزقه وابنه مقام التسليم الأرفع؟

إذا تدبّرنا هذا الدعاء مليّاً توصّلنا إلى أن التسليم المقصود في قوله تعالى: ﴿**اذ قال له ربّه أسلم قال أسلمت لربّ العالمين**﴾ أنّه لم يكن تسليماً من المرتبة العادية، وإنّما من المرتبة التي تتناسب مع من هو شيخ الانبياء، والدرجة التي تؤهّل صاحبها للاصطفاء الربّاني والإجتباء الالهي ﴿**ولقد اصطفيناه في...**﴾ وهكذا نتوصّل الى أنّ الاجتباء المذكور في آيتنا - محلّ البحث - مبنيّ على تلك المرتبة الخاصة من التسليم الإبراهيمي.

وربّما يؤيد ذلك أنّ آية الاجتباء لم تربط بين الشهادة ومطلق التسليم لله، وإنّما ربطت بين الشهادة وبين إسلام منسوب الى ابراهيم ﴿**ملة أبيكم ابراهيم هوسمّاكم المسلمين من قبل**﴾ وهذا يعني أنّ الاجتباء ليس لكلّ من نطق بالتوحيد وانما لمن بلغ المقام الابراهيمي في التسليم، وحينئذ تكون الالف واللام في (المسلمين) عهدية يراد بها الاشارة الى اسلام خاص معهود، فيكون المعنى هو: أنّ الدين الذي لاحرج فيه هوملّة أبي الموحدين إبراهيم وأنّ الله سمّاكم المسلمين من قبل على لسان ابراهيم وفي هذا القرآن، وبهذا يمكننا الجمع بين ما دلّ من الروايات على أنّ الضمير (هو) يرجع الى الله وما دلّ منها على رجوعه الى ابراهيم.

وفي ضوء ذلك كلّه يتضح لنا أنّ الآية تتحدّث عن مقام رفيع وشرف منيع

ورتبة عالية لايمكن أن تعطى إلّا لأفراد مؤهلين تأهيلاً خاصاً، ولهم منزلة خاصة، أمّا نسبة ذلك الى عموم الأمّة وتوفر الآية على خطاب عام فإنّما هوباعتبار وجود من هومتصف بالاجتباء في هذه الأمّة.

فكأنّ الآية تريد أن تقول انّ الاجتباء واقع في هذه الأمّة، ومثل هذا الكلام لايفهم منه شمول الصفة لكلّ الأمّة بل يفهم منه أنّ هناك أفراداً من هذه الأمّة يحظون بهذه الصفة، وهذا بنفسه خصوصية للأمة كلّها، فهناك أمة تحظى بأفراد من هذا القبيل وهناك أمة أخرى لا تحظى بهم.

وهكذا نجد الآية متطابقة في نتيجتها مع آية الشهادة التي انتهى البحث فيها إلى إمامة الأئمة عليهم السلام وأنّها دالّة على خصوصية فيها، وهذا ما يتأكّد أكثر إذا جمعناهما مع الآيات المذكورة آنفاً من سورة البقرة التي بيّنت أنّ المخاطب فيها هم ذرّية ابراهيم عليه السلام خاصة، وهوعنوان ينطبق على الأئمة عليهم السلام كما ينطبق عليهم عليهم السلام عنوان «أبيكم» في قوله: ﴿ملة أبيكم إبراهيم﴾ من آية الاجتباء التي نحن بصددها.

وممّا يسند ذلك أيضاً ما ورد في روايات المدرستين عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: **«أنا دعوة إبراهيم»**.

فمنها: ما رواه في «الدر المنثور» أنّه صلى الله عليه وآله قال: **أنا دعوة إبراهيم، قال وهويرفع القواعد من البيت ﴿ربّنا وابعث فيهم رسولاً منهم﴾** حتى أتمّ الآية[1].

وقد روى أصحابنا هذا المضمون بطرق عديدة، مثل ما رواه الحويزي في

---

(١) السيوطي، عبدالرحمن بن أبي بكر، الدرّ المنثور: ج ١ / ص ٢٥٥.

نور الثقلين[١] والقمّي في تفسيره[٢] والصدوق في الخصال.[٣]

ومنها: ما رواه في الكافي عن أبي عبدالله ﷺ في حديث طويل ذكر فيه قوله تعالى: ﴿ولتكن منكم امة...﴾ ثم قال ﷺ: أخبر - أي الله تعالى - عن هذه الأمّة وممّن هي، وأنّها من ذرّية إبراهيم وذرّية اسماعيل من سكان الحرم، ممّن لم يعبدوا غير الله قطّ، الذين وجبت لهم الدعوة - دعوة إبراهيم وإسماعيل - من أهل المسجد، الذين أخبر عنهم في كتابه أنّه أذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً[٤].

وأصرح منه خبر العيّاشي في تفسيره عن أبي عمروالزبيري عن أبي عبدالله ﷺ قال: قلت له: أخبرني عن أُمة محمّد ﷺ من هم؟ قال: **أُمة محمد بنوهاشم خاصة**، قلت: فما الحجّة في أُمة محمد أنّهم أهل بيته الذين ذكرت دون غيرهم؟ قال: قول الله **﴿واذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربّنا تقبّل منّا انّك أنت السميع العليم * ربّنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذرّيتنا أُمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنّك أنت التواب الرحيم﴾** .

فلمّا أجاب الله ابراهيم واسماعيل وجعل من ذرّيتهما أُمة مسلمة وبعث فيها رسولاً منها - يعني من تلك الأُمّة - يتلوعليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة، ردف ابراهيم دعوته الأولى بدعوة أُخرى، فسأل لهم تطهيراً من الشرك ومن عبادة الأصنام ليصحّ أمره فيهم ولايتبعوا غيرهم. فقال:

---

(١) الحويزي، عبد علي بن جمعة، نورالثقلين: ج ١ / ص ١٠٩، ح ٣٨١-٣٨٢.

(٢) القمي، علي بن ابراهيم، تفسير القمي: ج ١ / ص٦٢.

(٣) الصدوق، محمد بن علي، الخصال: ج ١ / ص١٧٧.

(٤) نور الثقلين، ج ١ / ص١٠٩ / ح ٣٨٠، نقلاً عن الكافي: ج٥ / ص١٦ / ح ١.

﴿واجنبي وبنيّ أن نعبد الأصنام * ربّ إنّهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنّه منّي ومن عصاني فإنّك غفور رحيم﴾[١]، فهذه دلالة على أنّه لاتكون الأئمة والأمّة المسلمة التي بعث فيها محمد ﷺ إلّا من ذرّية ابراهيم، لقوله: ﴿واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام﴾[٢].

وبما ذكرنا في حقيقة الاجتباء وما يلازمه تبيّن أنّ قوله تعالى: ﴿وماكان الله ليطلعكم على الغيب ولكنّ الله يجتبي من رسله من يشاء﴾[٣].

وبما ذكرنا في حقيقة الاجتباء وما يلازمه تبيّن أنّ قوله تعالى:﴿وماكان الله ليطلعكم على الغيب ولكنّ الله يجتبي من رسله من يشاء﴾ ليس في مقام تخصيص الاطّلاع على الغيب بالرسل، بل ذكر الرسل ممّا اقتضاه الحال وظرف الخطاب.

وقد وردت عن طريقنا روايات في أنّ المراد بالمجتبين والشهداء في هذه الآية هم أئمة أهل البيت عليهم السلام .

منها: ما رواه ثقة الإسلام الكليني عن علي بن ابراهيم، عن أبيه، عن محمدبن أبي عمير، عن ابن أُذينة، عن بريد العجلي، قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام قول الله تبارك وتعالى:﴿وكذلك جعلناكم أُمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾، قال: نحن الأمّة الوسط، ونحن شهداء الله تبارك وتعالى على خلقه وحججه في أرضه، قلت: قوله تعالى: ﴿يا أيّها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا

---

(١) إبراهيم: ٣٥-٣٦.

(٢) العياشي، محمد بن مسعود، تفسير العياشي، ج١ / ص ٧٩-٨٠/ح ١٠١.

(٣) آل عمران: ١٧٩.

ربّكم وافعلوا الخير لعلّكم تفلحون ۞ وجاهدوا في الله حقّ جهاده هواجتباكـم﴾[١]، قال: إيّانا عني، ونحن المجتبون، ولم يجعل الله تبارك وتعالى في الدين «من حرج»، فالحرج أشد من الضيق «ملة أبيكم إبراهيم» إيّانا عنى خاصة و﴿سمّاكم المسلمين﴾ الله سمّانا المسلمين (من قبل) في الكتب التي مضت (وفي هذا) القرآن ﴿ليكون الرسول عليكم شهيداً وتكونوا شهداء على الناس﴾ فرسول الله ﷺ الشهيد علينا بما بلغنا عـن الله تـبارك وتـعالى، ونـحن الشهداء على الناس، فمن صدق يوم القيامة صدّقناه، ومن كذب كذّبناه[٢].

ومنها: ما رواه الصدوق في «كمال الدين» باسناده عن سليم بن قيس الهلالي عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال في جمع من المهاجرين والأنصار بالمسجد أيام خلافة عثمان: انشدكم الله، أتعلمون أنّ الله عزّوجلّ أنزل في سورة الحج ﴿يا أيّها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا﴾ - إلى آخر السورة ـ فقام سلمان فقال: يـارسول الله، مـن هؤلاء الذين أنت عليهم شهيد وهم شهداء على الناس الذيـن اجـتباهم الله ولم يجعل عليهم في الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم؟

فقال ﷺ: عنى بذلك ثلاثة عشر رجلاً خاصة دون هذه الأمّة، قال سلمان: بيّنهم لنا يا رسول الله، قال ﷺ: أنا وأخي وأحد عشر من ولدي، قالوا: اللّهم نعم[٣].

---

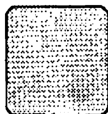
(١) الحج: ٧٧-٧٨.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ج ١ / ص ٢٤٧ / ح ٤، وقد مرّ بسند آخر في الفصل السابق ص١٥٦.

(٣) الصدوق، محمد بن علي، كمال الدين: ص ٢٧٨-٢٧٩، نور الثقلين: ج٣ / ص ٥٢٦، الرقم ٢٤٤.

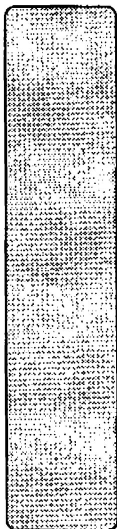


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



الفصل الرابع عشر

رقابة الولاة



آية رؤية الأعمال

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

(التوبة: ١٠٥)



وفي سياق الآيتين السابقتين تأتي آية رؤية الأعمال لتؤكد ما أفادتاه من شهادة الأئمة على أعمال الناس وبالنحو الذي يعكس خصوصية مؤكدة من خصائص الإمامة من وجهة نظر القرآن الكريم.

الرؤية: هي إدراك المرئي بالعين أو بالقلب، قال في القاموس:«الرؤية: النظر بالعين وبالقلب»[1].

وقال الراغب في «المفردات»: «الروية: ادراك المرئي، وذلك بحسب قوى النفس والأوّل بالحاسّة وما يجرى مجراها...،والثاني بالوهم والتخيّل...والثالث بالتفكّر...، والرابع بالعقل...»[2] ثم ذكر أمثلة لكلّ واحد منها.

والسين في (ستردّون) وإن كان حرف استقبال يستعمل لما يتوقّع تحققه فيما بعد إلّا أنّه يستعمل تحقيقاً لمدخوله وتأكيداً له،كما نقل ذلك ابن هشام عن الزمخشري وأيّده فيه[3].

والخطاب في الآية عامّ يشمل كل انسان عامل، ولا يختصّ بالتائبين

---

(١) الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط: ص ١٦٥٨.

(٢) الراغب الاصفهاني، الحسين بن حميد، المفردات: ص ٢٠٨-٢٠٩.

(٣) الأنصاري، عبدالله بن هشام، مغني اللبيب: ج ١ / ص ٢٣٢.

المذكورين في الآية السابقة عليها وان كانوا مورداً لها، لأنّ خصوص المورد لايخصّص الوارد كما يقال، كما لايختص بالمؤمنين وان كانوا أولى من غيرهم بالخطاب، بل وان كان الخطاب متوجّهاً اليهم بالفعل ـ لأن القرآن نزل بإيّاك أعني واسمعي يا جارة كما قيل ـ ومرّ بنا سابقاً، خاصة وأنّ الآية في مقام التحريض على العمل والترغيب في الاستزاده منه، ببيان أنّ ذلك مرئي مشهود، فتكون تلك المشاهدة بنفسها نوعاً من التشجيع على العمل والتحذير من الإهمال، خاصة وأنّ الشاهد الناظر هو الله سبحانه والرسول ﷺ وصفوة المؤمنين.

ولاشكّ أنّ الرؤية المقصودة تتحقّق قبل يوم البعث والقيامة لقوله تعالى: **﴿وستردّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾** وظاهر الآية أنّها في سياق بيان خصوصية للرسول والمؤمنين بحيث يرون الاعمال كما يراها الله سبحانه، وهذا ما ينفعنا في تحديد نوع الرؤية، وهل هي رؤية حقيقة العمل أم ظاهره أم نتيجته؟ فإنّ رؤية نتيجة العمل أوظاهره فقط أمر مشهود لكلّ ذي عين حتّى من غير المؤمنين، فمثل هذه الرؤية لاتتناسب مع سياق الآية المقتضي وجود خصوصية في رؤية الرسول والمؤمنين، وحينئذ لابدّ أن تكون الرؤية المقصودة هي رؤية نفس العمل وحقيقته بما في ذلك المنطلقات القلبية والنوايا المؤثرة في تكوين هذه الحقيقة، خلافاً لما قيل من أنّ المقصود رؤية

نتيجة العمل، ولما يفهم من كلام سيد قطب في «الظلال» من كون المراد هو «العمل الظاهر يراه الله ورسوله والمؤمنون»[١].

فالمعنى - والله أعلم -: يا أيّها النبيّ قل للناس اعملوا ما شئتم ولكن عليكم أن تعلموا بأنّ الله يرى أعمالكم وأنّكم بمنظر منه ومسمع، فيجازيكم بها يوم القيامة حين تردّون إليه، واضافة الى ذلك هناك ناظر آخر هو الرسول ﷺ، وكذلك المؤمنون المصطفون شهداء ناظرون اليكم، فعليكم بالدقّة والاحتراز والانطلاق نحو الاعمال الصالحة.

كلّ ذلك من أجل التحفيز الشديد نحو العمل الصالح، لأنّ الإحساس بالستر والخفاء يوجِد عند الانسان شعوراً بالاسترخاء والتقاعس، فإذا رفعنا ذلك الإحساس منه وقلنا له بأنّك تعيش وتسير تحت مراقبة نوعية وشديدة بحيث إنّ المراقب فيها هو الله والرسول والمؤمنون أمكننا إحلال النشاط فيه محلّ التقاعس.

ولا كلام لنا في أنّ الله تعالى مطّلع على القلوب والنوايا فضلاً عن حركات الجوارح ومظاهر الأعمال، إذ لا يعزب عن علمه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء، وأنّه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

إنّما الكلام في رؤية الرسول والمؤمنين، وقد تبيّن فيما سبق أنّها رؤية لحقيقة العمل لا لظاهره ونتيجته فقط، والآن نتساءل عن وسيلة الرؤية التي

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن: ج ٤ / ص ٣٠٢.

تجعلهم يتمتّعون بذلك دون سائر الناس؟ فإن كانت الوسيلة هي العين الطبيعية الموجودة لدى كلّ انسان، فرؤية هذه العين مختلفة عن رؤية الله سبحانه، بينما يقتضي اقترانهما في الآية نوعاً من الاتّحاد بينهما، أضف إلى ذلك أنّ الرؤية البصرية الاعتيادية أمر مشترك بين الرسول والمؤمنين وسائر الناس حتى الكفّار والمنافقين، بينما يدل السياق على نوع من الخصوصية في رؤية الرسول والمؤمنين بحيث يصحّ الامتنان بها عليهم، فلابد وأن تكون الرؤية رؤية استثنائية مختلفة نوعياً عن الرؤية البصرية الاعتيادية، ولابدّ أن تكون هذه الرؤية من نوع خاص بحيث تنفذ إلى حقيقة العمل ومنطلقاته القلبية وما ينبعث عنه من نوايا ونوازع نفسية، وممّا لاشك فيه أنّ هذه الخصوصية لاتحصل لجميع المؤمنين، وحينئذ فلايمكن أن يكون المقصود بالمؤمنين المذكورين في الآية عامة الأفراد الحاملين لهذا العنوان، ولابدّ أن يكون المقصود بهم أفراداً معيّنين معلومين، وحينئذ تكون الألف واللام في (المؤمنون) عهدية لا جنسية، وتكون رؤية هؤلاء المؤمنين المعهودين لاعمال العباد بنوع من الاشراف والاطّلاع على حقائق النفوس كرشحة أفاضها الله سبحانه عليهم ممّا عنده من الاطّلاع المطلق على ذلك، وإلى ذلك تشير روايات كثيرة جداً وردت في عرض الأعمال على رسوله الله ﷺ وعلى الأئمة المعصومين عليهم السلام، وقد ورد جلّها في تفسير هذه الآية، فيكون المقصود

بالمؤمنين هم الأئمة عليهم السلام.

فالآية تدل على أنّ الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة الطاهرين عليهم السلام يرون كلّ ما يعمله العباد عبر الإشراف والاطّلاع على حقائق النفوس والأعمال.

ثم إنّ انتساب الرؤية الى الله سبحانه يجعلها حاوية على الصفات التي تحظى بها أعماله سبحانه، كالخلو من عنصر الزمان، فهي رؤية لازمان لها، وهذا يعني أنّ أعمال العباد واقعة تحت نظر الله سبحانه قبل صدورها وحين صدورها وبعد صدورها، وهي حاضرة لديه في كلّ مرتبة من مراتب حصولها وظهورها.

وقد يقال: بأنّ حرف السين في قوله:﴿فسيرى الله عملكم﴾ يدل على أنّ الرؤية محصورة في مرحلة البقاء والاستمرار، دون ما قبلها من مراحل، كمرحلة الصدور، وكأنّها تريد أن تدفع وهم من يتوهم بأنّ الأعمال زائلة فانية، فجاءت السين في الآية لبيان بقاء الأعمال واستمرارها بدلالة خضوعها لنظر الله ورؤيته، وبذلك تفترق آية رؤية الأعمال عن آية الشهادة، بأنّ الأُولى ناظرة الى مرحلة ما بعد صدور العمل، والثانية ناظرة الى مرحلة ما قبل صدور العمل الى حين صدوره، والملاحظ أنّ روايات عرض الأعمال تنطبق على هذا الوجه من الآية بنحو أوضح من انطباقها على غيره.

فقد روى الكليني عن عدّة من أصحابنا مسنداً عن يعقوب بن شعيب قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ:﴿اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله

والمؤمنون﴾ قال: هم الأئمة[١].

وروي عن سماعة عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سمعته يقول: ما لكم تسوؤن رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فقال رجل: كيف نسوؤه؟ فقال: أما تعلمون أنّ أعمالكم تعرض عليه؟ فاذا رأى فيها معصية ساءه ذلك فلا تسوؤا رسول الله صلى الله عليه وآله وسرّوه[٢].

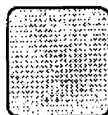
وروي أيضاً عن عبدالله بن أبان الزيات - وكان مكيناً عند الرضا عليه السلام - قال: قلت للرضا عليه السلام: ادع الله لي ولأهل بيتي، فقال: «أولست أفعل؟ والله إنّ أعمالكم لتعرض عليّ في كلّ يوم وليلة، قال: فاستعظمت ذلك، فقال لي: أما تقرأ كتاب الله عزّوجلّ ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ قال: هو والله عليّ بن أبي طالب عليه السلام»[٣].

---

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١ / ص ٢١٩ / ح ٢.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١ / ص ٢١٩ / ح ٣.

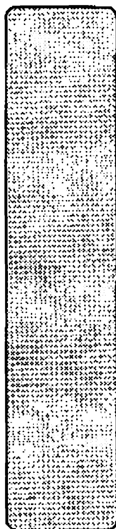
(٣) المصدر السابق، ح ٤.



الفصل الخامس عشر

استخلاصات ونتائج






مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ومن المناسب أن نستخلص للقارئ الكريم - وهوفي نهاية مطافه حول بحوث الكتاب وفصوله - رؤية شاملة نختصر له فيها ما توصّلنا إليه من النتائج.

وأهم هذه النتائج أنّ ولاية الأئمةعليهم السلام حقيقة قرآنية مؤكّدة تظافرت عليها آيات قرآنية عديدة، منها الآيات التي تناولها هذا الكتاب بالدرس والتحليل والتفسر، وأنّ هذه الحقيقة ذات أبعاد وخصوصيات متعدّدة كالعلم الحضوري والعصمة والشهادة على أعمال الخلق.

هذه هي النتيجة النهائية للكتاب المستفادة من فصوله وبحوثه، والغرض من هذه النتيجة هوالردّ على ما قيل أويقال من أنّ الولاية مفهوم أوجده علماء مذهب معيّن وأنّه لايستند إلى أساس قرآني، وقد تبيّن أنّه مفهوم قرآني مؤكّد، فضلاً عمّا يستند إليه من زخم حديثي روائي صحيح واسع النطاق في مصادر المسلمين جميعاً، ومن الفرق الإسلامية كافة.

أمّا النتائج لفصول الكتاب فيمكننا بيانها بالعرض التالي:

نتائج البحث في آية الخلافة

١- إنّ الخلافة جعل إلهي لا دخل للبشر فيه.

٢- إنّها خلافة مطلقة لاتختص بجهة دون أُخرى.

٣- إنّ الملاك في هذه الخلافة هوالعلم بالمستخلف بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا ليتمكّن الخليفة من التعبير عنها والسير في خطاها،

وبالمخلوقات التي جعل خليفة عليها حتى يتمكّن من تدبير أمرها وادارة شؤونها.

٤- إنّ الخلافة لا تنحصر في شخص آدم عليه السلام وذلك بدلالة اعتراض الملائكة بسفك الدماء،كما أنّها لا تشمل المفسدين بل تختص بالصالحين ممّن حظي بعلم الاسماء.

٥- إنّ الغاية من خلق البشر في كلّ زمان إنّما هو وجود ذلك الخليفة الممثل لغاية الكمال الانساني، أمّا غيره فأتباع منقادون لحكمه وقيادته.

نتائج البحث في آية الإمامة

١- إنّ الإمامة المجعولة لشيخ الأنبياء ابراهيم عليه السلام لم تكن مقاماً معنوياً قربياً، وانّما هوموقع قيادي اجتماعياً وسياسياً.

٢- إنّه منح هذا المقام الرفيع بعد انتخابه للنبوّة والرسالة، وبعد أن تخطى امتحانات عديدة كبرى، مما يدل على أنّه كان مقاماً رفيعاً لايرتبط بالشريعة التي كانت قد اعطيت له قبل ذلك، بل هوراجع الى الهداية الحقّة التي تصل وتؤثر في كلّ من يستعدّ لها تكوينياً.

٣- إنّ الإمامة وبوصفها عهداً إليها لايمكن أن يصل إليها ظالم مطلقاً ولوكان ظالماً لنفسه، لصدق الظلم عليه حينئذ. وهذه هي العصمة.

٤- إنّ الإمامة عهد إلهيّ، يهبه الله تعالى لمن يختاره ويصطفيه من عباده الأشرفين؛ وليس أمراً تركه الله تعالى للنّاس حتى يختاروا وينتجبوا صاحبه.

٥- إنّ عنوان الإمامة يقتضي بنفسه أن يكون قول وفعل وتقرير الإمام

حجّة على الناس، فتجب عليهم طاعته، بخلاف عنوان النبوّة الذي يقتضي طاعة الأحكام الإلهية ولايقتضي بنفسه طاعة النبيّ، إلّا أن يأتي دليل في نفس الأحكام الإلهية يأمر بطاعته.

٦- إنّ اتّصاف الإمام بالهداية التكوينية يستلزم اطّلاعه على مجاري تلك الهداية ومساراتها في النفوس والسرائر.

نتائج البحث في آية اولي الأمر

١- إنّ للرسول ﷺ مقامين: مقام الرسالة الذي يعني كونه واسطة في ابلاغ الوحي الى الناس، ومقام القيادة وولاية الأمر والحكومة على الناس، وكما يجب على الناس طاعة الوحي والأحكام الإلهية المبلّغة إليهم يجب عليهم أيضاً طاعة الرسول في مقام زعامته وحكومته في كلّ ما يأمر به وينهى عنه.

٢- إنّ اقتران طاعته بطاعة الله من جهة واطلاق الأمر بطاعة الرسول من جهة ثانية يكشف عن عصمته في مقام زعامته وولايته فضلاً عن عصمته الثابتة في مقام نبوّته ورسالته بأدلة اُخرى.

٣- إنّ اطاعة اولي الأمر هي امتداد زعامة الرسول وحكومته، ولذا كانت طاعة الرسول وطاعة اولي الأمر واحدة في الآية ﴿وأطيعوا الرسول واولي الأمر منكم﴾.

٤- إنّ الظاهر من عنوان ﴿اولي الأمر﴾ أنّه عنوان مستمر يدخل في كلّ زمان ولا ينحصر بزمان دون آخر، فلا يوجد زمان يخلو منهم.

٥- إنّ المراد بأُولي الأمر أفراد معيّنون معصومون، فلا ينطبق هذا العنوان على أهل الحلّ والعقد من الأُمّة ولا على الهيئات الاجتماعية

والسياسية المشابهة.

٦ - إنّ مرجعية أُولي الأمر لاتختص بالمجالات الإدارية والتنفيذية والسياسية، بل تشمل المجال التشريعي أيضاً، بمعنى أنّهم يمتلكون مؤهلات كافية تسمح لهم بالكشف عن الإمتدادات التشريعية التي تحتاجها العصور التالية لعصر النبي ﷺ على أساس القرآن والسنّة النبويّة.

نتائج البحث في آية الولاية

١- إنّ مفهوم الولاية دالّ في جميع موارد استعماله على القرب والدنو بنحو يقتضي الاتّصال والتأثير بين طرفين، ويستلزم التصرّف والتدبير، أو المحبّة، أوالتسلّط، ولذا فإنّ لفظة «الولاية» ليست من الالفاظ المشتركة التي يكون استعمالها في مورد مخالفاً تماماً لاستعمالها في مورد آخر.

٢- إنّ الركوع هوالانحناء، وقد استعمل في الخضوع والتذلّل بنحومجازي.

٣- إنّ الله سبحانه هو وليّ المؤمنين أصالة، ومن الطبيعي أن تنتقل هذه الولاية منه تعالى الى الرسول ﷺ، وقد صرّحت الآية بانتقالها بعد الرسول الى الذين يتّصفون بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة أثناء الركوع، وهم غير المخاطبين الذين هم المولّى عليهم.

٤- إنّ انطلاق الولاية من الله ثمّ انتقالها من الرسول الى من يحملون تلك الأوصاف يدل على أنّ الولاية المقصودة ليست ولاية النصرة ولا المحبّة ولا المعاني الأُخرى، وإنّما هي ولاية التدبير والتصرّف.

٥- إنّ انطباق عنوان ﴿الذين آمنوا...﴾ على أميرالمؤمنين ﷺ بالنحوالذي

دلّت عليه روايات الفريقين ليس من باب استعمال لفظ الجمع في المفرد، وانّما من باب انطباق العنوان على مصداقه ومعنونه الذي قد تسمح الناحية النظرية والمفهومية بتعدّده، ولكنّ الواقع الخارجي لم يحصل فيه إلّا فرد واحد.

٦- إنّ هذه النتائج المستفادة من الآية لا ترتبط بالآية السابقة عليها، ولذا فهي لا تتأثر ولا تتغيّر سواء قلنا بوحدة السياق بين الآيتين أو أنكرنا ذلك.

٧- إنّ الإمام علياً عليه السلام قد احتجّ مراراً بهذه الآية على أحقّيته بالخلافة من غيره.

نتائج البحث في آية التبليغ

١- إنّ الآية وإن لم تصرّح بالحكم الذي تريد من النبيّ صلى الله عليه وآله تبليغه للناس إلّا أنّها أشارت إلى خصائص من شأنها أن تحدّد لنا وبوضوح الحكم المطلوب تبليغه.

٢- إنّ خصائص ذلك الحكم هي:

أ - إنّ ذلك الحكم قد بلّغ الى النبيّ صلى الله عليه وآله في زمان سابق إلّا أنّ النبيّ تريّث في تبليغه منتظراً سنوح الفرصة المناسبة.

ب - إنّ تريّث النبيّ صلى الله عليه وآله سببه الخوف من افتراق كلمة المسلمين وظهور المنازعات والأحقاد بينهم، وظهور الاعتراض من شريحة لها شأن وتأثير بحيث يخشى النبيّ تأثيرها السلبي ويحسب للأمر حسابه بحيث يحتاج إلى نصرة الوحي وعصمته من الناس.

ج - إنّ الحكم المطلوب تبليغه من نوع خاص بحيث إذا لم يبلّغ إلى الناس

فكأنما لم يقم النبيّ ﷺ بتبليغ الرسالة الإسلامية كلّها.

٣- إنّنا إذا استعرضنا الأحكام واستقرأنا التشريعات الإسلامية لانجد في تأريخ الوحي النازل على النبيّ ﷺ حكماً يحمل هذه الخصائص، بل لانجد موضوعاً له هذه الخصائص إلّا أن يكون ذلك الموضوع هومسألة من يخلف النبي ﷺ بعد وفاته، فهي مسألة تثير الاختلاف والابتعاد بين المسلمين، وتستحقّ من النبيّ التريث والتأمّل، ويكون عدم التبليغ فيها بمثابة عدم تبليغ أصل الرسالة، وذلك لارتباط مستقبل الرسالة ومصيرها بمسألة الخلافة، وحينئذ فلابدّ أن يكون الحكم المطلوب من النبيّ تبليغه الى الناس حكماً يتناول هذا الموضوع، وليس في مصادر المسلمين قول بذلك سوى ما قالته الشيعة من أنّ الآية نزلت في أمر الولاية والإمامة مستعينة في ذلك بروايات كثيرة جداً نقلت في مصادر المدرستين معاً.

نتائج البحث في آية الإكمال

١- إنّ الآية منفصلة عن الآية السابقة عليها، ولاترتبط معها بسياق واحد.

٢- إنّ المراد من اليوم الذي يئس فيه الكفّار وكمل فيه الدين هو يوم الغدير الأغرّ.

٣- إنّ علّة يأس الكفّار وأساس كمال الدين في ذلك اليوم هو تأسيس نظام الإمامة الذي يضمن مصير الرسالة ومستقبلها، ويجعلها رسالة فاعلة متحرّكة في الأزمنة اللاحقة لزمان النبيّ ﷺ.

٤- إنّ المراد بالنعمة الواردة في قوله تعالى:﴿**وأتممت عليكم نعمتي**﴾ هو ولاية أهل البيت ﷺ.

٥- إنّ الروايات المنقولة بطرق الفريقين قد برهنت على صحة هذه النتائج.

نتائج البحث في آية علم الكتاب

١- إنّ غرض الآية هو تعزيز موقف النبيّ ﷺ في المواجهة الشديدة التي كان يخوضها مع المنكرين لرسالته، واعانته على ابطال تأثيراتهم ومحاولاتهم التشكيكية، وذلك بالاعلان عن شهادتين عظيمتين تؤيّدان رسالته وتغنيانه عن شهادة الآخرين له، وتقلّلان من أهمية انكار المنكرين، وهما شهادة الله سبحانه وشهادة من عنده علم الكتاب.

٢- إنّ بإمكاننا التوصّل الى هوية وخصائص صاحب الشهادة الثانية - من عنده علم الكتاب - من خلال آية ﴿**وقال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به...**﴾ فإذاكان الذي عنده شيء من علم الكتاب يحظى بكرامة وعمل اعجازي كبير كالذي تتحدّث عنه هذه الآية فلابدّ أنّ الذي عنده علم الكتاب كلّه وهو صاحب الشهادة الثانية له شأن أعظم من ذلك، ولذاكانت شهادته بصدق الرسالة المحمدية ممّا يعزز قلب النبي ﷺ وموقفه من التحديات المعادية وممّا يقرن بشهادة الله سبحانه.

٣- وقد وردت روايات كثيرة من الفريقين تدلّل على أنّ صاحب الشهادة الثانية هو أمير المؤمنين ﷺ.

نتائج البحث في آية البيّنة

١- إنّ الشاهد المذكور في الآية لابدّ أن يكون ممّن ينتسب الى الرسول ويكون تالياً له وبمنزلة نفسه ﷺ.

٢- إنّ الشهادة المذكورة هنا لابدّ أن تكون عن تحمّل مسبق لها، والتحمّل المسبق لها يقتضي الحضور والمشاهدة لحقيقة النبوّة وللوحي النازل، وإلّا لا تكون الشهادة ذات معنى.

٣- إنّ الشاهد لابدّ وأن يكون معصوماً من الخطأ والنسيان لكي يقطع بصحة الشهادة.

٤- بالجمع بين هذه الآية وآية علم الكتاب نتوصّل الى أنّ الشاهد المذكور هنا هونفسه الموصوف بعلم الكتاب في تلك الآية، والذي دلّت الروايات من الفريقين على أنّه الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام.

نتائج البحث في آية المباهلة

١- منزلة أهل البيت عليهم السلام وفضيلتهم وهم عليّ والحسن والحسين وفاطمة، وأنّهم خاصّة النبيّ وأحبّ الخلق لديه وأعزّ الناس عليه، وأنّ عنوان «نفس النبيّ» ينطبق على عليّ عليه السلام كما صرّح به الرسول ﷺ في الأخبار واحتجّ به الإمام عليه السلام يوم الشورى.

٢- إنّ المشاركين للنبيّ ﷺ في المباهلة وهم أهل البيت عليهم السلام لابدّ وأن يكون لهم شأن وموقع في الرسالة، لأنّ اشراك النبيّ لهم في هذا الموقع الخطير

يدل على أنّهم يشاركونه في أمر الرسالة بحيث يحضرهم معه في مثل هذه الحادثة الخطيرة، وما ذلك إلّا بالولاية والإمامة التي بها يكمل الدين وتتمّ النعمة.

نتائج البحث في آية التطهير

١- إنّ الإرادة الإلهية على نوعين: تشريعية يمكن للمراد منها أن يتخلّف، وتكوينية تتّصف بحتمية التحقّق وعدم امكانية تخلّف المراد عن الارادة.

إنّ الارادة التشريعية في مجال التطهير من الذنوب والآثام ارادة عامّة شاملة لكل البشر، إذ إنّ الله يريد الطهارة من الذنوب لجميع أفراد البشر، وحيث انّ الآية في سياق بيان خصوصية ومنة لله على أفراد معيّنين فلابدّ وأن تكون إرادة التطهير المذكورة إرادة من نوع آخر، وما تلك إلّا الإرادة التكوينية.

٢- إنّ عنوان «أهل البيت» لايشمل نساء النبيّ ﷺ لأنّ القصر المذكور في الآية ليس قصر قلب، وذلك لأنّ الضمير في هذا المقطع من الآية مذكّر دون المقطع السابق الخاص بنساء النبي حيث جاء الضمير فيه مؤنثاً، ممّا يدل على انفصال هذا المقطع عن مقطع نساء النبيّ من الآية.

٣- وقد وردت روايات جمّة من الفريقين تدل على نزول الآية في شأن أهل البيت عليهم السلام.

نتائج البحث في آية المودّة

١- إنّ من سنن الرسالات والنبوات أنّ الانبياء لايطلبون الأجر من الناس،

كتأكيد منهم على عدم وجود غرض دنيوي فيما يقومون به من الدعوة الى التوحيد، وحتى لاتكون هناك أرضية تساعد على التشكيك في صدق الأنبياء عليهم السلام.

٢- إنّ هذه السنّة ثابتة لا استثناء فيها.

٣- إنّ آية المودّة ليست استثناءاً من تلك السنّة، لأنّ الأجر المذكور فيها ليس أجراً حقيقياً، وانّما هوموقف رسالي مبدأي طالب به النبيّ صلى الله عليه وآله أُمته كضمان لاستقامة الأُمّة ومستقبل الرسالة، وإنّ توصيف هذا المطلب بالأجر جاء من أجل الباسه لباس المطلب الوجداني والخطاب العاطفي الذي يوجّهه الرؤساء لأُمم كاسلوب من أساليب التأكيد عليه، فكأنّ الرسول صلى الله عليه وآله يريد أنْ يقول: ان كنتم تعترفون لي بحقوق عليكم فانّ الحقّ الذي أُريد استيفاءه منكم هوأن تستقيموا على هذه الجادة، ولن تستقيموا إلّا بمودّة أهل البيت عليهم السلام، ولذا فإنّ مودّتهم حقّ مؤكّد عليكم من الله ومنّي.

٤- قد دلّت الروايات الكثيرة المروية بطرق الفريقين على أنّ القربى المقصودين هم أهل البيت عليهم السلام.

نتائج البحث في آية الشهادة

١- إنّ الله سبحانه قد منّ على المؤمنين إذ جعلهم أُمة وسطاً باعتدالها التام وابتعادها الكامل عن الإفراط والتفريط.

٢- إنّ الغرض من هذا الجعل والامتنان هوالوصول بهم الى مستوى الشهادة على الناس وشهادة الرسول عليهم.

٣- إنّ الشهادة على الناس لابدّ وأن تتقوّم بحضور مسبق ومشاهدة سابقة لوقائع الأعمال وحقائقها.

٤- إنّ الشهيد على أعمال الناس لايستطيع أن يقيم تلك الأعمال ويصفها بالشرّ أوالخير ما لم تستوي الشهادة لديه الى حدّ الاطّلاع على النوايا والسرائر.

٥- إنّ مثل هذه الشهادة لايمكن أن تحصل لجميع أفراد الأُمّة الإسلامية، لأنّها تتطلّب منزلة خاصة ودرجة قربية رفيعة، فلابدّ أن يكون الغرض من وصف الأُمّة بالشهادة هوأنّ هذه الشهادة موجودة في هذه الأُمّة، أي أنّ في هذه الأُمّة من سيصل الى مستوى الشهادة على أعمال الناس.

٦- إنّ الشهداء الذين سيحوزون هذه المرتبة لابدّ وأن يكونوا قد بلغوا درجة العصمة، وذلك بحكم اطلاق الوسطية المجعولة.

٧- إنّ هؤلاء الشهداء مطّلعون على نوايا وضمائر الناس، وهذا شيء من علم الغيب الذي يعطيه الله لمن ارتضاه من عباده.

٨- إنّ هؤلاء الشهداء يمثّلون واسطة الفيض الإلهي والولاية التكوينية بحكم ما يتمتّعون به من العلم الحضوري، كما برهن في محله.

٩- إنّ الحياة الإنسانية لاتخلومن وجودهم، فلابدّ من شاهد منهم يشهد هذه الحياة بكل عصورها وأزمنتها، فلا يخلوعصر من شهادة لشاهد منهم.

نتائج البحث في آية الاجتباء

١- إنّ الله اجتبى هذه الأُمّة، ثمّ جعلها شاهدة على الناس، وجعل الرسول شاهداً عليها، فامتنّ عليها بالاجتباء وبالشهادة على الناس وبشهادة الرسول ﷺ عليها.

٢- إنّ هذا الاجتباء يلازم الإسلام بأعلى مراتبه والتسليم بأرقى درجاته، بدليل ربط الآية بين هذا الإسلام وبين ابراهيم الخليل عليه السلام ﴿هو سمّاكم المسلمين﴾، ومعلوم أنّ ابراهيم الخليل عليه السلام يوم كان نبيّاً خليلاً لله طلب من الله سبحانه أن يهبه وابنه اسماعيل مرتبة التسليم، ممّا يدل على أنّه يطلب مقاماً شامخاً ومرتبة عظيمة وهي المرتبة القصوى من الإسلام.

٣- وممّا سبق يتّضح أنّ الاجتباء كان خاصّاً بمن بلغ رتبة التسليم الإبراهيمي.

٤- إنّ الشهادة مترتبة على الاجتباء، ولذا فإنّ المقصود بالاجتباء يتمتّعون بصفة الشهادة على أعمال الناس بما في ذلك النوايا والمنطلقات القلبية.

نتائج البحث في آية رؤية الأعمال

١- إنّ أعمال الناس تخضع لمشاهدة الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين المصطفين.

٢- إنّ هذه المشاهدة تتمّ قبل يوم القيامة.

٣- إنّ الرؤية المقصودة ليست الرؤية البصرية الاعتيادية، لأنّ هذه الرؤية لا يصحّ ذكرها تخصيصة للرسول والمؤمنين.

٤- لابدّ أن تكون الرؤية المقصودة من النوع المشتمل على اشراف واطّلاع على الحقائق والخفايا.

٥- إنّ هذه الرؤية لا تتوفّر لجميع المؤمنين، فلابدّ من أن يكون المقصود برؤية المؤمنين رؤية بعض منهم حظي بمنزلة رفيعة، بحيث تكون رؤيتهم

مقارنة لرؤية الرسول ﷺ.

٦- وهذا هو المستفاد من روايات عرض الأعمال على الرسول ﷺ وعلى الأئمة المعصومين التي وردت في تفسير الآية الشريفة.

الخلاصة

إذا أردنا أن نجمع كلّ هذه النتائج القرآنية في نقاط أخيرة، فهي كالتالي:

١- إنّ الإمامة ليست مقاماً عبودياً، وإنّما موقع قيادي وتشريعي أيضاً.

٢- إنّها تحتاج الى جعل إلهي، ولا مدخلية لاختيار الناس فيها.

٣- إنّها تمثّل غاية الكمال الإنساني.

٤- إنّها تحتاج الى العصمة من الخطأ والنسيان والذنوب.

٥- إنّ من خصائصها العلم بالاسماء وعلم الكتاب والعلم الشهودي الحضوري.

٦- إنّ الأئمة شهداء على الناس، يرون أعمالهم ويشهدون نواياهم وسرائرهم.

٧- إنّهم هم الأُمّة الوسط، والأفراد الذين اجتباهم الله شهداء على الناس، والرسول شهيد عليهم.

٨- إنّ الحياة الإنسانية لا تخلو في دور من الأدوار من شهادة واحد منهم عليها.

٩- إنّهم واسطة الفيض الإلهي، وانّهم يتمتّعون بالولاية التكوينية.

١٠- إنّ لأهل البيت مدخلية في الرسالة، وبقية الأُمّة أتباع لها ولهم.

١١- إنّ الإمام هو الذي عنده علم الكتاب، وانّ منزلته أعلى من منزلة من

كان ﴿عنده علم من الكتاب﴾ الذي حظي بتلك الكرامة والمعجزة المعروفة.

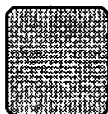
١٢- إنّ الإمامة اكمال للدين، وانّها هي النعمة، وهي الإتمام للنعمة، وان الرسالة لاتتمّ بدونها، ولا تستقيم الأُمّة بغيرها.

١٣- إنّ الإمام هونفس الرسول، وأنّ طاعتهما واحدة.

١٤- إنّ الأئمة هم أُولو الأمر لهذه الأُمّة.

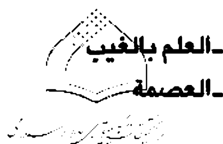
١٥- إنّ الأئمة قيادة سياسية ومرجع تشريعي بعد الرسولﷺ.

هذه هي خلاصة النتائج القرآنية التي توصّلنا إليها عبر بحوث هذا الكتاب وفصوله، وهي الأُسس العريضة والعلامات الشاخصة لنظرية الولاية والإمامة في مدرسة أهل البيتعليهم السلام، ونحن إذ نعرض هذه النتائج على ذوي الرأي الحرّ والفكر المستقيم إنّما نريد أن نؤكّد على قرآنية هذه النتائج ردّاً على زعم الزاعمين بأنّ ما يقوله أتباع أهل البيتعليهم السلام عن أئمتهم لايحظى بأساس قرآني، والحمد لله أوّلاً وآخراً.

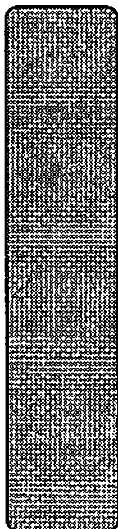


الخاتمة

بحث موجز في بعض خصوصيات الإمامة



- العلم بالغيب
- العصمة





مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ونحن في نهاية المطاف من الكتاب نشعر بضرورة اشباع البحث في خصوصيتين مهمّتين من خصوصيات الإمامة، هما: العلم بالغيب، والعصمة، ذلك أنّنا وإن كنّا قد تناولناهما في طيّات البحوث السابقة، إلّا أنّ سير البحث كان يقتضي المرور الخاطف بهما.

أوّلاً - العلم بالغيب

مرّ بنا أنّ من خواصّ النبيّ ﷺ والأئمة عليهم السلام علمهم بأعمال الناس وشهودهم على ما يجري في دخائلهم، وذلك كجزء مما حظوا به من فيض العلم الإلهي بالغيب.

وقد يستشكل على هذه الخاصية بعدّة اشكالات هي:

١- انّها منافية للآيات الدالّة على انحصار العلم بالغيب بالله تعالى، كقوله عزّوجلّ **﴿وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلّا هو﴾**(١) وقوله تعالى: **﴿قل لايعلم من في السماوات والأرض الغيب إلّا الله﴾**(٢).

ومنافية كذلك للآيات الدالّة على عدم علم النبيّ ﷺ بالغيب، كقوله تعالى: **﴿وما أدري ما يفعل بي ولا بكم﴾**(٣) وقوله تعالى: **﴿ولوكنت أعلم الغيب**

---

(١) الأنعام: ٥٩.

(٢) النمل : ٦٥.

(٣) الأحقاف : ٩.

لاستكثرت من الخير﴾[١].

٢- إنّها منافية لسيرتهم العملية من التوسّل بالأسباب الطبيعية لتحصيل العلم بالأشياء، بل ومشاورة غيرهم في الأُمور، كما هوالمأمور به في الكتاب العزيز.

٣- عدم امكانية تصحيح ما أقدموا عليه طيلة حياتهم من أعمال أظهرت النتائج أنّها كانت صادرة عن جهل بالعواقب، كسوق الجيش الى معركة خاسرة، وزج النفس والأهل والأصحاب في قتال فاشل. فلوكانوا عالمين بالنتائج لكان عملهم غير سائغ عقلاً وشرعاً، فلتصحيح سيرتهم شرعاً لابدّ من القول بجهلهم بالعواقب.

وللإجابة على هذه الاشكالات لابدّ من بيان أُمور ثلاثة هي:

١- إنّ العلم بالغيب يراد به معانٍ هي:

الف: العلم بما غاب عن حواس الانسان وحصل عن طريق البرهان العقلي أوالنقلي، ففي أوائل سورة البقرة وصف القرآن الكريم المتقين بأنّهم يؤمنون بالغيب، الذي يؤمنون به، إذ لا إيمان إلّا بعد العلم. ولابد أن يكون المراد بالغيب الذي علموا به هوما غاب عن الحواس وتمّ تحصيله بدليل عقلي كالتوحيد، أودليل نقلي كأحوال يوم القيامة.

ب: العلم بما غاب عن الحسّ والعقل معاً وتمّ التوصل إليه عن طريق النقل خاصة، كالعلم بغلبة الروم على الفرس قبل وقوع المعركة، وذلك عن طريق

(١) الأعراف : ١٨٨.

إخبار القرآن في سورة الروم، وكالعلم بالحوادث التأريخية التي لا يمكن التوصل إليها عبر الأسباب الطبيعية، وقد قال تعالى: ﴿**تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل**﴾(١).

ج: العلم بما لا يستطيع الانسان التوصّل إليه بحسّ ولا عقل ولانقل.

فعنوان العلم بالغيب يشمل هذه المعاني الثلاثة، ولاشك في انطباقها عليها معاً، وكلّ من حصل له أحد المعنين الأوّل أو الثاني عدّ عالماً بالغيب دون أن يستتبع ذلك اشكالاً أوتعارضاً مع خصوصية الله سبحانه وتعالى في العلم وانحصار علم الغيب به.

وقد رأينا أنّ القرآن نفسه قد استعمل وصف العلم بالغيب في الانسان، ذلك أنّ الله سبحانه قد خصّ نفسه بالمعنى الثالث من علم الغيب وإن كان المعنى الأوّل والثاني أيضاً من شؤونه، لاعتمادهما على النقل عن الله سبحانه، ولكن بما أنّ الله سبحانه قد فتح قناة النقل الى الانسان عبر الكتب السماوية والانبياء وأصبحت بعض علوم الغيب في متناوله وصحّ وصف الانسان بعلم الغيب لذا بقي المعنى الثالث خاصاً بالله سبحانه، وهوالمعنى المقصود في الآيات الدالة على انحصار علم الغيب به، ومن هنا صح وصف الانسان بعلم الغيب بمعنى ما، وصحّ نفي هذا العلم عنه وحصره بالله بمعنى آخر، ولايلزم من هذا النفي والاثبات تناقض ولا تعارض، كما إذا اختصّ الله سبحانه عبداً من عباده بوحي أوالهام وأطلعه على بعض الحقائق الغيبية، ولعلّ أميرالمومنين عليه السلام

---

(١) هود: ٤٩.

يشير الى ذلك بقوله: «انّما هو تعلّم من ذي علم»(١).

٣- إنّ العناوين قد تطلق على الانسان -كنفس عنوان الانسان - ويكون الملحوظ فيها مرتبة معينة، وقد تطلق مرة أُخرى عليه ويراد بها مرتبة أُخرى وهكذا ثالثة ورابعة، فإذا اطلقت وأُريد بها مرتبة معينة فهذا لايعني نفي المراتب الأُخرى، واذا نفيت المرتبة الدانية منه فهذا لايعني ولايستلزم نفي المرتبة العالية، والشيء المهمّ هوأنّ ثبوت مرتبة لايستلزم نفي أُخرى، ونفي مرتبة لايستلزم ثبوت أُخرى أعلى ولا أدنى.

فقد يطلق عنوان الانسان ويراد به المرتبة الجسدية المادية فقط، مثل قوله تعالى:﴿**خلق الانسان من صلصال كالفخّار**﴾(٢)، وقد يلاحظ فيه المرتبة الروحية فقط دون لحاظ المرتبة البدنية السابقة، مثل قوله تعالى: ﴿**قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكّل بكم**﴾(٣) فالآية خطاب للانسان وقد لوحظ فيها جانب الروح فقط لأنّه هوالجانب المقصود بالوفاة وهوالجانب الذي يستوفى عبر ملك الموت، وقد يلاحظ مجموع الجانبين، وقد يلاحظ مرة رابعة بجانبيه المادي والروحي زائداً الكمالات المعنوية التي حازها، فهذه كلّها مراتب متدرّجة لعنوان الانسان الذي قد يطلق ويراد به واحدة منها، دون أن تدلّ هذه الارادة على نفي أوثبوت المرتبة السابقة أواللاحقة.

---

(١) نهج البلاغة: رقم الخطبة ١٢٨ / ص١٨٦.

(٢) الرحمن : ١٤.

(٣) السجدة: ١١.

ففي قوله تعالى: ﴿قل انّما أنا بشر مثلكم﴾[١] لوحظت المرتبة البشرية الاعتيادية من الرسول ﷺ، وهذا اللحاظ لايدلّ على نفي المرتبة الأعلى، ولذا عقّبت الآية بإثبات الوحي للرسول ﷺ. وفي قوله تعالى: ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾[٢] تمّت الاشارة الى المرتبة البدائية من الخلقة الفاقدة للهداية الإلهية، ولايلزم من ذلك انتفاء المرتبة العالية له ﷺ.

وبهذا الاسلوب يمكن حلّ التعارض الظاهري بين طوائف الآيات والروايات المتحدّثة عن قضايا من هذا القبيل كقضية علم الغيب التي وجدنا لها مراتب عديدة، فاذا اطلق هذا العنوان واريد به مرتبة معينة فهذا لايعني انتفاء المرتبة الأعلى ولا ثبوت المرتبة الأدنى، فقد تثبت المرتبة الأعلى بدليل آخر.

٣- إنّ العلم إمّا حضوري يتعلّق بعين المعلوم بلا واسطة كعلم الله تعالى بذاته وصفاته وأفعاله، وإمّا حصولي ناشئ من الصور الحاصلة في القوة المدركة كعلمنا بالأعيان الخارجية والأمور الاعتبارية بواسطة الصور والمفاهيم.

والعلم الحضوري بالنسبة للانسان هو علمه بنفسه وقواه وأفعاله وانفعالاته، كما أنّ علمه الحصولي يحصل له بتأثير من الخارج فيه عبر الحواس الظاهرة والباطنة التي تعمل كالنوافذ المنفتحة على الخارج لتلتقط صور الأشياء وتعكسها على القوى الإدراكية، ثمّ يقوم الذهن بفعالية ايجابية من شأنها الاستنتاج وتحصيل علم حصولي جديد، وهذا لايتنافى مع كون نفس المفاهيم

---

(١) الكهف: ١١٠.

(٢) الضحى: ٧.

والصور العملية معلومة للنفس بالعلم الحضوري، فإنّها من هذه الحيثية تكون من أفعالها أو انفعالاتها.

حينئذ يمكننا أن ننظر للانسان من عدّة زوايا ونطلق عليه أحكاماً مختلفة لكنّها غير متعارضة، فبحسب النظر المتعارف هذه العلوم هي العلوم التي تعد علوماً انسانية، وبحسب منظار آخر هوالمنظار الرابط بين الانسان والخالق يصبح هذا الانسان فاقداً لأيّ كمال وجودي من علم وقدرة، وكلّ ما عنده هبة من الله سبحانه إليه، وبحسب منظار ثالث الى بعض أفراد الانسان ممّن ارتقى الى مرتبة عالية في الكمال فوق ما يناله الانسان العادي، فأوتي من عند الله علماً إلهياً مختفياً عن مدارك الناس ومحتجباً تحت أستار الغيب، وأُوتي قدرة ربّانية على ما يعجز عنه الانسان الاعتيادي كإحياء الموتى وشفاء المرضى، بل الخلق بإذن الله تعالى.

واذا افترضنا اجتماع هذه الأحكام الثلاثة في شخص واحد فإنّها لاتعدّ أحكاماً متنافية، لأنّ كلّ واحد منها ناظر إلى جهة معيّنة دون أُخرى، كما مرّت الاشارة إليه في النقطة الثانية.

فعلم عيسىعليه السلام بماكان الناس يدّخرونه في بيوتهم وقدرته على ابراء الأكمه والابرص لايعدّ أن بحسب النظر المتعارف - النظر الأوّل - علماً وقدرة إنسانيين، وهوبحسب النظر الثاني ملك لله سبحانه وتعالى. وبحسب النظر الثالث هي من مقامات عيسى ولوازم درجته الرفيعة عند الله، ولذا كان بإمكانه القول ﴿إنّي أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وابرىء الأكمه

والأبرص وأُحيي الموتى بإذن الله وأُنبئكم بما تأكلون وما تدّخرون في بيوتكم﴾(١)

فبوسعه طبقاً للمنظار الثالث أن ينسب هذه القدرة وهذا العلم الى نفسه، وله أن يقول بحسب النظر الثاني: إنّي لا أملك شيئاً من العلم والقدرة، وله أن يقول بحسب المنظار الأوّل: إنّ لي ما لكم من العلم والقدرة، ولكن يعلمني ربّي ما لايعلمكم، ويقدرني على ما لاتقدرون عليه.

ثمّ إنّ العلم قد يتعلق بأُمور منتظمة في نظام ضروري من العلل والمعاليل بما في ذلك إرادة الانسان واختياره، ومثل هذا العلم لا تأثير له في الارادة لأنّه كاشف عن مجموع المراد والارادة المنبثقة عن مبادئها، بخلاف سائر العلوم الحصولية التي تؤثّر في ظهور الارادة، سواء حصلت من الاسباب العادية أوغيرها.

بعد بيان هذه الأُمور والمقدّمات الثلاثة نأتي الى مسألة علم النبيّ ﷺ والأئمة ﷺ بالمغيبات، فإنّه قد يراد بهذا العلم، العلم الحضوري، وقد يراد به العلم الحصولي، وعلى كلا الاحتمالين يخلوالأمر من الاشكال، فإذا قلنا انّه علم حضوري كان بلحاظ مقامهم النوري الذي هوفوق وعاء الحركات والتغييرات والتقدّمات والتأخّرات الزمانية، ووصولهم الى هذا المقام وان كان بلحاظ المادة ووعاء الحركة والحلول في عالم الأجساد البشرية متأخّراً زماناً، إلّا أنّه بحسب المرتبة الوجودية وبلحاظ القوس النزولي متقدّم دهراً، وهذا أمر لا تسعه الأفهام المنغمرة في الماديات، ولاينبغي القاؤه اليهم، ويكفي أنّ الروايات دلّت على أنّ الله سبحانه قد خلق نورهم قبل أن يخلق أيّ شيء،

وانتقل هذا النور الى صلب آدم ثمّ مازال ينتقل في أصلاب أبنائه حتى استقرّ أخيراً في الاجساد التي أصبحت تمثّلهم ويشار بها إليهم.

واذا قلنا انّه علم حصولي فيتصوّر له معنيان:

أحدهما: العلم بالنظام الضروري بما فيه الارادة ومبائها، وقد سبق أنّ مثل هذا العلم لايكون من مبادئ الارادة ولا موثّراً فيها، بل علم بالعلوم التي تشكّل مبادئ الارادة وبالارادة المنبثقة عنها وبالمراد الذي يحصل بها.

وثانيهما: العلم بالأشياء الجزئية عن طريق الوحي والالهام، وهذا كالعلم العادي يؤثر في الارادة، لكن مرتبة وجوده أدنى من مرتبة العلم بالنظام الضروري، وهي مرتبة من النفس تتجلّى فيها الارادة.

ولا يرد على شيء من هذه العلوم اشكال اختصاص العلم بالغيب بالله تعالى، لأنّها كلّها حاصلة بنوع من التعليم المناسب لها من الله سبحانه، وهذا غير العلم بالغيب بالمعنى الثالث المختصّ بالله سبحانه، وبذا يندفع الاشكال الأوّل المتعلّق بانحصار علم الغيب بالله سبحانه وتعالى.

أمّا الاشكال الثاني المتعلّق بسيرة النبيّ ﷺ والأئمة عليهم السلام التي جرت على التماس الأسباب الطبيعية للعلم فجوابه يختلف باختلاف نوع العلم الذي ينسب اليهم عليهم السلام، فإذا قلنا انّه علم حضوري أو حصولي من القسم الأوّل وهو العلم بالنظام الكلّي، فجواب هذا الاشكال أنّ كلاً من هذين العلمين وان كان متعلّقاً بالحوادث إلّا أنّه انّما يتعلّق بها بما لها من العلل والشرائط والمعدّات:

والتماس الأسباب الطبيعية للعلم يتوافق مع هذه الخصوصية لأنّه يتماشى

مع النظام الكوني.

واذا قلنا بأنّ علمهم عليهم السلام هوعلم حصولي بمعنى الوحي والإلهام، فجواب الاشكال المذكور حينئذ هو أنّ وجوه قناة الوحي والالهام التي تمدّهم بعلم الغيب لايلغي الحاجة الى القناة الطبيعية للاكتساب العلمي فليكن الوحي والالهام مصدراً لما يعجزون عن اكتسابه من العلوم بالأسباب الطبيعية، ويبقى عليهم التوسّل بتلك الأسباب الطبيعية لتحصيل العلوم الأُخرى كما يفعل سائر البشر.

أمّا الجواب على الاشكال الثالث فيختلف كذلك باختلاف نوع العلم المنسوب الى النبيّ صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام، فإذا قلنا انّه علم حضوري أو علم حصولي بالنظام الضروري الكوني، فجواب الاشكال أنّ هذين العلمين غير مؤثّرين في الإرادة كما مرّ، بمعنى أنّ علم النبيّ صلى الله عليه وآله أوالإمام المسبق بفشل معركة معينة لايؤثّر في تصميمه ولا يغيّر ارادته في التوجّه نحوهذه المعركة.

واذا قلنا انّ علمهم حصولي ناشئ عن الوحي والالهام، وهومؤثّر في ارادة النبيّ صلى الله عليه وآله والإمام بحيث يدفعه الى معركة ناجحة، ويمنعه عن معركة فاشلة، فجواب الاشكال أنّ أحداً لم يقل بأنّ كلّ ما عند النبيّ صلى الله عليه وآله أوالإمام من العلم مصدره وحي والهام، وانّما الذي قلناه هوأنّ علومه الغيبية مستفادة من هذا الطريق، والاشكال يتمّ على فرض ثبوت أنّهم الهموا علماً بفشل معركة ما ثمّ أقدموا عليها، ولا طريق لاثبات ذلك إلّا بإخبار النبيّ صلى الله عليه وآله أوالإمام عن هذا العلم المستلهم، وحيث لم يحصل الإخبار فلا مجال لإثبات الاشكال.

وبتعبير آخر: إنّ الوحي والإلهام قناة إلهية قد تزوّد المعصوم ببعض

المعلومات وقد تحجب عنه البعض الآخر، والاشكال الثالث متوقّف على اثبات أنّ هذه القناة قد زوّدت المعصوم بخبر فشل المعركة قبل أوانها ومع ذلك أقدم عليها، ولا طريق لاثبات حصول ذلك الخبر لديه ﷺ، على أنّ المصالح والمفاسد لا تدرك بنتائجها القريبة، والمعارك لاتقاس بما يظهر في الوهلة الأُولى من هزيمة أوانتصار، فقد تكون الهزيمة القريبة مقدّمة لانتصار خالد كبير، وقد تؤدّي المصالح الظاهرية الى مفاسد كبيرة حقيقية، ففشل ثورة أومعركة أقدم عليها النبيّ ﷺ أوالإمام ﷺ لايدل على أنّ المعصوم قد تسبّب في خسارة، وأنّ علمه المسبق المفترض بهذه النتيجة يعني وقوعه في الإثم، ومن هنا نرى الخسارة والربح والهزيمة والانتصار أُموراً تختلف العقول فيها، فما عدّه جماعة خسارة يعدّه آخرون ربحاً، وما اعتبره قوم هزيمة يعدّه آخرون انتصاراً.

ثانياً – العصمة

ومن الخصائص المطلوبة في الإمامة العصمة، وقد مرّت الاشارة الى ذلك مع قدر من الاستدلال عليها في جملة من بحوث الكتاب، إلّا أنّ هناك أبعاداً ضرورية أُخرى لم يجر البحث فيها وهي ممّا يستحق ذلك.

فإضافة الى أنّ الدليل العقلي قد دلّ على عدم جواز اسناد الرسالة والإمامة الى من ارتكب الخطيئة ومارس الإثم وظهر منه الذنب، فازدرته الأعين واستصغرته النفوس، وهبطت مكانته في أعين الناس، وضرورة إسناد هذين

المنصبين الى من تطهّر عن ذلك، واتّصف بكل كمال انساني رفيع، انسجاماً مع قوله تعالى:﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾[١] وقوله تعالى:﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة﴾[٢].

إضافة الى هذا الدليل العقلي فإنّ الدليل النقلي القرآني قد دلّ تصريحاً تارة، وتلويحاً تارة أُخرى على عصمة الأنبياء والأئمة عليهم السلام.

فمن ذلك قوله تعالى:﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً * إلّا من ارتضى من رسول فإنّه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً* ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربّهم وأحاط بما لديهم وأحصى كلّ شيء عدداً﴾[٣]. فإنّ الظاهر من هذه الآيات أنّ الوحي مصون من الالقاءات الشيطانية من نقطة انطلاقه وصدوره الى نقطة وصوله الى الناس، وأنّ هذه الصيانة تتمّ بارسال الله سبحانه الملائكة المراقبين المحافظين عليه، وما ذلك إلّا تعبير عن عصمة الرسول في مجالات التبليغ وايصال الأحكام الإلهية.

ومنها: قوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسول إلّا ليطاع بإذن الله﴾[٤] حيث نصّت هذه الآية على وجوب الطاعة المطلقة للرسول في جميع ما من شأنه أن يطاع فيه من الأفعال والأقوال والآداب.

فلولم يكن الرسول معصوماً لاحتمل بحقه الخطأ والنسيان وارتكاب المخالفة، ولأصبح واجباً على النّاس اطاعته حتى في هذه الموارد، وهذا يعني

---

(١) الأنعام: ١٢٤.

(٢) القصص: ٦٨.

(٣) الجن: ٢٦-٢٨.

(٤) النساء: ٦٤.

أنّ الله قد أمر بالخطأ والعصيان، وهومستحيل، فمن أجل دفع هذه النتيجة المستحيلة لابدّ من القول بعصمة الرسول عن كلّ ذلك.

ومنها قوله تعالى: ﴿**واصبر لحكم ربّك فإنّك بأعيننا**﴾[١] وقوله تعالى: ﴿**ولولا أن ثبّتناك**﴾[٢]، فهل يعقل صدور الذنب والخطأ والنسيان ممن كان محروساً بعين الله ومغموراً برعايته الشديدة، ويتوالى إليه التثبيت منه تعالى باستمرار؟ وما معنى ﴿**إنّك بأعيننا**﴾ و﴿**ثبّتناك**﴾ إذا كان النبيّ لايزال يصدر منه الذنب والخطأ والنسيان؟

ومنها قوله تعالى: ﴿**فبعزّتك لأغوينهم أجمعين * إلّا عبادك منهم المخلصين**﴾[٣] وهواعتراف من مبدأ الضلال - ابليس - بالعجز عن اغواء من أخلصهم الله واصطنعهم لنفسه، وقد قال تعالى في وصف يوسف ﷺ: ﴿**كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انّه من عبادنا المخلصين**﴾[٤] ممّا يدلّ صراحة على أنّ الله سبحانه يتعهّد أنبياءه بالحراسة والحماية والتسديد وكلّ ما من شأنه صرف الفحشاء والعمل السيّء عنهم، وأنّه تعالى قد استخلصهم وجعلهم من المخلصين، فإذاكان من صرف عنه السوء والفحشاء قد أصبح من المخلصين فلا شك أنّ من وصف بأنّك (بأعيننا) وبالتثبيت الإلهي (ثبّتناك) سيكون في رتبة أعلى ومقام أرفع، وهل مؤدّى ذلك كلّه إلّا العصمة؟

---

(١) الطور: ٤٨.

(٢) الاسراء: ٧٤.

(٣) ص: ٨٢-٨٣.

(٤) يوسف: ٢٤.

ولسنا هنا بصدد احصاء الآيات الدالة بنحو من الأنحاء على عصمتهم عليهم السلام وبيان وجوه هذه الدلالة وتقريباتها، ولكن غرضنا هوالتنبيه على أنّ عصمة الأنبياء والأئمة أمر يقتضيه الوجدان والفطرة السليمة. وأنّ التشكيك في ذلك لاينطلق من أساس مقبول، وأساسه الوحيد هوقياس شخصية هؤلاء الصفوة على شخصية سائر الناس، ومعلوم أنّ صاحب الذوق المرير يجد كلّ المأكولات في فمه مرة، ومن يرتدي نظارة صفراء يرى كلّ شيء حوله أصفر، وهولايدري أنّ المرارة والاصفرار لا وجود لهما في الأشياء التي يتذوقها ويراها، وإنّما هما موجودان في فمه ونظارته، فالعيب منحصر فيه وقد عمّمه الى غيره.

ومن هنا تصدّى الأئمة عليهم السلام لدفع ما قيل من الشبهات حول عصمتهم وعصمة الأنبياء تنزيهاً لساحتهم من الشين والدرن.

وقد تمسّك المنكرون لعصمتهم عليهم السلام بأمور تصوّروها أنّها أدلّة كافية للانكار، وهي ليست كذلك، ومن الضروري أن نستعرض بعضها لبيان مدى ضعفها، وكلّ ما تمسّك به هؤلاء آيات قرآنية يفهم من ظاهرها نسبة الذنب والخطأ والنقص للنبي صلى الله عليه وآله.

منها قوله تعالى: ﴿**واستغفر لذنبك**﴾[1] وقوله تعالى: ﴿**إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً * ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر**﴾[2] ولكي نرد عليهم تمسّكهم بهذه الآيات لابد من أن نطّلع أوّلاً على المعنى اللغوي للذنب.

---

(١) غافر: ٥٥، محمد: ١٩.

(٢) الفتح: ١ ـ ٢.

قال الراغب في «المفردات»: «الذنب ـ في الأصل ـ الأخذ بذنب شيء، يقال: ذنبته، أصبت ذنبه. ويستعمل في كلّ فعل يستوخم عقباه، اعتباراً بذنب الشيء، ولهذا يسمّى الذنب «تبعة» اعتباراً لما يحصل من عاقبته»[1]، ويقرب من ذلك ما قاله اللغويّون الآخرون.

فالذنب إذن هو الفعل الذي تخاف عاقبته، وهو على أنحاء:

١ ـ التمرّد على القوانين المشرعة لتنظيم الحياة الاجتماعية، إذ يعدّ المتمرّد عليها مذنباً فيناله العقاب المناسب لذنبه، وهذا هو الذنب الوضعي المستتبع للجزاء والعقوبة الوضعية.

٢ ـ الخروج على القوانين الأخلاقية، ذلك أنّ الأخلاق الفاضلة كالشجاعة والعفّة والعدالة بكلّ تفريعاتها وما يبتني عليها وإن كانت جميعاً أوصافاً نفسية لا ضامن لإجراءها وتنفيذها عملياً لأنّها بنفسها ملكات لا اختيارية، إلّا أنّها بلحاظ المقدّمات والطرق المؤدّية إليها تعدّ أوصافاً اختيارية، ولذا فهناك أوامر عقلية بتحصيل تلك الفضائل، ونواهٍ عقلية عن اجتناب الرذائل من أضدادها. ولذا يعدّ المتخلّف عنها مذنباً، وبإزائه توجد عقوبة اجتماعية أو قانونية مناسبة.

٣ ـ عدم الإتيان بالعمل على هيئته المثلى وبما يلزمه من الرسوم والآداب والأعراف، فصدور مثل هذه الحالة من الإنسان البسيط العادي لا يعدّ ذنباً، فلا يلام ولا يعاقب، لكنّها بلحاظ الإنسان الآخر ذي المنزلة والمقام الرفيع بين الناس قد يشار إليها كعيب وتدرج في قائمة النقائص، وهذا هو معنى القول

---

(١) الراغب الاصبهاني، الحسين بن محمد، المفردات: ص ١٨١.

المشهور «حسنات الأبرار سيئات المقرّبين»، ولذا فلا مانع من تسمية هذه الحالة بالذنب الأدبي، ومن الطبيعي أن تكون بإزائه عقوبة أدبية.

هذا إذا نظرنا الى هذه الحالة من الزاوية الاجتماعية، وقد ننظر إليها من زاوية اُخرى هي زاوية نفس الشخص ومدى ارتباطه بالجهة التي يقدّم العمل لها، فإن كانت علاقته بتلك الجهة علاقة ضعيفة فلا يعدّ صدور مثل هذه الحالة منه ذنباً ولا نقصاً، بخلاف ما إذا كانت تربطه بتلك الجهة علاقة حب أكيد وشوق بدرجة عالية، فسنجده حينئذٍ ينحوباللائمة على نفسه لصدور مثل هذه الحالة منه إزاء محبوبه، وكلّما اشتدّت العلاقة وازداد الحبّ اشتدّ اللوم على النفس وازدادت تلك الحالة سواداً في عينيه حتى يعدّها ذنباً عظيماً، والى هذا يشير القول المعروف: «لا تنظر الى صغر المعصية، وانظر الى عظمة الخالق الذي تعصيه»، فمثل هذا الإنسان الذي أخذت محبة الله بمجامع قلبه واتّجهت نفسه بشوق ما بعده شوق الى الكامل المطلق فلم يعد له مطلوب سواه، ولا دين إلّا هذا الحب وتحقيق مقتضياته بالقيام بصالح الأعمال والابتعاد عن الموبقات لأنّ الله يحب ذلك، لا طمعاً في جنّته ولا خوفاً من ناره، وإنّما لصرف الحب المتأصل.

مثل هذا الإنسان إذا عرضت له غفلة أوجفوة عن محبوبه عدّ ذلك ذنباً عظيماً، حتى ليكون الانشغال بضروريات الحياة معدوداً عنده من الذنوب التي تلقي بينه وبين محبوبه أسدال الستار.

وعلى هذا المعنى تحمل الآيتان الأوّليان من الآيات الثلاث الماضية. وعليه أيضاً يحمل ما ورد في الأدعية المأثورة عن المعصومين عليهم السلام من

الاعتراف بالذنوب والمعاصي وطلب التوبة والاستغفار منها، وهكـذا الآيـات التي تنسب المعصية الى الأنبياء الكرام ﷺ .

وأمّا قوله تعالى: ﴿إنّا فتحنا لك...﴾ فإنّ الذنب المذكور فيها ﴿ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك...﴾ إنّما هوبلحاظ نظر الآخرين وما تصوّره الأعداء ذنبـاً ارتكـبه النبيﷺ لأنّ الآية تجعل الفتح سبباً لغفران الذنب، ولا معنى لهـذا الربـط بـين الذنب والفتح إلّا إذا حملنا الذنب على ما تصوّره الأعداء ذنباً.

ذلك أن النبيﷺ قد واجه حملة عنيفة من المعارضة والتشويش والاتهام قبل الهجرة الى المدينة وبعدها، إلّا أن تلك المعارضة لم تحقّق أهدافها، وانتصر الرسول عليها وعلى أصحابها، بعد أن حمل السيف وجاهد المشركين والكفّار وقاتلهم قتالاً عنيفاً، فاحتسب الأعـداء ذلك مـنه ذنـباً، لذا كـانوا يـتربصون بـه الدوائر، إلّا أن الله تعالى أتى بنيانهم من القواعد فخرّ عليهم السقف من فوقهم، وأدار عليهم دائرة السوء بالفتح المبين، ففنيت شوكتهم وخمدت نـار فـتنتهم، وبهذا يكون الله قد غفر لنبيّه ما ظنّوه ذنباً صدر منه.

وليس هذا المعنى غريب على القرآن الكريم، فـفي قـصة مـوسىﷺ نـقرأ حكاية القرآن على لسانه ﴿ولهم عليّ ذنب فـأخاف أن يـقتلون﴾[١] أي أن الأعـداء يحسبوني مذنباً بحقّهم لعمل سابق مـني إزاءهـم، ولربـما كـان وصـف جـهاد النبيﷺ الرائع بـأنه ذنب كـنوع مـن أنـواع المشـاكـلة البـلاغية والمـحسنات البديعية.

---

(١) الشعراء: ١٤.

وما ذكرناه هو تفسير الإمام الرضاعليه السلام للآية حينما سأله المأمون عن الذنب المذكور فيها فقالعليه السلام : «لم يكن أحد عند مشركي أهل مكة أعظم ذنباً من رسول الله صلى الله عليه وآله.. فقال المأمون: لله درّك يا أبا الحسن»[١] .

ومن الآيات التي تمسّك بها المنكرون للعصمة قوله تعالى: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبيّن لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين﴾[٢] وقد نزلت هذه الآية إثر صدور إذن من النبيصلى الله عليه وآله لبعض المنافقين بعدم الخروج الى الجهاد، لأنهم لوخرجوا مازادوا المسلمين إلّا خبالاً ولأوضعوا خلالهم يبغونهم الفتنة ولقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلّبوا للرسول الأُمور حتى ظهر أمر الله وهم كارهون، فإذنهصلى الله عليه وآله لهم كان إضفاءاً للستر على نفاقهم، رحمة بهم.

ولو تأمّلنا الآية قليلاً وجدناها تصبّ اللطف في قالب تأكيد المدح من العتاب، وكأنّ الآية تقول للرسول: ما زلت عفواً ستاراً رحيماً حتى دعتك هذه الملكة المتأصّلة فيك الى الستر على المنافقين والمنشقّين عليك، وهذا من ألطف المدح، وليس فيه ما يدلّ على المعصية.

ومنها: قوله تعالى: ﴿يا أيّها النبيّ لم تحرّم ما أحلّ الله لك تبتغي مرضات أزواجك﴾[٣] فقد تمسّكوا بهذه الآية رغم سياقها الظاهر في المدح والثناء على النبيّصلى الله عليه وآله حيث إنّ النبيّصلى الله عليه وآله حرّم على نفسه الخلوة بمارية زوجته، أوحرّم تناول العسل تحقيقاً لرغبة زوجاته، فضحّى بما يحلّ له ويهنئ حياته من أجلهنّ وإيثاراً منه لهنّ على نفسه، فأشاد الله سبحان بصفته هذه بأُسلوب

---

(١) عيون أخبار الرضا: ج ١/ ص ٢٠٢.

(٢) التوبة: ٤٣.

(٣) التحريم: ١.

يبدو منه العتاب ويراد به المدح.

ومنها قوله تعالى: ﴿وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتّق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾[١] .

وقصّة ذلك أنّ الجاهلية كانت تحرّم الزواج على من يدّعي الانتساب لأب معيّن، وكان زيد بن حارثة قد نسب نفسه للرسولﷺ فصار دعياً له، كما أنه كان مولىً له، فأراد الإسلام إزالة ذلك التحريم الجاهلي على الأدعياء فقام الرسولﷺ بتزويج بنت عمته زينب بنت جحش لدعيّه زيد، ثم حصلت مشاكل بينهما وأراد زيد طلاقها، فأوحى الله سبحانه الى نبيّه أنّ زيداً سيأتيه طالباً منه الطلاق من زينب، فلمّا حضر زيد وبيّن عزمه على الطلاق أمره الرسولﷺ بترك ذلك وتقوى الله، وهو يخفي في نفسه الشريفه ما أُوحي إليه من أنّ الأمر سينتهي الى الطلاق، خشية أن تقع الناس في الفتنة، ولم يكن يخشى الناس على نفسه لقوله تعالى: ﴿الذين يبلّغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلّا الله﴾ وإنّما كان يخشاهم لأنفسهم، بمعنى يخشى وقوعهم في الفتنة.

وعليه فإنّ قوله تعالى: ﴿والله أحقّ أن تخشاه﴾ لا يراد به أنّك فضّلت خشية الناس على خشية الله سبحانه، ولو كان كذلك لكانت خشيته منهم حقاً وخشيته من الله أحق، وهذا منافٍ للقصر المذكور في آية: ﴿الذين يبلّغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلّا الله﴾[٢] . فكلمة «أحقّ» الواردة في الآية ليست للتفضيل، وإنّما هو للتعيين كما في قوله تعالى:﴿وبعولتهن أحقّ بردّهن﴾ .

---

(١) الأحزاب: ٣٧.

(٢) الأحزاب: ٣٩.

وهكذا نجد الآية كسابقتيها في معرض بيان رأفة الرسول بالناس وحرصه على صلاح شأنهم، وكأنّها جميعاً بمضمونها تشير الى قوله تعالى: **﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتّم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾**(١) .

ومن الآيات التي تمسّكوا بها ما نزل على طريقة **«إياك أعني واسمعي يا جارة»** كما في الحديث المروي عن الصادقعليه السلام، ومن تلك الآيات قوله تعالى: **﴿يا أيّها النبيّ اتّق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾**(٢) وقوله تعالى: **﴿الحقّ من ربّك فلا تكوننّ من الممترين﴾**(٣) وقوله تعالى: **﴿ولا تطرد الذين يدعون ربّهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين﴾**(٤) .

وهذا النوع يشمل آيات كثيرة منصرفة كلّها عمّا قيل من دلالتها على وقوع النبيّصلى الله عليه وآله في الخطأ أوالمعصية، لأنّ المقصود الأساس بهذه الخطابات أفراد كانوا من أصحاب النبيّصلى الله عليه وآله يقعون في ذلك فيتوجّه الخطاب للرسول على طريقة **«إياك أعني واسمعي يا جارة»** أي أنّ المقصود بها الأصحاب الذين ارتكبوا تلك الأعمال وليس النبيّصلى الله عليه وآله نفسه.

ومنها بعض الآيات التي فسّرتها روايات دخيلة مدسوسة بتفسيرات تتنافى والعصمة، كالآية الكريمة: **﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيّ إلّا إذا تمنّى**

---

(١) التوبة: ١٢٨.

(٢) الأحزاب: ١.

(٣) البقرة: ١٤٧.

(٤) الأنعام: ٥٢.

ألقى الشيطان في أُمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته﴾[(١)] .

وهذه الآية عبّرت عن حقيقة هامة في مسيرة الرسالات وتأريخ النبوّات، وهي أنّ العمل الرسالي والنبويّ لا يخلومن العقبات، وكثيراً ما كان الأنبياء يتمنّون النجاح في مهمّاتهم النبويّة وإيصال مجتمعاتهم الى الأهداف السماوية المرسومة والانتصار على الأعداء وسحقهم، وما تكاد هذه الأماني تستقرّ في نفوسهم وخواطرهم حتى تبدأ الخطوات الشيطانية لتلغيم الطريق وإضعاف العزائم النبويّة وسدّ السبل بوجههم، إلّا أنّ الله غالب على أمره، فينسخ الله إلقاءات الشيطان الموهنة لعزائم الأنبياء ووساوسه المؤيسة لهم، ثمّ يرسّخ أماني الأنبياء وأهدافهم وعزائمهم، هذا ما يفهم من الآية الشريفة، ولكن بعض المفسّرين والمؤرّخين نقلوا أخباراً واهية مدسوسة في موضوع الآية وتفسيرها، وهي أن النبيّ ﷺ كان قد تمنّى أن ينزل الله آية يرتضيها الأعداء ليجلب بها قلوبهم، فلمّا شرع في تلاوة سورة النجم وتلا قوله تعالى: **﴿أفرأيتم اللات والعزّى ۞ ومناة الثالثة الأُخرى﴾**[(٢)] أجرى الشيطان على لسانه كلاماً في استمرار الآية وهو «تلك الغرانيق العلى وإنّ شفاعتهنّ لترتجىٰ» وإن النبي قد قال ذلك، ولكن هذا الكلام لا يمكن نسبته الى مؤمن من المؤمنين فضلاً عن أعظم الأنبياء وخاتم الرسل، لما فيه من نسبة الكفر الصريح الى الساحة المحمدية، وكيف يتمنّى الرسول أن ينزل الله كلاماً في مدح الأصنام التي قضى

---

(١) الحج: ٥٢.

(٢) النجم: ١٩ ـ ٢٠

حياته وضحى بكلّ شيء عنده من أجل القضاء عليها، وما سورة «الكـافرون» التي جسّدت قاطعية النبيﷺ المطلقة في مواجهته مع المشركين إلّا دليل كافٍ ينسف هذه الدعوى ويبيّن زيفها وجذورها التحريفية. بل الآية اللاحقة لنفس الآية تنفي ذلك التفسير المختلق، وهي قوله تعالى: **﴿إن هي إلّا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾** .

وقد أنكر العديد من أعلام المسلمين من غير المدرسة الإمامية تلك الروايات مثل ابن حزم الأندلسي[١] والقاضي عياض[٢] والقسطلاني[٣] وغيرهم ممّن أبطلوها وأثبتوا كونها موضوعة.

والحمدلله رب العالمين

---

(١) الأندلسي، علي بن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل: ج ٤ / ص٢٣.

(٢) القاضي، عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى: ج٢ / ص١١٦ ـ ١٢٨.

(٣) القسطلاني، أحمد بن محمد، المواهب اللدنية: ج٢ / ص٨٥ ـ ٨٦.



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مصادر التحقيق

(أ)

ـالقرآن الكريم

ـالاحتجاج، أحمد بن علي الطبرسي، مطبعة النعمان، النجف.

ـأحكام القرآن، أحمد بن علي، ط مصر.

ـالإسلام وأُصول الحكم، علي عبدالرازق.

ـالاختصاص، محمد بن محمد المفيد، مؤسسة الأعلمي، بيروت.

ـالأمالي، محمد بن الحسن الطوسي، ط ايران.

(ب)

ـبحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، ط بيروت.

ـالبرهان في تفسير القرآن، هاشم الحسيني البحراني، ط قم، دار الكتب العلمية.

(ت)

ـ تاريخ الخلفاء، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي‌بكر السيوطي، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، ط مصر.

ـ تذكرة الخواص، يوسف شمس الدين المعروف بسبط بن الجوزي، ط النجف.

- تفسير ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي المعروف بأبي الفداء، طبع مصر سنة (١٣٠١ هـ) هامش تفسير فتح البيان لابن حسن القنوجي.
- تفسير الخازن، علي بن محمد المعروف بالخازن.
- تفسير روح البيان، إسماعيل حقي البروسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- تفسير الصافي، محمد محسن الفيض الكاشاني، طهران، المطبعة الإسلامية.
- تفسير العياشي، محمد بن مسعود العياشي، ط بيروت، مؤسسة الأعلمي، هاشم الرسولي المحلاتي.
- تفسير القمي، علي بن إبراهيم القمي، ط النجف.
- التفسير الكبير، فخر الدين محمد بن عمر الرازي، بيروت، دار الفكر.
- تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ط ٢، مصر، دار المنار.
- تفسير نور الثقلين، عبدعلي بن جمعة الحويزي، ط قم، تصحيح وتعليق: السيد تصحيح وتعليق: السيد هاشم الرسولي المحلاتي .

(ج)

- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، ط ٢، مصر.
- جواهر البلاغة، أحمد الهاشمي، ط ١٠، مصر.

(ذ)

- الذريعة الى تصانيف الشيعة، آغا بزرك الطهراني.

(ر)

ـروح المعاني، محمود الآلوسي، ط ٤، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(س)

ـسنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، ط مصر.

ـالسنن الكبرى، أحمد بن شعيب النسائي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

(ش)

ـشرح نهج البلاغه، ابن ميثم، ميثم بن علي، ط ايران.

ـالشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض، مطبعة خليل أفندي، سنة ١٢٩٠ هـ.

ـشواهد التنزيل لقواعد التفضيل، عبيدالله بن أحمد المعروف بالحاكم الحسكاني، وزارة الإرشاد في الجمهورية الإسلامية.

(ص)

ـصحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، طبعة دهلي.

ـصحيح البخاري، محمد بن إسماعيل، دار الجيل، بيروت.

(ع)

ـالعمدة، يحيى بن الحسن بن الحسين المعروف بابن البطريق.

ـعيون أخبار الرضا، محمد بن علي بن الحسين الصدوق، ط قم.

(غ)

- **غاية المرام في حجة الخصام**، السيد هاشم الحسيني البحراني، ط طهران.
- **الغدير**، عبدالحسين الأميني، ط طهران.

(ف)

- **فتح القدير**، محمد بن علي الشوكاني.
- **فرائد السمطين**، إبراهيم بن محمد الحمويني، تحقيق الشيخ محمد باقر المحمودي، ط بيروت.
- **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، علي بن حزم الأندلسي، مكتبة الخانجي، بغداد.
- **الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة**، علي بن محمد المغربي المالكي المعروف بابن الصباغ، ط٣، النجف.
- **في ظلال القرآن**، سيد قطب، دار إحياء التراث العربي.

(ق)

- **القاموس المحيط**. مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة.
- **قرب الإسناد**، عبدالله بن جعفر الحميري، ط ١، النجف، ١٣٦٩ هـ.

(ك)

- **الكافي**، محمد بن يعقوب الكليني، ط بيروت دار الأضواء.

ـ**الكشاف**، محمود بن عمر الزمخشري.
ـ**كفاية الطالب في مناقب علي بن أبي طالب**، محمد بن يوسف القرشي الكنجي الشافعي، تعليق وتصحيح محمد هادي الأميني.
ـ**كليات أبي البقاء**، أبو البقاء الحسيني الكفوي الحنفي، ط سنة ١٢٨٧ هـ .
ـ**كمال الدين**، محمد بن علي الصدوق، ط طهران، تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري.

(م)

ـ**مجمع البيان**، الفضل بن الحسن الطبرسي، ط طهران، تصحيح وتعليق السيد هاشم الرسولي المحلاتي.
ـ**المحاسن**، أحمد بن محمد بن خالد البرقي، دار الكتب الإسلامية، قم.
ـ**مرآة العقول**، محمد باقر المجلسي، دار الكتب الإسلامية، طهران، تصحيح: السيد هاشم الرسولي المحلاتي.
ـ**المستدرك على الصحيحين**، محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
ـ**مسند أحمد**، أحمد بن حنبل، دار صادر، بيروت.
ـ**المفردات**، الحسين بن محمد الراغب الاصفهاني، دار المعرفة بيروت.
ـ**مقاتل الطالبيين**، أبوالفرج علي بن الحسين الاصفهاني، ط بيروت.
ـ**المناقب**، علي بن محمد المعروف بابن المغازلي الشافعي، تحقيق محمد باقر البهبودي، ط طهران.

ـ المناقب ويسمى بـ «فضائل أميرالمؤمنين عليه السلام»، موفق بن أحمد الخوارزمي، ط النجف.
ـ المنطق، الشيخ محمد رضا المظفر، ط ايران.
ـ منهاج السنة النبوية، أحمد بن عبدالحليم بن تيمية، المكتبة العلمية، بيروت.
ـ المواهب اللّدنية بالمنح المحمدية، أحمد بن محمد القسطلاني، المطبعة الشرفية في مصر سنة ١٩٠٨م.
ـ ميزان الاعتدال، محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق محمد علي البجاوي.
ـ الميزان في تفسير القرآن، العلّامة محمد حسين الطباطبائي، ط ٢، بيروت.

(ن)

ـ نسيم الرياض في شرح الشفاء للقاضي عياض، شهاب الدين أحمد الخفاجي المصري، ط ١، المطبعة الأزهرية بمصر.
ـ نظم درر السمطين، جمال الدين محمد بن يوسف الزرندي الحنفي، ط النجف.

الفهرس